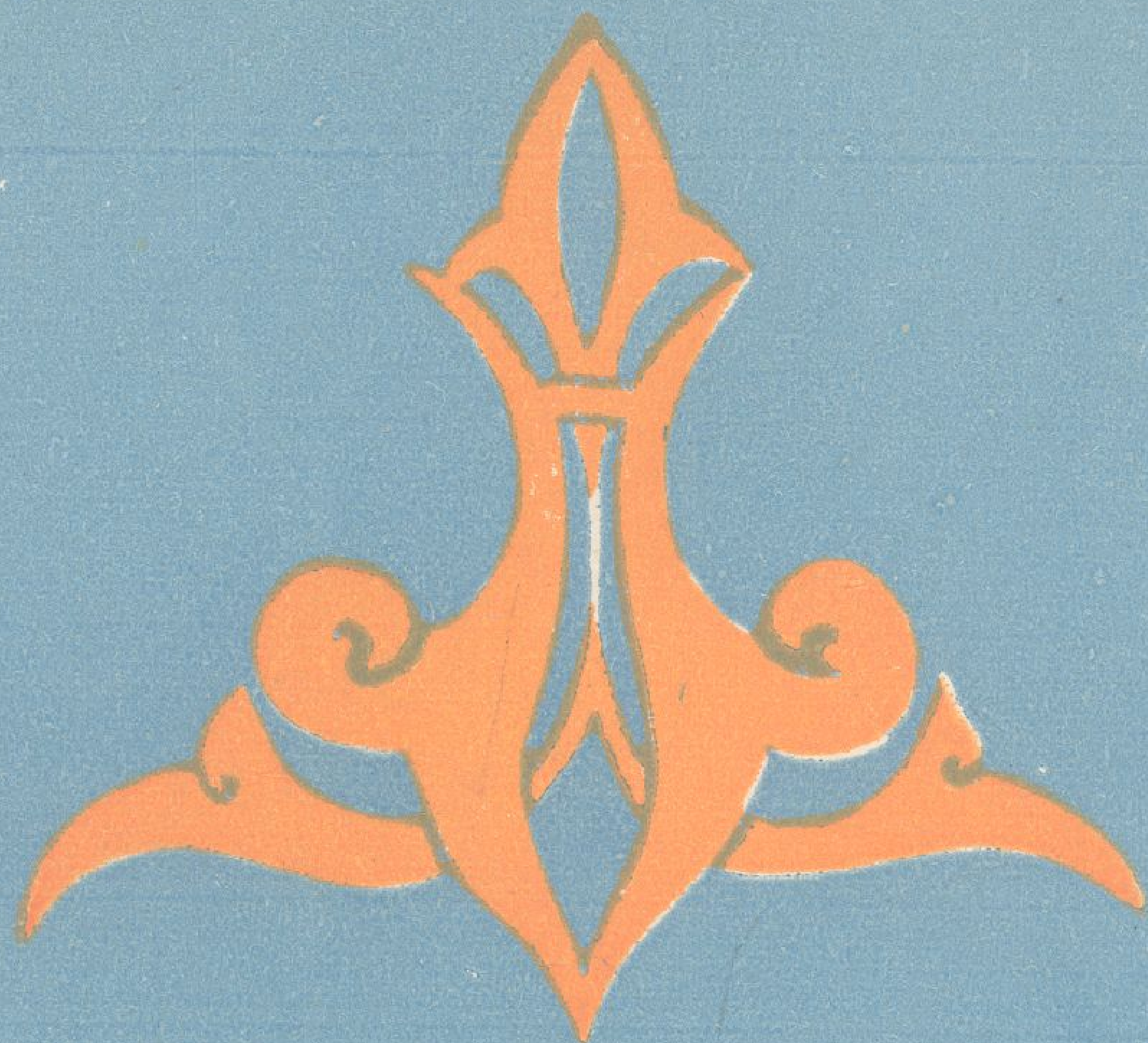
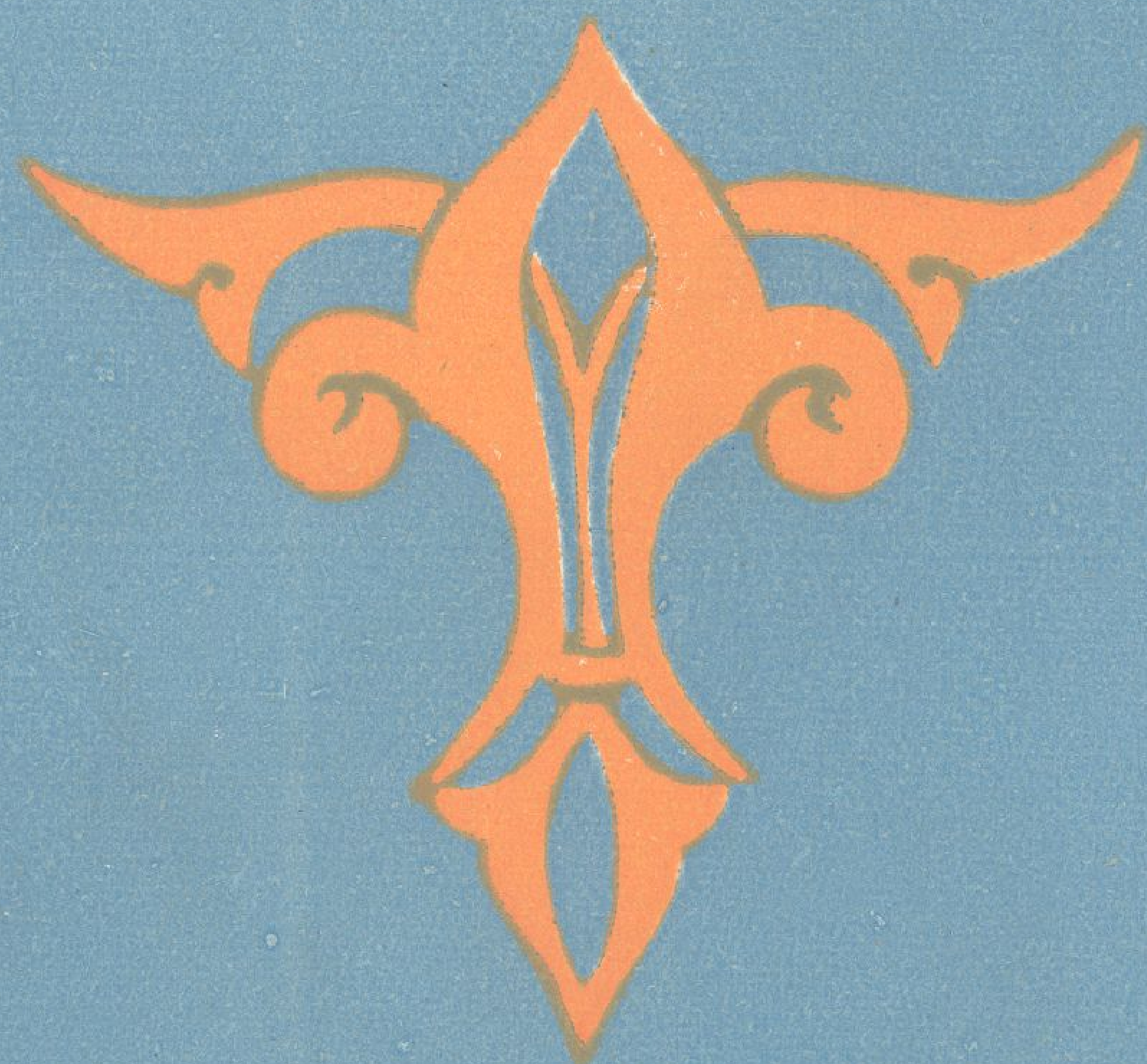


جرجي زيدان

تاريخ التمدن الاسلامي

الجزء الثاني



تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثاني

يبحث في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، واسباب تلك الثروة ، واسباب اضمحلالها ، وثروة المملكة ومدنها وقراها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

هذا الجزء

ضمن المؤلف المرحوم جرجى زيدان هذا الجزء من كتابه كل المعلومات التى استطاع جمعها بجهده الدءوب من المراجع التى كانت فى متناول يده وقت تأليفه . وقد نشرت بعد ذلك اصول ووثائق عظيمة الاهمية بالنسبة للموضوع ، من اهمها الوثائق البردية المصرية التى يعدها المستشرق ادولف جروهمان وتنشرها دارالكتب المصرية ، وقد صدرت منها أربعة أجزاء بالانجليزيةوجزء باللغةالعربية،وأصدرت الجمعيةالمصريةللدراساتالتاريخية كتابا بالانجليزية منتأليفجروهمانعنوانه: In the World of Arabic Papyri ضمنه معلومات قيمة خاصة بالنظام المالى لمصر خلال فترة التبعية للخلافة ، ونشر كارل هاينريخ بيكر كراسة عن الضرائب فى مصر الاسلامية ، وظهرت دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاوروبية ، وفيها مواد داخلة فى صميم موضوع هذا الكتاب ، ونشر فيليب حتى ترجمته الانجليزية لفتوح البلدان للبلاذرى ، وعبد العزيز الدروى أبحاثه المسماة « دراسات فى تاريخ العصر العباسى الثانى » وغير ذلك كثير ، فأشرنا الى هذه الابحاث كلها فى تعليقاتنا على هذا الجزء (١)

وقد تركت تعليقات المؤلف كما هى ، وهى تشير الى الطبعات التى رجع اليها ، وقد بينها كلها فى الجزء الاول من تاريخ التمدن ، وقد رجعت الى طبعات اخرى فى بعض الاحيان ، ولكنى لم أشر اليها الا حيثما كانت هناك زيادة تقتضى الاضافة

ويضم الكتاب مقارنات عظيمة القيمة بين الاحوال المالية فى الدولة العباسية والاحوال المالية للدولة العثمانية وللدولة المصرية فى عصره ، فتركت ذلك كله على حاله نظرا لاهمية المعلومات التى يوردها من الناحية التاريخية ، ولم أر أن أستبدل بها معلومات مماثلة عن الاحوال اليوم محافظة على طابع الكتاب ، وان كنت قد سمحت لنفسى بتحويل قيم العملة الى العملة الجارية اليوم لأن القارىء لا يعرف الليرة التركية أو الفرنك التركى ، وكانا شائعين فى تلك الايام

والله الموفق ..

حسين مؤنس

---

(١) التعليقات المؤشر عليها بعلامة (*) ، هى تعليقات المراجع « الدكتور حسين مؤنس » تمييزا لها عن تعليقات المؤلف المشار اليها بالارقام

مقدمة الطبعة الأولى

فى مثل هذا اليوم من العام الماضى صدر الجزء الاول من هذا الكتاب ، وكان لصدوره تأثير فى عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده فى هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ، ووردت الينا كتب الفضلاء من رجال العلم فى مصر وسوريا واوربا وأمريكا وفارس والهند ، مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة فى هذا السبيل ، وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكنا لقلة المصادر المساعدة على ذلك ، فزادنا هذا كله نشاطا واقداما على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا فى اثناء تاليف هذا الكتاب اننا أعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع أن يجتمع عندنا من مواده ما يزيد على مثل هذا الجزء ، فلما شرعنا فى درس الموضوع والتنقيب عما ينطوى تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامى ، انكشف لنا من احوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال ، فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل اربعة أضعاف ما قدرناه . فأصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة ، ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا فى مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب فى ثلاثة أجزاء أخرى فى مثل حجمه

فلما بدأنا كتابة الجزء الثانى زاد المجال اتساعا ولم يعد يكفى الباقى منه اربعة أو خمسة اجزاء غير هذا ، بحيث تزيد أجزاء الكتاب كلها على ستة أو ربما سبعة أجزاء مما لايمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهى ركن عظيم من اركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى «ثروة الدولة الاسلامية» اى ثروة الحكومة ورجالها ، والى «ثروة المملكة الاسلامية» أى ثروة البلاد وأهلها. وبحثنا فى ثروة الدولة بحثا تاريخيا فلسفيا ، فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من أيام النبى فالخلفاء الراشدين فبنى أمية فالعباسيين . وبينا الاسباب التى دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول ، وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية فى العصر العباسى ، فقسمناه الى عصرين : « الاول » وهو العصر الزاهر ، و « الثانى » وهو عصر الاضمحلال . وفى العصر العباسى

الاول نضجت الثروة وبلغت أوجها ، ففصلنا الكلام فيه تفصيلا وصدرناه بتمهيد فى تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة ، ثم عمدنا الى النظر فى ثروة الدولة العباسية . وقبل الشروع فيه اتينا بفذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى القرن الثالث للهجرة ، شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض . ثم ذكرنا ثروة العباسيين من أيام السفاح والدولة فى طفولتها حتى بلغت أشدها فى أيام الرشيد والمأمون ، فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها فى أيام المأمون وبعيده ، وقابلنا بينها ، فكان مقدار ما يبقى فى بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم فى السنة وهى بقية لم تتفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر فى أسباب تلك الثروة ، فأفضى ذلك الى النظر فى مصادر الجباية ونفقاتها واسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثرة الخراج اربعة :

(١) سعة المملكة الاسلامية

(٢) اشتغال الناس فى الزراعة وتعمير البلاد

(٣) ثقل الخراج المضروب

(٤) صدق العمال فى توريد المال المجموع

وأسباب قلة النفقة ثلاثة :

(١) قلة الموظفين

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية فى العصر الاول نظرنا فى أحوالها فى عصر الاضمحلال ، وقدمنا الكلام بفصل فى علة ذلك الاضمحلال ثم مقدار الجباية فى ذلك العصر . وبحثنا فى سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر فى أسباب قلة الجباية وكثرة النفقات . وأسباب قلة الجباية خمسة :

(١) ضيق المملكة

(٢) تخفيض الخراج المضروب

(٣) استئثار العمال بالجباية

(٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل

(٥) تحول اكثر البلاد الى ضياع (*)

وأسباب كثرة النفقات خمسة أيضا :

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم ، وفيه بحث فيما بلغت اليه ثروة نساء الخلفاء .

(*) المراد هنا : اقطاعات ، جمع اقطاع

(٢) كثرة أبواب النفقة فى الدولة

(٣) زيادة الرواتب . وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفى الحكومة من العمال والكتاب والوزراء والقضاة ، ثم أهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند ، ورواتب اخرى

(٤) النفقة على البيعة

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم ، ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء فى عصر الاضمحلال وتفشى داء الرشوة فيهم ، وما يجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر ، وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء وأخذ أموالهم بالقوة ، وبحثنا مثل هذا البحث أيضا فى العمال والكتاب والحجاب ، وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر فى القسم الثانى وهو « ثروة المملكة الاسلامية » أى ثروة البلاد وأهلها ، فتكلمنا اجمالا عن حالة البلاد فى ذلك العصر ، وعن اختصاص المدن بالثروة وأسباب انحصارها فى الفئة الحاكمة ومن ينتمى اليهم من أهل الوجاهة والنفوذ وسائر أهل البلاد فى فقر مدقع . وختمنا الكلام بوصف أشهر المدن الاسلامية فى مصر والشام والعراق والمغرب والاندلس ، كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وما بلغت اليه من الثروة والعمران فى عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء أهمية موضوعه ووعورة مسلكه ، فعمد أرباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده فى الجرائد والمجلات فضلا عن الكتب الخاصة ، فرأينا فى مجمل ذلك ما نشطنا ، لكننا رأينا لبعضهم انتقادا لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق ما يعلمه هو من مصادر هذا الموضوع ، فرددنا عليه وبينا له ان التبعة فى ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المصادر وأسندنا كل قول من أقوالنا الى مصدر وثيق أجمع المؤرخون على صحته (١) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد فى جرائد اخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ فى بعض المواضع — والخطأ فى تعجله — لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين . وقد اوردنا أكثر أسمائهم فى مقدمة الجزء الاول ، فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا أنفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء أن نذيل صفحاته بالمآخذ التى نقلنا عنها تلك الحقائق ، ولكننا أمسكنا عن ذلك ضنا بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأيا ولا قلنا قولا الا وسندنا فيه كتاب أو عدة كتب ، فالاشارة الى تلك الكتب فى ذيل الصفحات

(١) راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و ٣٧٥٨

تستغرق جانبا منها . على أننا لو فعلنا ذلك لكفينا انفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء فى الاخذ والرد بلا طائل

***

وقد توسمنا فى مجمل ماقرانا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب فى ذكر المصادر، وكتب الينا جماعة من اهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك ، وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالما كبيرا من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه . . نعنى صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى ناظر العلوم والفنون فى حيدر اباد الدكن ، فانه من اوسع الناس اطلاعا على التاريخ الاسلامى وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتابا يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ، ولكنه انتقد اغفالنا ذكر المصادر فى ذيول الصفحات ، قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامى بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمنى بنوع خاص. ولم أعرضه على أحد الا اعجب به غاية الاعجاب ، وظنى ان تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستانى) ولاشك انه يقع موقع القبول فى البلاد الاسلامية كلها . ولكننى أنتقد عليكم أمرا لايسعنى كتمانه ، وهو أن دأبكم فى التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب فى أوله اجمالا من غير التزام الاستشهاد فى كل محل وموضوع — وفيه مفاسد كثيرة — منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقى أوربا يذكرون أمورا مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب ، فنغتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شىء يذكر ولا مأثرة تنقل . . لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون فى الاستنباط . فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية ومآخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة . ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب ، فما لم تذكر أسماء الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها » اهـ

***

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا أن نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالمصادر التى اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة . واختصرنا فى ذلك جهد الطاقة ، ضنا بالمكان . ولا يخفى ما يقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة . وفى تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلناه من العناء فى تأليفه ، وخصوصا لانه أول كتاب فى هذا الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامى من الكتب التى يلهو بها العامة للتسلية ،

ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي اجتماعي يبين أسباب نشوء المدنية وأسباب انحطاطها ، ويتخلل ذلك ابحاث فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض ، وما ينجم عنها من العبرة والموعظة ، فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة أهل الاطلاع . ولم نعمد الى تأليفه الا بعد أن أعددنا أذهان القراء لهذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة أعوام ، مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الاذهان ولمسنا عند القرّاء شوقا الى مطالعة التاريخ الاسلامي ، عمدنا الى تأليف هذا الكتاب وهو تاريخ الاسلام الحقيقي ، لأن تاريخ الأمة لايقوم بسرد حروبها وفتوحها ، وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعي ومصيرها ، أو هو تاريخ تمدنها . ولنا فيما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيدا للنظر فى تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تتجلى منه للباحثين . أما الظواهر فهى ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وأما حقيقة التمدن فهى ما ينتج عنه من الخير أو الشر ، من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله أو سواهم من بنى الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامى الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وسنحصر بحثنا فى هذا الجزء فى ثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحث فى ثروة المملكة يقتضى النظر فى مصادر تلك الثروة واسبابها واوجهها باعتبار الدول والعصور والنظر فى ثروة كل عصر مع دراسة ما اذا كانت الثروة مفرقة بين الاهالى أومحصورة فى فئة منهم أو فى الحكومة أو فى رجالها ، ودراسة ما يتصل بذلك من وصف ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت أوجها من الغنى والثروة فى العصر العباسى . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات ، وما كان عليه الخلفاء وأتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عولنا منذ اخذنا فى تأليف هذا الكتاب أن نسند كل حادث الى أسبابه ، بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى أصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام ، مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور

والمملكة الاسلامية (*) عند التخصيص هى غير الدولة الاسلامية ، لان

(*) « المملكة الاسلامية » مصطلح يستعمله بعض جغرافيى العرب وكذلك بعض مؤرخيهم (مثل ابن مسكويه فى تجارب الامم) فى معنى العالم الاسلامى . ويستعمل بعضهم ديار الاسلام أو دار الاسلام أو بلاد الاسلام ، ولكن تعبير مملكة الاسلام أغلب . وهم لا يستعملون لفظ « مملكة » فى معنى « بلاد » أو « عالم » فيما يتصل بالاسلام فقط ، بل يستعملونه استعمالا عاما ، فالاصطخرى مثلا يقول : مملكة ايرانشهر (العالم الايرانى) ومملكة الروم (العالم البيزنطى) ومملكة الهند ومملكة الصين . وفى تحديد المراد بلفظ مملكة يقول أبو اسحاق محمد بن ابراهيم الاصطخرى : « ولم نذكر بلد السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الامم ، لان انتظام الممالك بالديانات والاداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ، ولا حظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقوا به افراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك .. » أى أن المملكة هى العالم الذى تنشأ فيه حضارة وينتشر دين وتقوم دولة ونظام

أما الدولة فى المصطلح الحديث فهى الحكومة ، وفى هذا المعنى استعملها المؤلف هنا ، وفى

هذه عبارة عن الحكومة ورجالها ، وأما المملكة فهي البلاد وأهلها. فيحسن والحالة هذه أن تقسم الكلام في الثروة المذكورة الى : ثروة الدولة الاسلامية ، وثروة المملكة الاسلامية ــ ونتكلم في كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبنـــاء على ذلك سنجعل الكلام فى ثروة الدولة الاسلامية باعتبـــار العصور ، فنبدأ بعصر النبى (صلعم) ، فالخلفاء الراشدين ، فبنى أمية ، فالعباسيين . ونقسم كل عصر الى أبواب : بعضها للبحث فى ثروة الحكومة أو بيت المال ، والبعض الآخر للبحث فى ثروة رجال الحكومة ، وما يستلزمه ذلك من النظر فى أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها أو قلتها ، وتاريخ الخراج والجزية وغيرهما وأبواب النفقة وغير ذلك

وبناء على ذلك نقول ان ثروة الدولة الاسلامية مرت فى خمسة أدوار أو عصور وهى : (١) عصر النبى (صلعم) (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بنى أمية (٤) عصر العباسيين الاول أو عصر الازدهار العباسى (٥) عصر العباسيين الثانى أو عصر الاضمحلال. أما الدول الاسلامية الاخرى فى مصر والاندلس وغيرهما فالكلام فى ثروتها يأتى عرضا بطريق الاستشهاد أو التمثيل ، لان المراد بالتمدن الاسلامى انما هو التمدن العباسى الشهير (*)

المصطلح القديم هى القوة والسطوة والسلطان أو صاحب هذه الصفات أو البيت الذى يتمتع بها ، فيقال : دولة عبد الملك بن مروان ، دولة صلاح الدين ، والدولة الاموية ، والدولة الفاطمية ، وما الى ذلك ، وتطلق أيضا على المنطقة التى يشملها نفـــوذ صاحب الدولة أو أصحابها ، فدولة صلاح الدين تعنى أيضا البلاد التى كان يحكمها ، والدولة الاموية هى البلاد التى دخلت فى طاعتها ، ومن هنا أيضا قيل : دولة الاسلام ، بمعنى البلاد التى يســـودها الاسلام ، ودولة النصرانية أى البلاد التى تسودها النصرانية ، فى معنى يقارب معنى « المملكة ». واستعمال لفظ « دولة » فى كتب التاريخ الاسلامى غير دقيق ، لان المؤرخين ظلوا مقيدين بالمعنى اللغوى واشتقاق دولة من دال يدول

أنظر : الاصطخرى (طبعة دى خويه) ص ٤ ــ ٥

ابن مسكويه (طبعة امدروز) ج ٥ ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤

وقد آثر المؤلف هنا أن يأخذ بالمعنى الحديث للفظ الدولة ، وجرى على ذلك فى تقسيمه

(*) كان هذا هو المفهوم عامة على أيام المؤلف ، لان المعلومات عن غير الدولة العباسية كانت قليلة ، أما الان فلدينا من التفاصيل ما يمكننا من القول بأن بغداد لم تكن المركز الوحيــد لحضارة الاسلام ، وأن حضارتها لا تعنى الاوج الحضارى الاسلامى فى كل ناحية ، فبغــداد لا تمثل العمارة الاسلامية ، وانما تمثلها القاهرة وقرطبة وغرناطة والاستانة ، وما من قمة من قمم الحضارة الاسلامية الا شاركت بغداد فيها عاصمة أو أكثر من عواصم العالم الاسلامى

ثروة الدولة الإسلامية

١ ــ عصر النبى
من سنة ١ ــ ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها أو ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها ، فالدولة الاسلامية فى عصر النبى لم يكن عندها ثروة حقيقية ، لانهم لم يكونوا يختزنون مالا ولا كان عندهم بيت مال ، بل كانوا اذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق فى أهلها ، واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبى (صلعم) يتولى ذلك بنفسه ، وأكثر الصدقات من الماشية والابل والخيل ، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة فى عصر النبى عبارة عن بقايا الزكاة من ابل أو خيل أو ماشية ، وتمتاز عن أموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى (١) وبميسم كان النبى نفسه يسمها به (٢) وبلغت الأموال فى أيام النبى نحو ٤٠٫٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها (٣) ومن هذه الأموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم (*)

---

(١) الماوردى ١٧٦ (٢) البخاري ١٩٠ ج ١ (٣) شرح الموطأ « خط »

(*) نشأت فكرة « المال العام » فى الاسلام عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة مباشرة . ففى الكتاب الذى كتبه رسول الله بين المهاجرين ووادع فيه اليهود فقرة تدل على نشوء هذه الفكرة : « ٠٠ وأن المؤمنين لايتركون مفرحا (مدينا) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل » و « ان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله » و « أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » وغير ذلك (راجع ابن هشام ، طبعة الحلبي ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٥٠) وهى عبارات يفهم منها أن المال العام اذ ذاك كان مال المسلمين كافة : الجماعة كلها تقوم بالنفقات العامة ، والقادرون من أفراد الجماعة يعينون غير القادرين ، وقد كان هذا مطبقا بصورة عملية . أما فكرة مال خاص بحكومة الجماعة يكون تحت تصرف رئيسها (رسول الله) فلم تنشأ الا بعد بدء الغزوات . وفى السرايا السابقة على بدر كانت الغنائم قليلة ، وكانت تفرق فى الحال ، أما بعد بدر فقد اجتمع للمسلمين مال كثير ، بعضه جمال وماشية وبعضه أشياء ذات قيمة وبعضه مال دفعه الاسرى ، وقد أحصى ذلك كله ووضع فى أماز ، فأما الابل والماشية فوضعت فى المرعى المسمى بالحمى ، وأما المال فيغلب أن رسول الله احتفظ به فى بيوت بعض أزواجه ووضعه تحت تصرف الجماعة الاسلامية

ثم فرضت الزكاة ، وكانت تجمع « من الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والانثى ، صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من زبيب » (ابن سعد ١٣/٢) أو قيمة ذلك من المال ، وكان الجانب الاكبر من المجموع يفرق فى الفقراء ويستخدم فى مطالب الجماعة المختلفة وخاصة فى اعداد الغزوات . وكان رسول الله يفرق بين ماله ومال الجماعة تفريقا واضحا جدا ، فكان فى يوم الاضحى مثلا يذبح كبشين : واحداً « عن أمتى جميعا ، من شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ » وواحدا عن نفسه وآله : « هذا عن محمد وآل محمد » (نفس المصدر ، ص ٦٤)

٢ ـ عصر الخلفاء الراشدين

هذا هو عصر الاسلام الذهبى ، عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا فى حشد الاموال بأية وسيلة كانت

بيت المال

توفى النبى والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التى قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجات ، وكان اكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر ، وردت عليهم الاموال ذهبا وفضة فأدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها ـ يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفير فقال له عمر : «بم جئت ؟» قال : «بخمسمائة ألف درهم» فاستكثره عمر وقال : « أتدرى ما تقول ؟ » قال : « نعم . . مئة ألف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال : « أيها الناس قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عدا » (١) وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبى ، ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل : « يا أمير المؤمنين ، لو تركت فى بيوت الاموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى . انى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا » (٢)

ويبدو أن رسول الله قد جمع هذه الاموال كلها وجعل عليها بلالا ، فقد جاء فى ابن سعد فى خبر وفد سعد هذيم : « فأمر بنا فأنزلنا وضيفنا ، فأقمنا ثلاثا ، ثم جئنــاه نودعه ، فقال : امروا عليكم احدكم ، وأمر بلالا فأجازنا بأواق من فضة ورجعنــا الى قومنا » (ابن سعد ٢/٩٤) . والغالب أيضا أن أبا بكر كان قواما على الاموال ، فقد قعد بعد وفاة الرسول يؤدى للناس ما على الرسول . وليس لدينا دليل على أن رسول الله كان يسجل الاموال فى ديوان ولو أن هذا هو الاغلب ، فقد كان منظما دقيقا ، لا تدخل قبيلة في الاسلام الا كتب لها كتابا بما عليها ، ومن يفعل هذا يستبعد ألا يكون قد سجل الدخل والخرج فى كتــاب . غير اننا نستبعد صحة ما ذكره مالك فى الموطأ من أن الاموال بلغت على أيام الرسول ٤٠٠٠٠ ما بين ابل وخيل وغيرها

(١) المقريزى ٩٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٤٨ ـ ٢ والفخرى ٧٥

فلما كثرت الاموال فى أيام عمر ووضع الديوان (*) فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرم على المسلمين (**) اقتناء الضياع والزراعة او المزرعة (١) لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم ـ أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل لايمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا أسلم احد من أهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان فى يده من الارض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتبا فى الديوان مثل سائر المسلمين (٢) (***)

والفرض الذى كان يرمى اليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدرا للمال الذى يحتاج اليه المسلمون فى اتمام الجهاد ووقفا لمصالحهم مدى الدهور . أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولا تمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة

(*) ينبغى التفريق بين « الديوان » بصورة عامة وديوان المال . فالديوان لم يكن أول الامر الا سجلا أو سجلات تدون فيها البيانات الخاصة بهذه أو تلك من نواحي الادارة ، فديوان الجند هو سجل الجند المقيدين الذين تجب عليهم الخدمة العسكرية وما يستحق لهم من العطاء والرزق . وديوان الاموال تقيد فيه الاموال وما الى ذلك . بل كانت هناك دواوين أموال ، لكل ولاية اسلامية ديوان خاص بأموالها . ويذهب فلهاوزن الى أن مال الدولة كان يسمى أولا مال الله ثم سمى بعد ذلك مال المسلمين ، ولا محل لهذه التفرقة ، لان المصطلحين ظلا يستعملان جنبا الى جنب ، ويذهب كذلك الى أن ديوان المال حل محل بيت المال ، وهذا غير صحيح ، لان بيت المال ظل قائمـــا الى جانب ديوان المال ، لان بيت المال هو خزانة ـ أو خزائن ـ المال ، وكان الخليفه يحتفظ به فى داره ، أما ديوان المال ، فالادارة الخاصة بتسجيل الدخل والخرج ، ولم يكن فى بيت الخليفة ، وانما كان الغالب أن يكون فى بيت الوزير
Wellhausen Das Arabische Reich und sein Sturtz. S. 28 sqq.

(**) الاصح أن يقال هنا ، انه حرم على العرب ذلك لا على المسلمين عامة

(١) المقريزى ٢٥٩ ج ٢ (٢) ابن عساكر (نسخة كريمر)

(***) الكلام هنا لا يطابق مايقول به غير ابن عساكر من المؤرخين ، ويبدو أن الامراختلط عليه ، اذ أن القاعدة كانت انه اذا أسلم الذمى وضع عنه ما كان مقررا على أرضه من الخراج وعلى رأسه من الجزية وحمل على بقية الجماعة الذمية التى ينتسب اليها . لان مقادير الخراج والجزية على كل ناحية جملة واحدة بالاتفاق مع أهلها ، ولم تحدد فى الاتفاقات ما ينبغى أن يدفعه كل فرد من أفراد الجماعة ، فاذا أسلم أحد أفرادها أو توفى أو ترهب كان على الجماعة أن تحل محله فى الاداء . وقد كان ذلك محل شكوى الكثيرين من أهالى النواحى ، وانتهى الامر باسقاط ما عليه جملة واستنزاله من الجملة . فاذا أسلم الذمى سقط عن أرضـه الخراج وأصبح ملزما بأداء قيمة عشر المحصول بالاضافة الى الزكاة . ولم يكونوا يفرضـــون للذمى الذى يسلم فى الديوان الا اذا سجل نفسه فى ديوان الجند

انظر : أبو يوسف القاضى فى كتاب الخراج ، ص ٦٤ وما يليها

الشافعى فى كتاب الام ، ج ٤ ص ٨٢ وما يليها

Caetani, Annali dell'Islam, A. H. 21 paragraphe 255

بهم (١) (*) وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، لا تباع ولا تورث لما الزموه انفسهم من اقامة فريضة الجهاد (٢) وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموى وكان يقلد ابن الخطاب فى كل خطواته فقال :

« أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين ، وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » (٣) (**) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة. فلما توفى أبوبكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا دينارا واحدا سقط من غرارة (٤) لانه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لاينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو انفق كل ماكان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم غير ما اكتسبه من التجارة ، لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم. فلما دنا اجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين (٥) وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما

---

(١) كتاب الخراج لابى يوسف ١٤

(*) اذا اشترى مسلم من مسلم أرضا صارت ملكا كاملا له ، ويؤدى عنها العشر ، أما اذا اشتراها من ذمى ظلت رقبتها ملكا للجماعة الاسلامية ، وله حق استغلالها والتصرف فيها بالبيع والتوريث ، وما الى ذلك ، وعليه ان يؤدى عنها الخراج ، لانها أرض خراج وصاحبها يعد من أهل الخراج ، ولهذا كره العرب شراء هذه الارض ، لانه ينزلهم الى مستوى أهل الخراج ، وقد كره الائمة ذلك

انظر : ابو يوسف : الخراج (القاهرة ١٣٤٧) ص ٥٤ وما يليها

(٢) ابن عساكر (٣) المقريزى ٧٧ ج ١

(**) هذا يخالف ما ذكره ابو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٦٢ - ٦٣) ؛ تحت عنوان : « فى قوم من أهل الحرب وأهل البادية على ارضهم وأموالهم » ، قال أبو يوسف : « سألت يا امير المؤمنين عن قوم من اهل الحرب أسلموا على أنفسهم وأموالهم وأرضهم ، ما الحكم فى ذلك ؟ فان دماءهم حرام وما أسلموا عليه من اموالهم فلهم ، وكذلك ارضهم لهم ، وهى ارض عشرية بمنزلة المدينة حيث أسلم أهلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ارضهم أرض عشر ... لايخرجون عنها فيما بعد ويتبايعونها ، وكذلك كل بلاد أسلم عليها اهلها فهى لهم وما فيها ، وأيما قوم صالحهم الامام على ان ينزلوا على الحكم والقسم وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة ارضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ويوفى لهم ولا يزاد عليهم . وأيما رأض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها ، فان رأى ذلك افضل ، فهو فى سعة من ذلك ، وهى أرض عشر ، وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها فى ايدى اهلها ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أرض السواد ، فله ذلك ، وهى أرض خراج ، وليس له ان يأخذها بعد ذلك منهم ، وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ، ويضع عليها الخراج ، ولا يكلفون من ذلك ما لايطيقون »

(٤) ابن الاثير ٢٠٤ جـ ٢ (٥) ابن الاثير ٢٠٧ جـ ٢

وأخبار عمر بن الخطاب في الزهد والنزاهة اشهر من ان تذكر. ويقال بالاجمال انه مؤسس دولة المسلمين ، وقد أسسها على أمتن دعائم الملك - أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ - يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه الا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد (١) ولما طعن وأحس بدنو الاجل قال لابنه : « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فلترد من مال ولدي فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب » (٢) وزهده في الطعام واللباس مشهور

ويقال نحو ذلك في الامام علي ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل . ومن أقواله : « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة أسهم ودعا أمراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولا . ولم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب . وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه وقال : «لوكان عندي اربعة دراهم ثمن أزرار لم أبعه » ومناقبه لاتحصى (٣)

***

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام. فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لايرى في ذلك غبنا - كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة ، وعمرو ابن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين (٤) وغيرهم

ولا غرابة في ذلك ، لان العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شيء ، ويستهلك في مصلحة الامة فانه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفا لرايه . على ان الخليفة نفسه لايولي أعماله الا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ، ويعزلهم لاقل تهمة - ذكر انه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما

(١) ابن الاثير ٢٩ جـ ٣
(٢) اليعقوبي ١٨٣ جـ ٣
(٣) ابن الاثير ٢٠٢ جـ ٣
(٤) اليعقوبي ١٨١ جـ ٢

انقضت السنة كتب اليه : « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشيا حافيا عكازه فى يده ، وادواته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر قال : « ياعمير أجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ؟ وقدجئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها » فقال : « وما معك من الدنيا ؟ » قال : «عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ، ومزود أحمل به طعامى» فقال : « ماصنعت بعملك ياعمير؟» قال : « أخذت الابل من أهل الابل ، والجزية من اهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لاتيتك به» فقال له : «عد الى عملك» (١)

***

ولابد لنا مع ذلك من أن نقف هنيهة للنظر فى أمر يفتقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يختزن مالا ونهى عن اختزانه ، فلو كانت الاموال التى ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم فى أيام النبى وأبى بكر لهان عليه أن لايختزن ، ولكنه فرض أعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم أيضا ان الاموال زادت كثيرا فى أيامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح ، وكلها تؤدى الخراج والجزية فضلا عما يلحق بيت المال من الغنائم — فما الذى كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطيه المذكورة ؟ يظهر انه كان يفرقه فى أهل الحاجة أو لعله كان يستبقى بعضه على أن يفرقه ، ولا يعد ذلك اختزانا لانه انما منع الاختزان للحرب

اقتناء المسلمين للأموال

على ان رأى عمر بعدم اختزان المال ينافى المبدأ الاساسى الذى تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات ، لان اختزان الاموال من ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكا سياسيا ، ولذلك لم تطل مدتهم الا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها ، فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الأموال والاستئثار بالسلطة

وقد باشروا ذلك فى أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ — ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديداً مثل عمر وكان مع ذلك أمويا ، فاعتز الامويون به وأرادوا أن يعيدوا لانفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لان النبى منهم ، فأخذ عثمان يولى الاعمال رجالا من أقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الا يأسا من فوزه على المسلمين . وكثرت فى أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها

(١) المستطرف ٩١ جـ ١

وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته (١) وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وأبطل عثمان محاسبة العمال لانهم من أهله فازدادوا طمعا فى جشد الاموال لانفسهم ، وخصوصا معاوية ابن أبى سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهاء وابعدهم مطمعا ، فكان فى مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها (*)

وكيفية ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقروا الارض فى ايدى أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا فكتب اليه ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هى من قرى أهل الذمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه اياها (٢) . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتبا مقداره ألف دينار فى السنة (٣) وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الايام . فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته ، فجراه ذلك على التمادى فى اقتناء الارض وبيعها فى أيام خلافته والاذن للمسلمين فى ذلك

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة المعروفين مثل طلحة والزبير وسعد وغيرهم ، وزادت أموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠٫٠٠٠ دينار و ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما ١٠٠٫٠٠٠ دينار ، وخلف خيلا وابلا (١) والظاهر ان عثمان اندفع الى

(١) اليعقوبى ١٩١ جـ ٢

(*) المؤلف يتابع هنا اليعقوبى المؤرخ الجغرافى ، وكان شيعى الميول ، ولهذا فقد أسرف فى الحملة على عثمان بن عفان وبنى أمية . والحقيقة أن معظم ماترويه كتب التاريخ عن افساد عثمان لمنهج عمر ومحاباته لبنى أمية واطلاق أيديهم فى الاموال انما هو مبالغات أسرف فيها الشيعة من ناحية واستحبها غير الشيعة من المؤرخين بدافع الاسف على ما أصاب عليا وابناءه من بعده ؛ ويرجع معظمها الى أيام الفتنة الكبرى أيام عثمان ، مثال ذلك مايقال من أن عثمان اعطى خمس أموال افريقية لمروان بن الحكم وآل بيته ، فهى دعوى غير صحيحة ابتكرها عبدالله ابن الزبير ، وكان اذ ذاك شابا منافسا لعبدالله بن سعد بن ابى سرح . وليس لدينا من اخبار حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح على افريقية ما يؤيد هذه الدعوى

(٢) ابن عساكر (خط) (٣) المقريزى ٩٥ جـ ١

تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الاموال ، واغراء أهله وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الارض مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال فى مقابل الايجار أو الضمان كما تقدم . فلما حصلت فتنة الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم (٢)

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن ، لانه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى . وفى حكاية أبى ذرالغفارى مايغنىعن البيان. فقدكان هذا الرجلمغاليا فىالتمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى « ان المسلم لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أوشيء ينفقه فىسبيل الله أو يعده لكريم» (٣) وكان يقوم فى الشام ويقول : « يامعشر الاغنياء ، واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم لان أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق وقد سأله معاوية : « كيف ترى هذا ؟ » فقال أبو ذر : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وانكنت بنيته من مالك فانك منالمسرفين» (٤) فعظم ذلك علىمعاوية فأراد أن يوقعه فى مايوجب محاكمته فبعث اليه بألف دينار أراد أن يغريه بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير الى أبى ذر فرقها حالا مع انها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فأخبره انه انفقه فىساعته. فلم ير معاوية سبيلا الى اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذر» فكتب اليه : « احمله على قتب بغير وطاء» (٥) فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه منجشع بنىأمية وخروجهم عن الحق. فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات . فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة ما نقموه عليه الى مقتله (*)

---

(١) المسعودى ٣٠١ جـ ١ (٢) الماوردى ١٨٣ (٣) ابن الاثير ٥٥ جـ ٣
(٤) ابن الفقيه ١٥٦ (٥) اليعقوبى ١٩٩ جـ ٢

(*) ينبغى أن تؤخذ أخبار أبى ذر الغفارى بكثير من الحذر ، فقد استعمل خصوم عثمان وبنى أمية اسمه فيما وضعوه فيما بعد من أخبار . وكذلك يعده الصوفية أول متصوف فى الاسلام ويحكون عن زهده وتعرضه لأذى الحكام فى سبيل الله قصصا طويلا معظمه موضوع . والاخبار التى يرويها عنه اليعقوبى مشكوك فى صحتها الى حد كبير
ابن سعد : الطبقات (طبعة سخاو) ١٦١/٤ ابن حجر العسقلانى : الاصابة ، ١١٦/٤
اليعقوبى : تاريخ ، طبعة هوتسما ، ١٩٩/٢ ابن الاثير : أسد الغابة ، ١٨٦/٥

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة فى الخلافة وارادها معاوية لنفسه ، رأى بين دعاتها من هم أحق بها منه نسبا وسابقة ، فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته فى الاستكثار منه لبذله فى انشاء الاحزاب — ولا غرو فان المال قوة تتحول الى ماشئته من القوى ، وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ، ولا يزال حتى اليوم المحور الذى تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب أو سلم أو محالفة أو معاهدة وما من فتح أو حصار الا والمحرك عليه أو الداعى اليه « المال » — وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف ، حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل على (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها ، والناس مع ذلك يعلمون أن معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام على : « ان عليا كان يقاتله معاوية بذهبه » (١) وسار بنو أمية على خطوات معاوية فى ذلك ، فجعلوا المال أكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بنى هاشم وعلى الخوارج وغيرهم ، فجرهم ذلك الى الاستكثار منه بأى وسيلة كانت كما سيأتى

فالثروة فى عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ، ولكن تحريمها لم يبق طويلا ، لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب ، أو من يكون فى مثل مناقبه وتقواه مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال وزادهم ميلا الى ذلك رغبة بنى أمية فى الاستكثار منها (*) . فانقضى عصر

---

(١) المقريزى ٤٣٩ جـ ٢

(*) اشارة المؤلف هذه تضع يد القارىء على سبب من أكبر أسباب انتصار بنى أمية فى الصراع السياسى الذى نشب من منتصف خلافة عثمان ، فان الخلاف بين عثمان ورعيته لم يكن خلافا على مبادىء ، ولكن عثمان كان يريد أن يسير فى اتجاه عمر ، اتجاه التقشف والتشدد والصرامة ، وتجاهل الثروة الطائلة التى صارت للمسلمين . كان عثمان يمثل هذا الاتجاه ، أو يريد أن يمثله ، ولكن قواه لم تكن تعينه عليه ، فقد كان شيخا عالى السن ، وكان فيه رفق ولين ، وواجهته معارضة شديدة تزعمها نفر من الصحابة ، وقد زادت معارضتهم حتى أصبحت تحديا صريحا فخرج الكثير من كبار القرشيين الى الامصار وعاشوا فيها فى ترف وانتشرت فى الحجاز ألوان من الترف والاقبال على الدنيا ، رغم جهود عثمان ، فاتهمه نفر من متشددى الصحابة بالضعف والتساهل ، ونادوا بضرورة التزام السيرة الاولى ، وتزعم ذلك النفر على بن أبى طالب ، وضاق الخناق على عثمان واشتد النقد عليه ، وثقلت عليه وطأة على ومن معه واحتاج لمن ينصره ، فتصدى لذلك أهله بنو أمية ، وأصبح النزاع شيئا فشيئا بين بنى هاشم فى ناحية وبنى أمية فى ناحية أخرى . بنو هاشم ينادون بالسيرة الاولى وبنو أمية يجارون التيار العام ويتألفون الناس بالجرى وراء نزعاتهم ومطامعهم ، فكثر جمعهم ، وضعفت جبهة على ومن معه ، لا عن قلة ايمان به ، بل لانه كان ينادى بشىء عسير على الطبيعة البشرية ، ويريد ان يوقف السير الطبيعى للعمران ، فأخذوا يتقاعسون عن نصرته وينفضون عنه ، وانتهى الامر بانتصار معاوية ، لا بالمال وحده بل لانه كان يمثل الاتجاه الاسهل ، الاتجاه الاكثر اتفاقا مع الطبيعة البشرية

انظر عن وصف حالة المجتمع الاسلامى فى ذلك العصر : الطبرى ج ٥ ص ١٣٤ وما يليها وطه حسين : الفتنة الكبرى : عثمان ، القاهرة ١٩٤٨ وعلى وبنوه ، القاهرة ١٩٥٣ .

الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل ابو بكر وعمر مضرب أمثال القوم قرونا متطاولة ، اذا اعوج حاكم أوخليفة طلبوا اليه أن يقتدى بهما ، وخصوصا عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته فى الحق ، حتى ان أشهر عمال بنى أمية ظلما ودهاء أرادوا الاقتداء به فى ذلك ، فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف ــ يقال ان زياد ابن أبيه أراد أن يتشبه بعمر ابن الخطاب فى ضبط الأمور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه أسرف وتجاوز الحد، ثم أراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر(١)

٣ ــ عصر بنى أمية

من سنة ٤١ ــ ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بنى امية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسى . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بنى أمية ومن عمالهم الامور الصعاب ، حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم : « الموالى » ، ويعدون انفسهم ذوى احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر ، واذا صلوا خلفهم فى المسجد حسبوا ذلك تواضعا لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال : « من هذا ؟ » فاذا قالوا : «قرشى» قال : «وا قوماه ! » واذا قالوا : «عربى» قال : « وابلدتاه ! » واذا قالوا : «مولى» قال : « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » . وكانوا يحرمون الموالى من الكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب . ولا يمشون فى الصف معهم (٢) وكانوا يسمونهم العلوج . وفى كتاب الموالى للجاحظ أن الحجاج لما قبض على الموالى الذين حاربوا مع ابن الاشعث أراد أن يفرقهم حتى لايجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التى وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بنى عجل فقال الشاعر :

وانت من نقش العجلى راحته ‏ ‏ ‏ ‏ وفر شيخك حتى عاد بالحكم (٣)

وسنعود الى تفصيل ذلك فى الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية فى المملكة الاسلامية فى جزء آخر من هذا الكتاب ، وانما أشرنا الى ذلك هنا لبيان

---

(١) ابن خلكان ١٢٤ جـ ١ ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) العقد الفريد ٧٣ جـ ٢

(٣) العقد ٧٤ جـ ٢

مقدار تعصب العرب فى دولة بنى أمية على غير العرب ولوكانوا مسلمين (*)
وكان من جملة نتائج تعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا أهل البلاد التى فتحوها وما يملكون رزقا حلالا لهم — يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق : « ما السواد الا بستان قريش ، ماشئنا أخذنا منه وماشئنا تركناه» (١) وقول عمرو بن العاص لصاحب « اخنا » لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو : « انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خف عنا خففنا عنكم» (٢) فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ماشاءوا من أموال الناس ، وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد . فعل ذلك فى بادىء الرأى ترغيبا لهم فى نصرته ، ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بنى أمية الحروب مع أحزاب بنى هاشم والخوارج وغيرهم ، فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من أهل البلاد ، فاستخدموا من العمال من يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلا عن الحرب . وأشد أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة ، وفيهم عبد الله بن الزبير فى مكة ، والمختار بن أبى عبيد فى العراق ، وغيرهما ، فوكل ذلك الى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف فى تحصيل الأموال بحق وبغير حق (٣) (**)

(*) كان هذا هو الرأى السائد عن بنى أمية ، ولكن البحث الدقيق يبين أن بنى أمية لم يكونوا بهذه العصبية للعرب ، وأن الكثيرين من الفاتحين ورجال الدولة على أيامهم كانوا من الموالى مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وغيرهم ، بل لم يكن عامة العرب بهذا الاحتقار للموالى ، وكل مايرويه ابوالعباس المبرد فى الكامل وابن عبد ربه فى العقد الفريد مبالغ فيه ، وجدير بالملاحظة أن هذين المؤلفين كانا من الموالى . وقد ألف فى هذا الموضوع الاستاذ عبد الوهاب النجار كتاب « الموالى فى عصر بنى أمية » القاهرة ١٩٤٨ ولكنه تابع الاتجاه القديم الغالب على كتب التاريخ الاسلامى ، وكتب فيه أيضا فان فلوتن وحمل على العرب حملة شديدة وتابعه معظم المؤرخين المحدثين فى الشرق والغرب ، ما عدا يوليوس فلهاوزن فله اتجاه خاص معتدل بعض الشىء . والموضوع كله فى حاجة الى دراسة جديدة

(١) الاغانى ٣٠ ج ١١ (٢) المقريزى ج ١

(٣) ابن الاثير ١٠ ج ٥ ، وكتاب الخراج لابى يوسف ٦٢

(**) هذا أيضا من قبيل الاسراف فى الحملة على بنى أمية ، وقد زادت واتسع المجال لها أيام العباسيين . فأما قول سعيد بن العاص أن السواد بستان قريش فقد اعترض على ذلك العرب أنفسهم ، وحاسبوا سعيد بن العاص عليه حسابا عسيرا ، وقد أنكره عليه معاوية ابن أبى سفيان ، وأما كلمة عمرو بن العاص فلا ينبغى النظر اليها منفردة ، بل فى النطاق العام لسياسة عمرو فى مصر ، فقد طلب اليه عامل « اخنا » ان يحدد مقدارا ثابتا للجباية يجمع كل عام ، فرفض عمرو ، وقال انه يجبى بحسب ماتطلب الخلافة منه ، « ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف علينا خففنا عنكم » . والواقع ان الضرائب كانت معتدلة جدا فى أيام بنى أمية ، والحجاج نفسه لم يضع ضريبة جديدة وان كان قد اشتد فى جمع الخراج ، وهو لم يشتد على الموالى فقط بل على العرب أيضا . وكان أعداء بنى أمية هم الذين ينادون بالتشديد على الموالى واختصاص العرب بمعاملة خاصة ، خذ مثلا سياسة مصعب بن الزبير فى العراق واسرافه فى احتجان الاموال وارسال الكثير منها الى أخيه عبد الله فى المدينة ، ثم بخل هذا الاخير وضنه بالقليل على العرب ، أما المختار بن أبى عبيد الله فلم تكن له سياسة ولا خطة ، وانما كان طالب سلطان ، ولم تعرف الدولة الاسلامية المكوس والجبايات غير الشرعية أيام بنى امية على أى حال ، بل أيام العباسيين

اجور العمال

وكان عمال بنى أمية يجورون على أصحاب الارض من أهل الذمة فى التحصيل ونحوه ، لا يهمهم بقى لهم من المحصول شيء أم لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة ، فيؤخذ على الارض مال معين زرعت أم لم تزرع ، وكان من شروط الخراج أن يستبقى لاصحاب الارض ما يجبرون به النوائب والحوائج . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ تلك البقية منهم فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما» (١)

والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الارض حمل بعضهم على الاسلام احتماء به فأصبحوا من الموالى ، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج (٢) الخراج مع انهم تنازلوا عن مفارسهم لاهلهم وغادروا القرى وسكنوا الامصار فرارا من تلك الضرائب ، فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لان المسلمين كانوا الى ذلك الحين لايقيمون الا فى المدن التى بنوها هم . وأهل البلاد الأصليون يقيمون فى القرى للزرع والحرث ، فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن رأسه ، وصار ما كان فى يده من الارض وداره الى أصحابه ، يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم ، وينزل هو الى الامصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك فى أيام الحجاج جماعة كبيرة ، ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار : « ان من كان له أصل فى قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » ، فعل ذلك فى أيام ابن الاشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون : «يامحمداه ! يامحمداه ! » ولا يدرون الى أين يذهبون، فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج(٣) (*)

---

(١) الماوردى ١٤٣ (٢) ابن حلكان ٢٧٧ جـ ٢
(٣) ابن الاثير ٢٢٥ جـ ٤
(*) أساء العرب جملة الحكم على أعمال الحجاج واتهموه بالظلم والاجحاف فى جمع الضرائب، مع أن الرجل لم يفعل اكثر من التدقيق فى جمع المستحق للدولة ، وهذا بيان عن مبالغ خراج العراق الى أواخر أيام بنى أمية لتوضيح هذه الناحية :

العهد	مقدار الجباية بالدراهم
عمر بن الخطاب	١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠
عبيدالله بن زياد	١٣٥ ٠٠٠ ٠٠٠
الحجاج بن يوسف	١٨٨ ٠٠٠ ٠٠٠
عمر بن عبد العزيز	١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠
عمر بن هبيرة	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ (سوى الاعطية والارزاق)
يوسف بن عمر	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠

ويتضح من ذلك أن الحجاج لم يزد على سابقه الا ٣٣ مليون درهم أي مقدار الربع ، فهو لم يضاعف الضرائب اذن . ثم أن الثابت انه لم يستحدث شيئا من المكوس ، وانما جاءت الزيادة من أنه كان يعلن للدولة كل مايجمعه لان شعوره كحاكم كان شعورا كاملا ، وكان رجلا نزيها من هذه الناحية . وقد نقص مقدار الجباية أيام عمر بن عبد العزيز لانه انتهج نهجا جديدا ، ثم انه لم يكن اداريا حازما ، ثم هبطت الجباية بعد ذلك بسبب فساد ذمة العمال

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم ، فقد فعل مثله أيضا يزيد بن أبى مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على افريقية (١) وكذلك فعل الجراح فى خراسان (٢) وغيره فيما وراء النهر (٣) وكان أهل سمرقند قد أسلموا على أن ترفع الجزية عنهم ، فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم (*)

أما النصارى وغيرهم من أهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفى فى تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم ، فكانوا يسومونهم العذاب فى تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء أن اعتناق الاسلام لاينجيهم من ذلك ، فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان ، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان ، وفرض على كل راهب دينارا (٤) وهى أول جزية أخذت من الرهبان . وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ بنى أمية

***

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه فى سبيل جمع المال ، فانهم زادوا الخراج عما كان عليه فى أيام الراشدين ـ بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطا ، فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن : « زد على كل امرىء من القبط قيراطا » فكتب اليه : « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟ » (٥) ولعل عمرا لم يطعه فى ذلك لان مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بنى أمية بعد عمرو زادوا فى الخراج ماشاءوا . وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولى الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطا فى كل دينار (**) فلم يصبر

---

(١) ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥
(٣) ابن الاثير ١١١ ج ٥
(*) لم أجد فى المراجع مايؤيد ذلك
(٤) المقريزى ٤٩٢ ج ٢ (٥) البلاذرى ٢٢٧
(**) يبدو أن المقريزى يبالغ فى هذا الكلام ، ونحن نشك فى أن عمرو بن العاص قد جبى من مصر ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ، وأن ابن أبى سرح جباها بعد ذلك ١٤ مليونا ثم تهبط الجباية بعد ذلك الى أربعة ملايين فحسب ، وسنناقش ذلك فيما بعد . وانما نكتفى الآن بايراد بيان مقارن لسير الجباية ، بحسب أقوال مؤرخى العرب ، ليرى القارىء أن الزيادة المنسوبة الى رجل كعبد العزيز بن مروان لا تؤيدها الارقام :

العهد	مقدار الجباية بالدنانير
عمرو بن العاص	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
عبدالله بن سعد بن أبى سرح	١٤ ٠٠٠ ٠٠٠
أسامة بن زيد (خلافة سليمان بن عبدالملك)	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
عبيدالله بن الحبحاب	٤ ٠٠٠ ٠٠٠

والمدة بين أسامة بن زيد وعبيدالله بن الحبحاب لاتزيد على سبع سنوات ، ومن غير المعقول ان يهبط الخراج الى الثلث خلال سبع سنوات ، وعلى أى الاحوال تتضح من هذا البيان حقيقة ، هى التى نريد أن نثبتها هنا : ان الجباية كانت فى تناقص أيام بنى أمية ، ولم تكن فى زيادة ، فأين ذهب اذن المال الذى كان يجبى بالعسف ، وأين ضريبة الرهبان ؟

القبط على ذلك ، وكانوا لايزالون هم السواد الأعظم ، فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعا كبيرا . وحدث نحو ذلك على يد أسامة بن زيد التنوخي متولى الخراج فانه أوقع فى النصارى وأخذ أموالهم . وكثر الالتجاء الى الرهبنة فى أيامه فأراد أن يمنع ذلك لانه يضر فى الخراج والجزية ، فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه ، فكل من وجده بغير وسم قطع يده . وألزم كل نصرانى بمنشور يحمله يدل على انه أدى ما عليه ، وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب (١)

على ان ذلك لم يكن برضى الخليفة ، فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامله بمصر أن يجرى النصارى على عوائدهم وما فى أيديهم من العهود . ولم يطل العمل بهذا الامر فعاد العمال الى ظلمهم ، وفى جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصرانى وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده (٢) . وقس على ذلك أمثلة كثيرة من شدة عمال بنى أمية على أهل الذمة والموالى وغيرهم من العرب

***

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية أن أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم دينارا ، ومدين قمحا ، وقسطين زيتا ، وقسطين خلا فى العام . فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك ، فبعث الى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب مايكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح أيام الاعياد فى السنة كلها فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة (٣)

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالى ، ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم ، وذلك أن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (٤)

---

(١) المقريزى ٤٩٢ جـ ٢ (٢) المقريزى ٤٩٣ جـ ٢
(٣) البلاذرى ٧٣ (٤) كتاب الخراج لابى يوسف ٢٤

وكان عمال بنى أمية فى فارس يخرصون الثمار على أهلها ، أى يحزرون مقدارها ، ثم يقومونها بسعردون سعر الناس الذى يتبايعون به ، فيأخذونها قرفا على قيمتهم التى قدروها (١)

وكان من أساليبهم فى الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الخراب ، وكانوا يفرضون على الاهالى هدية فى عيد النيروز بلغت فى أيام معاوية ... ... ١٠ درهم (٢) وفرضوا مالا على من يتزوج وعلى من يكتب عرضا (٣) وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللاكار بكيل آخر ، ويكلفون أهل الخراج أرزاق العمال ، وأجور المدى وحمولة الطعام ، وثمن صحف وقراطيس ، وأجور الكيالين ومؤونتهم . واذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤديها فى خراجه يقتطع الجابى منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها (٤)

***

ولم يكن عمال بنى أمية يأتون هذه الاعمال من عند أنفسهم دائما ، بل كثيرا ماكانوا يفعلونه بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان ، وكان ذلك شأنه فى تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها (٥) وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصا عبد الملك ، لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة فى استخراج المال الا اتخذها . أما لو أراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم ابطالها ، لان العمال فى أيام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم . ولما جار عمال الاهواز فى أيامه شكاهم أبو المختار يزيد بن قيس بقصيدة ، بين فيها أرباحهم من أهل الرساتيق والقرى وسماهم فى قصيدته ، وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه ، الى أن قال :

فقاسمهم اهلى فداؤك انهم   سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعونى للشهادة اننى   أغيب ولكنى أرى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر اموالهم حتى أخذ نعلا وترك نعلا ، ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم ، فاعترض هؤلاء فقال أحدهم لعمر : « انى لم ال لك شيئا » فقال له : « أخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف (٦)

***

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك فى مشاطرة

---

(١) طبقات ابن سعد (عن فان فلوتن)
(٢) اليعقوبى ٢٥٩ جـ ٢
(٣) الطبرى ١٣٦٧ جـ ٢
(٤) كتاب الخراج لابى يوسف ٦٢
(٥) اليعقوبى ٢٥٨ جـ ٢
(٦) البلاذرى ٣٨٥

العمال ، فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انها سنة سنها عمر ، ثم تدرج الى استصفاء أموال الرعية ، وهو أول من فعل ذلك (١)

فالعمدة فى حفظ النظام على الرأس ، فاذا صلح صلحت الاعضاء. فقد رأيت أن خلفاء بنى أمية طلبوا المال لقيام دولتهم بأى وسيلة كانت ، فأمدوا العمال بالسلطة وأطعموهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال الى أنفسهم أيضا ، واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابى ونحوهما ، فزادت شكوى أصحاب الارض فاضطر العمال الى اخراج أعمال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالى ، ومنهم الدهاقين أصحاب الضياع فى العراق. فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فأجابه : «كنت اذا استعملت العربى كسر الخراج ، فاذا أغرمت عشيرته أوطالبته أوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالامانة وأوهن بالمطالبة منكم ، مع انى جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا » (٢)

***

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الاموال بها ، قال : « بلغنى انه قد يكون فى حاشية العامل أو الوالى جماعة ، منهم من له حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات فليس يحفظون مايوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه ، انما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو من أموال الرعية. ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى... ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة.. وهذا عظيم عند الله شنيع فى الاسلام (٣)

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ماتقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الامور الى ماكانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب. فأصدر أوامره الى العمال بابطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة (٤) وأبطل لعن على على المنابر وكان أهله قد اقتنوا الضياع وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن : «ان من كانت له ظلامة فليأت» فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو كان الحكم على

(١) ابن الفقيه ١٠٩ (٢) ابن الاثير ٦٩ جـ ٤
(٣) كتاب الخراج ٦١ و ٦٢
(٤) الطبرى ١٣٦٦ جـ ٣ ، وابن الاثير ٢٦ جـ ٥

ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . قال ابن الاثير : « وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم : ان أهلي اقطعوني مالم يكن لي ان آخذه ولا هم ان يعطونيه ، واني قد هممت برده على أربابه ، قال : فكيف تصنع بولدك؟ فجرت دموعه وقال : أكلهم الى الله(١) وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها «مظالم» (٢) فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم ، وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والاموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فأتته فقال لها : « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة » (٣) (*)

ولما رأى الموالى عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل الى عمر بن عبد العزيز في الشام وفدا : رجلين من العرب ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر: «ماأنت من الوفد؟» قال : «بلى» قال : «فما يمنعك من الكلام؟» فقال : «ياأمير المؤمنين، عشرون ألفا من الموالى يغزون بلاعطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفيا، وأنا اليوم عصبي. والله لرجل من قومي أحب الى من مائة من غيرهم. وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان» (٤) فقال عمر: « احر بمثلك أن يوفد» وكتب الى الجراح : « انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية» فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح : « أن الناس قد سارعوا الى الاسلام نفورا من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلك فأجابه : « ان الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه خاتنا » (٥)

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب اليه : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه : « أما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر وانا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا . فضع الجزية عمن أسلم قبح

---

(١) ابن الاثير ٢٩ جـ ٥ (٢) ابن الاثير ٢٩ جـ ٥
(٣) ابن الاثير جـ ٤ ص ١٦٤ (طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧)
(*) اكتفى المؤلف بهذا القدر من كلام عمر بن عبد العزيز ، وبقيته ذات أهمية خاصة بالنسبة لبيان التحول في سياسة الخلفاء كما صورها عمر ، وها هي : « ... ثم اختار له ماعنده ، وترك للناس نهرا شربهم (منه) سواء ، ثم ولى أبو بكر ، فترك النهر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك ، حتى أفضى الامر الى ، وقد يبس النهر الاعظم ، فلم يرو أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه » فقالت : « حسبك ، قد أردت كلامك ، فأما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئا أبدا ، فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه »
(٤) الطبرى ١٣٥٤ جـ ٢ (٥) ابن الاثير ٢٤ جـ ٥

الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا — ولعمرى لعمر اشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » (١)

***

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده ، لانه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال . وما فى بنى أمية وعمالهم الا من كره ذلك منه ، فلم يصبروا على خلافته . وانتهت خلافته فى ظروف غامضة سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا «العمرين» أرادوه وعمر بن الخطاب (٢)

فترى مما تقدم ان القواعد الاساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ، ولكن تطبيق هذه القواعد اختلف باختلاف الذين يتولون شؤونها . ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بنى أمية ، ولكنه جاء فى غير أوانه فذهب سعيه هدرا . ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه ، حتى اضطر بعض أصحاب الارض الى الالجاء ، أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتى

أما الخلفاء فانهم زادوا انغماسا فى الترف ، وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر ، واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور (٣) وخلفه أخوه هشام وكان بخيلا ، وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد الحبحاب كما تقدم (*) . وجاء بعده الوليد ابن يزيد بن عبد الملك وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز ، كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته (٤)

---

(١) المقريزى ٧٨ جـ ١ (٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٥

(٣) أنظر الفخرى : الآداب السلطانية (طبعة محمود توفيق الكتبى ، القاهرة ص ٩٥)

(*) وضعت دراسات جديدة عن هشام بن عبد الملك بن مروان وسياسته المالية ، ونخص بالذكر منها كتاب Gabrieli, Il Califatto de Hisham II. Alessandria 1930

وقد ذهب فيه الى أن بخل هشام لم يكن مجرد تقتير ، بل سياسة مالية ترجع الى اهتمام الامويين عادة بالشئون المالية وبراعتهم فيها

(٤) ابن الاثير ٢١٧ جـ ٥

فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر لان الاحوال كانت غير ملائمة . وفى أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو امية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر، واصبحوا لاينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولايبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاما فأهدى هشاما قلادة أخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ (١) وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية ... ١٠٠٠ درهم وهى الذلفاء (٢) وأصبح العمال لا هم لهم الا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدل يرضون بولاية الاعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد فى نفسه : « ان العراق قد اخربها الحجاج وانا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، ادخل على الناس الحرب واعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى » (٣) وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب فى الولايات الا أهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ... ٦٠٠ درهم (٤) وكان العمال يبذلون جهـــدهم فى اختزان الاموال لانفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ... ... ١٣درهم (٥) أي نحو مليون دينار . فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا من عمله الا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر ابن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويســتخرجون كل ما تصــل اليه معرفتهم من أموالهم ، كما فعلوا بخالد القسرى اذ وشى به كاتبه حيان النبطى انه فرق ... ٣٦٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من اخرج معظم هذا المال منه ومن عماله (٦) ويسمون هذا العمل « استخراجا » وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية

اما ارتفاع الدولة الاسلامية فى أيام بنى أمية ، اى مقدار ما كان يجتمع

---

(١) ابن الاثير ٧٢ جـ ٥ (٢) اعلام الناس ٣٥
(٣) الطبرى ١٣٠٦ جـ ٢ (٤) ابن خلكان ٢٨١ جـ ٢
(٥) ابن خلدون ٩٦ جـ ٣ (٦) اليعقوبى ٣٨٨ جـ ٢ وابن الاثير ١٠٤ جـ ٥

لهم من الخراج والجزية وغيرهما ، فقد ضاع تفصيله فى جملة ما ضاع من اخبارهم فى الفتن . على ان المملكة الاسلامية بلغت فى أيامهم اتساعا عظيما يعدل اتساعها فى أيام العباسيين ، ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . وأما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على ان كثيرا منها لم يكن يدفع شيئا يستحق الذكر لان قدم الامويين لم تكن راسخة فيها

***

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال ، وقد فصلنا ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب وخلاصته أنمتوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ... ... ١٣٠ درهم وجباية مصر ... ... ٤٠٠ دينار (أو ... ... ٤٨ درهم) وجباية الشام ... ١٧٢٠ دينار (أو ... ... ٢٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ... ١٩٨٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الاخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج فى أيام بنى أمية بكثرة ، ولكنها لا تسمى ثروة لانها كانت تصرف فى الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا عليا ، والحسين بن على ، والمختار بن أبى عبيد ، وعبد الله بن الزبير ، وحاربوا الخوارج وغيرهم ، ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالى ، فضلا عما كان ينفقه الخلفاء والامراء فى البذخ واللهو والقصف

٤ ـ الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا عظيما : العصر الاول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهر ، يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ هـ الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هـ ، وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وانشأت التمدن الذى نحن فى صدده ، وفيه ادركت ثروة الدولة الاسلامية أعظم ما بلغت اليه فى عصر من العصور ، وعليها مدار الكلام فى هذا الكتاب

والعصر الثانى ، ويعبرون عنه بعصر التقهقر أو الاضمحلال ، يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينقضى بانقضاء الدولة العباسية من بغداد ، وفيه تقهقر التمدن الاسلامى وقلت الثروة وضعفت الدولة ، حتى انحلت عراها وانقضت أيامها

العصر العباسى الاول

من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

سبب قيام هذه الدولة

رأيت فيما تقدم أن العصر الأموى يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسية الدنيوية ، وان خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال ، وأنه يمتاز عن العصر العباسى بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الامم ، وخصوصا الشعوب التى كانت تحت سلطانهم فى البلاد التى دانت لهم ، فى مصر ، والشام ، والعراق ، وفارس ، وخراسان ، وغيرها ، وفيهم : القبط ، والنبط ، والروم ، والسريان ، والكلدان ، والفرس ، والترك ، والسودان ، وغيرهم — حتى الذين أسلموا منهم — فأصبحت تلك الأمم تئن من معاملتهم ، وزادها نفورا ماكانوا يتخذونه من العنف فى تحصيل الخراج ، وأصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم (١) وخصوصا الموالى ، فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا أراضيهم ومنازلهم ، وأصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة. فكان بنو أمية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فىء . وكان خصوم هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالى عليها ويجعلون لهم الارزاق (*) وأول من فعل ذلك المختار ابن أبى عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة ، فعظم ذلك على العرب وقالوا : « ان المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا» فقال لهم المختار يومئذ : « اذا أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير ، وتعطوننى على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم : « ان أطعتمونى لم تخرجوا » فقالوا له : « لم؟» فقال : « لانى أخاف ان تتفرقوا وتختلفوا ، ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان ثم معه

---

(١) ابن الاثر ١٨٩ جـ ٣

(*) سبق أن ناقشنا موضوع خروج أهل الذمة عن أملاكهم بدخول الاسلام ، وأثبتنا أن الواقع يخالف ذلك . أما اخراج الموالى للقتال بلا رزق ولا فىء ، فلم تكن هذه سياسة بنى أمية ، بل كان الخلفاء ينكرون ذلك على من يفعله من قوادهم . والثابت عندنا أن بعض العمال كانوا ينكرون على الموالى حقهم فى الرزق ، وهى المئونة التى تعطى للجندى اذا خرج للحرب ، وهى غير « العطاء » وهو مرتب الجندى ، ولكن أحدا من الولاة أو القواد لم ينكر على الموالى المحاربين حقهم فى الفىء ، بل انهم كانوا لايؤدون اليهم الارزاق اكتفاء بنصيبهم من الغنائم ، وقد اعتمد المؤلف فى قوله ذلك على اليعقوبى وابن طباطبا ، وكلاهما معروف بنزعته العلوية وتعصبه على بنى أمية . وقد ناقش هذا الموضوع مناقشة مستفيضة يوليوس فلهاوزن فى كتابه عن « الدولة العربية وسقوطها » الذى أشرنا اليه

انظر الترجمة العربية التى قام بها الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة « الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية » — القاهرة ١٩٥٧ ، فصل : عمر بن عبد العزيز والموالى

عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم أشد حنقا عليكم من عدوكم ، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » (١)

وكان ذلك شأن الموالى مع كل من قام يدعو الى خلع بنى امية ، ولذلك كثر الخوارج فى أيامهم وقام فى نفوس العرب ان الخلافة لايشترط فيها القرشية (٢) على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد أجيال . أما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من أهل بيت النبى ، وفيهم العلويون من نسل الامام على ابن عم النبى ، والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من أكثر الناس نقمة على بنى امية للاسباب التى قدمناها . فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم أبو مسلم الخراسانى . ولما نهضوا نهض معهم أعداء بنى أمية من العرب وغير العرب فى كل أنحاء المملكة الاسلامية ، فضلا عن أهل البلاد غير المسلمين . فدارت الدائرة على بنى أمية وانتصر العباسيون ، فجعلوا عاصمتهم فى العراق بالقرب من انصارهم

وعرف العباسيون علة سقوط بنى أمية ، فتجنبوا الوقوع فى مثلها ، فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس ، واستبقوا الجند العربى أيضا من ربيعة ومضر ، رغبة فى المحافظة على العصبية العربية لأنها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين ، لانهم انساقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيى بألبستهم من القلانس ونحوها — جعلوا ذلك فرضا واجبا عليهم . وأول من أخذ الناس بلبسها المنصور سنة ١٥٣ (٣) فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول ، فقال أبو دلامة :

وكنا نرجى من امام زيادة   فزاد الامام المصطفى فى القلانس
نراها على هام الرجال كأنها   دنان يهود جللت بالبرانس

على أن غضب العرب لم يغير شيئا من مجارى الامور ، فاتخذ الخلفاء أمهات أولاد من الفرس ، أولدوهن أولادا تولوا الخلافة ، وفيهم ميل فطرى الى العنصر الفارسى . وازداد هذا العنصر تغلبا فى بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم : كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم فى خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية ، لان فى قيامها صلاح بلادهم

العرب والبيعة

على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب ، وفيها الحرمان : الكعبة وقبر النبى (صلعم) وفى احترامهما احترام الدين الاسلامى ، وعليه

---

(١) ابن الاثير (القاهرة ١٣٥٦) ٤/٣٦٥ — ٣٦٦
(٢) الاستقصا ٦٠ جـ ١
(٣) الطبرى ٢٧١ جـ ٣

تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك انهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل على ، وهم فى حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهذه البيعة من الاهمية فى تأييد الخلافة وتوكيد البيعة ، وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمرا دونهم (١) فشق ذلك على الفرس وخافوا أن يرجع النفوذ الى العرب ، فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم أدراج الرياح ، فسعوا فى اغفال بلاد العرب . ولاسبيل الى اغفالها والكعبة فيها ، وهىحج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فحبب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيرا للكعبة (٢) (*) وقطع الميرة فى البحر عن المدينة (٣) فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين ، وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل على ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك مالك بن أنس الامام الشهير (٤) . وكان بنو أمية فى الاندلس قد قطعوا دعوة بنىالعباس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة (٥) عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب واستقل عبد الرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور، وبذل قصارى همه فى قتله ، ولم يستطع ذلك الا بعد العناء الشديد

***

فكانماقاساه المنصور منعواقب اهماله الحرمينعبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنه المهدى اكرم أهل الحرمين ، وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما جاء به معه من العراق مقداره ... ... ٣٠ درهم ، وجاءه وهو فى المدينة ... ٣٠٠ دينار من مصر ، و ... ٢٠٠ دينار من اليمن ففرقها

---

(١) أبو الفداء ٢٠٩ جـ ١ (٢) الطبرى ١٩٧ جـ ٣

(*) لم أجد عند الطبرى أو ابن الاثير ما يؤيد القول بأن المنصور ابتنى القبة الخضراء ليصرف الناس بها عن الكعبة أو ليصغر من شأنها . وليست هناك علاقة بين ذلك وثورة محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخيه ابراهيم على المنصور ، بل ان مقدمات ثورتهما ترجع الى ما قبل اختطاط بغداد ، ثم ان العداء بين العرب والفرس لم يظهر فى أيام المنصور وان كانت جذوره ترجع الى طبيعة قيام الدولة العباسية

راجع الخطابين المتبادلين بين المنصور ومحمد بن عبد الله عند الطبرى ، القاهرة ١٩٣٩ ج ٦ ص ١٩٥ وما يليها

ولم يرد ذكر هدف المنصور من القبة الخضراء الا فى سياق خطبة لمحمد (النفس الزكية) أوردها الطبرى ، جاء فيها : « أما بعد ، أيها الناس ، فانه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها ، معاندا الله فى ملكه ، وتصغيرا للكعبة الحرام ، وانما اخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الاعلى .. » ــ الطبرى ، نفس الطبعة ١٩٨/٦ ، وواضح انها من الدعاوى التى استخدمها محمد (النفس الزكية) لتأييد دعوته ، وليست حقيقة تاريخية

(٣) ابن الاثير ٢٦١ جـ ٥ (٤) ابن الاثير ٢٥١ جـ ٥
(٥) ابن الاثير ٢٣٥ جـ ٥ و ٤٥ جـ ٦ وابن خلدون ٢٨٠ جـ ٣

كلها وفرق ... ١٥٠ ثوب ، ووسع المسجد واتخذ حرسا من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الارض (١) وأمر بحفر نهر الصلة بواسط وأحيا ماعليه من الارض ، وجعل غلته لصلات أهل الحرمين والنفقات هناك (٢) واصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة فى بنى العباس فى أثناء حجهم ، أو عند طلب البيعة لاولادهم ، فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الامين والمأمون ، فلما وصل المدينة اعطى فيها ثلاثة أعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك فى أهل مكة وبلغ ما فرقه ... ١٠٥٠ دينار وكتب هناك كتابا بولاية العهد للامين وآخر للمأمون ووضع الكتابين فى الكعبة (٣) واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور ، والخلفاء يرون ذلك ضروريا لتثبيت أقدامهم فى الملك

***

على انهم كانوا من الجهة الاخرى لايستغنون عن الفرس ، وهم وزراؤهم ومشيروهم ، فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون ، واستنصر المأمون جند خراسان وهم أخواله (٤) لان أمه فارسية وقام العرب ينصرون أخاه الامين ، وأمه عربية هاشمية (٥) وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على أزمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس ، فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وأرادوا البيعة لسواه واخراج الأمر من يده (٦) فازداد كرها لهم ورذلهم ، فعوتب فى ذلك مرة وهو فى الشام فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان » فقال له : « أكثرت علي . والله ما أنزلت قيسا من ظهور خيلها الا وانا أرى انه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما احببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانيحتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر » (٧)

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب هوانا فى عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى فى مصر ، فان آخر عربى تولاها عنبسة بن اسحق الضبى سنة ٢٣٨ هـ (٨) وأراد المعتصم ان يستغنى عن بلاد العرب جميعا ، وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافا واتخذ منى وعرفات ،

---

(١) الطبرى ٤٨٣ جـ ٣ (٢) قدامة ٢٤٢ (٣) ابن الاثير ٦٩ جـ ٦
(٤) ابن الاثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ (٥) الطبرى ٩٣٧ ج ٣ (٦) ابن الاثير ١٢٦ ج ٦
(٧) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٨) المقريزى ٤٥٥ ج ٢

غرر به أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه (١) فاصبح لفظ « عربى » مرادفا لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم : « العربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه » (٢) وقولهم : « لايفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبى ينصره الله به » (٣) واصبح الامراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب واحزابهم

***

وكان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ، ويطعنون فيمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ، ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعى الشاعر المشهور فى الصميرة ، فلما جاءه نعى المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

***

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الاسلامية كانت فى عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الاول نشر الاسلام فى الارض ، يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفى عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم ، واحتاجوا فى اصطناعهم أو استخدامهم الى المال وانخرطوا هم فى سلكهم بواسطة الامهات . ثم أصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى

(١) المقدسى ١٢٢ (٢) ابن الاثير ٢١١ ج ٦ (٣) الطبرى ١٥٨٨ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

فى العصر العباسى الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب بعد هذا العرض لاحــوال الدولة الاسلامية حتى العصر العباسى ، لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا فى هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى فى بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق ، اذ قد يكون الدخل كثيرا والنفقة أكثر منه وتقع الدولة تحت العجز. فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية فى العصر الاول طائلة ــ وان كنا لم نقف على ميزانيتها فى عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها فى العام مما يعبرون عنه « بارتفاع الدولة » لضياع حساباتها فى الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين (١) وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بنى أمية عام الجماجم (٢) ولكننا نعلم مقدار الثروة فى أيامهم مما كانوا يختزنونه من المال فى اثناء حكمهم

الثروة فى أوائل الدولة

فالخليفة الاول ابوالعباس السفاح لم يحكم الا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ ــ ١٣٦هـ ٧٤٩ ــ ٧٥٣ م) قضاها فى الحروب ولم يجمع مالا. ولما مات لم يجدوا فى بيته الا تسع جبات وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز(٣). وأما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ ٧٥٣ ــ ٧٧٤ م) وكان رجلا حازما كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه ، لا عن بخل ولكنه كان يخاف الفتن. فلما مات خلف فى بيت ماله ٦٠٠ ... ... درهم و ... ١٤٠٠٠ ... دينار (٤) وبتحويل هــذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ــ وهى قيمته فى ذلك العصر تقريبا ــ كان مجموع ما خلفه المنصور ... ... ٨١٠ درهم (والدرهم نحو خمسة واربعين مليما) . فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدى قائلا : «قد جمعت لك فى هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك

---

(١) قدامة ٢٣٦
(٢) الماوردى ١٨٣
(٣) الطبرى ٨٨ ج ٣
(٤) المسعودى ١٧٧ ج ٢

لا تزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا » (١) ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على أن سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء ، وهو فى الحقيقة مؤيد دولة بنى العباس ، حارب فى سبيل سلامتها حروبا كثيرة أنفق فيها أموالا طائلة منها ... ٦٣٠٠٠٠٠ درهم انفقها فى حرب الخوارج بافريقية سنة ١٥٤هـ ، فاعتبر ما أنفقه فى الحروب الاخرى وهى كثيرة ، فضلا عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم فى يوم واحد... ١٠٠٠٠٠٠درهم (٢) وانفق على بناء بغداد وحدها ... ٤٨٣٣٠٠٠ درهم (٣) ناهيك بما كان ينفقه على اصلاح الرى وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال فى أيام المنصور بمليار درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سنى حكمه (٢٢) لحق السنة ... ٤٥٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الاموال التى كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج اموالهم . لأنه كان اذا عزل عاملا أخذ ماله وتركه فى بيت مال مستقل سماه «بيت مال المظالم» وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى ابنه المهدى فى ذلك قائلا : « قد هيأت لك شيئا ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئا ، فاذا أنا مت فادع هؤلاء الذين اخذت منهم هذه الاموال التى سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » (٤) ففعل المهدى ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن أن المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بنى أمية بعد قهرهم وهى كثيرة ، ولكن تلك الاموال ظلت منفردة فى خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت اللعنة » (٥)

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد ، فقد خلف فى بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ... ... ٩٠٠ درهم ونيفا (٦) ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر فى البال أن هذا المال تجمع من أيام المنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد ولم يجتمع كله فى أيام الرشيد ، ولكن الواقع أن المهدى أنفق كل ماخلفه المنصور وكل ماجباه فى أثناء خلافته (من سنة ١٥٨ ــ ١٦٩) (٧) لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادى الا سنة وبعض السنة ، ويروى من فرط سخائه انه أعطى عبد الله بن مالك أربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها ، فلا يعقل أن يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد فى بيت المال انما جمع فى أيامه ، واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيرا عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع فى السخاء . فقد

(١) الطبرى ٤٤٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) المقدسى ١٢١ وسير الملوك ٥٤
(٤) الطبرى ١٥٨/٦ (٥) ابن الاثير ٤٠/٦ (٦) الطبرى ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج٦
(٧) المسعودى ١٧٧ ج ٢

كان الرشيد كريما حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة (١) وكان المنصور متهما بالبخل (٢) ناهيك بما كان من أمر البرامكة فى أيام الرشـــيد وما امتلـكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا ، وكان الامين فى بغداد وقد اتته امه زبيدة بخزائن ابيه (٣) والمأمون فى خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات أنفق الامين فى أثنائها كل ما كان فى بيت المال مع ما أنفقه فى خاصته . لانه انقطع فى أثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال فى طلب الملهين وضمهم اليه ، واجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن اخوته واهل بيته وقسم الأموال والجواهر فى خواصه من الخصيان والنساء (٤)

فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوثق الامر فى المشرق والمغرب للمأمون ، وزاد نفوذ الخراسانيين فى أيامه لانهم هم الذين اعادوا الملك اليه ، واستتبت السكينة فى المملكة العباسية واشتغل المأمون فى نقل العلوم الى العربية ، وسنأتى على تفصيل ذلك فى جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب

***

أما الثروة فى أيام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمـــل واجتماع القلوب ، ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وأبى جده المنصور ، ولـكننا لم نقف على مقدار ما خلفه فى بيت المال عند وفاته ، ولعل خبر ذلك ضاع فى جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخى تلك الايام بهذه الابحاث

على ان ادخار المال أصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين فى كل الممالك والعصور . قيل أن عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠ ــ ٣٥٠) جمع فى بيت ماله الى سنة ٣٤٠هـ نحو ... ... ٢٠ دينار (٥) وكانت جباية الاندلس فى أيامه ... ٥٤٨٠ دينار ومن السوق والمستخلص ... ٧٦٥ دينار فالجملة ... ٢٤٥ ٦ ماعدا اخماس الغنائم فانها كانت كثيرة (٦) وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وينفق ثلثها على شئون الدولة ويدخر الباقى (٧) وقد بالغ ابن خلدون فى مقدار ماخلفه الناصر فى بيت المال فجعله ... ... ٥ دينار ولم يذكر ذلك جزافا ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ... ٥٠٠ قنطار (٨) وهو قول بعيد لا ندرى كيف تطرق

---

(١) الطبرى ١٣٣ ج ٢

(٢) اقرأ أخبار بخله وتقتيره عند الطبرى ، تاريخ ٣٠٩/٦ وما بعدها وابن الاثير ١٢ ج٦

(٣) أبو الفداء ٢٠ ج ٢ (٤) أبو الفداء ٢٢ ج ٢ (٥) ابن حوقل ٧٧

(٦) نفح الطيب ١٧٩ ج ١ (٧) ابن خلكان ٣٠ ج ٢ (٨) ابن خلدون ١١٥ ج ١

الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده عن المعقول ان ابن حوقل وهو من معاصرى تلك الدولة قدر ما اجتمع فى بيت مال الحكم المستنصر بن الناصر بعد موت أبيـــه من خدمه والمصـــادرين وغيرهم فلم يزد على ٤٠٠ ... ... دينار وعد ذلك كثيرا لم يجتمع لدولة من الدول فى ذلك العصر (١) وكانت بغداد يومئذ فى عصر الاضمحلال وخلفــاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضا

اما فى أيام المأمون فالمال الذى كان يجتمع من صوافى الجباية فى بيت المال كل عام لم يجتمع فى دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية فى مقدمة ابن خلدون نقلا عن «جراب الدولة» (٢) وهى أقدم جريدة أو قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية ، تليها جريدة أخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبه ، وكلها لا تتجاوز أواسط القرن الثالث للهجرة ، وسنذكر كلا منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية أن نأتى على فذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى أيام المأمون ، لتتضح نسبة أعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملـكة العباسية

جغرافية مملـكة الاسلام

فى عصر المـأمون

حدودها

يحدها من الشرق أرض الهند بما يلى حوض نهر السند شرقا وبعض الصين وبحر فارس ، ومن الغرب مملكة الروم ، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان فى آسيا وجبال البيرينيه فى أوربا . وفى خريطة هذه الايام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلى مصر من بلاد النوبة (*) وقد بينا مساحتها وعدد سكانها فى الجزء الاول من هذا الـكتاب

وتقسم هذه المملكة الى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى

---

(١) ابن حوقل ٧٧ (٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

(*) تركت تحديد المؤلف على حاله ، فهو يعطى أسماء هذه النواحى كمـا كانت أيام تأليف هذا الكتاب ، ونذكر هنا التحديد بحسب الاسماء الحالية

من ناحية الشرق يقول المؤلف : البحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار، وهى تعادل اليوم : البحر الاسود وتركيا والبحر الابيض وروسيا وبلغاريا واليونان، ونظن ان الاصح أن يقال ان هذه حدود مملكة الاسلام من الشمال . أما من الشرق فبلاد

بعض باختلاف الدول والازمنة ، وسنبين ما كانت عليه حوالىٰ عصر المأمون نقلا عن جغرافيي العرب فى تلك الايام وخصوصا الاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه . فهى تقسم الى سبعة وعشرين اقليما ، منها سبعة فى المغرب وعشرون فى المشرق وهى :

اقاليم المغرب	اقاليم المشرق		
ديار العرب	العراق	ارمينية	قومس
بحر فارس	خوزستان (الاهواز)	اذربيجان	مفازة خراسان
ديار المغرب	فارس	بلاد الران	سجستان
مصر	كرمان	الجبال	ما وراء النهر
الشام	مكران	الديلم	خوارزم
بحر الروم	طوران	طبرستان	
الجزيرة	السند	جرجان (*)	

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

ديار العرب

وهى جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان — وهو مصب ماء دجلة فى البحر — فيمتد على البحرين حتى ينتهى الى عمان ، ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهى الى سواحل اليمن الى جدة ، ثم يمتد الى مدين حتى ينتهى الى ايلة (وهى ايلات الحالية على خليج العقبة) . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ، ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب الشمالى برا بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة (أى البحر الميت) فالشراة

التبت وبورما والهند ، بحسب الحدود القديمة . أما اليوم ، فقد اتسعت رحاب بلاد الاسلام حتى شملت الملايو وأندونيسيا ووصلت الى الفيليبين

ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان فى آسيا وجبال البيرنيه فى أوربا : السرير شعب لم تستطع التعرف عليه ، وان كان يغلب على ظننا أن قراءته الصحيحة سرفز Cervos وهو الاسم القديم لشعب الصرب ، وكانت مساكنه الاولى عند ما يعرف الان ببحر أورال بين الجمهوريات الاسلامية السوفيتية الثلاث أوزبكستان وتركمانستان وكازاكستان ، وقد ذهب المؤلف الى ان بلاد السرير هى بلاد سيبريا الحالية ، وهو فرض مقبول ، والخزر واللان من الشعوب التى كانت تجاور بلاد الاسلام حول بحر قزوين ، أما جبال البيرنيه فتعرف اليوم خطأ بالبرانس وصحتها جبال البرت بضم الباء او البرتات اى جبال الباب أو الابواب ، وهى ممرات الجبال

ومن الجنوب بحر فارس وما يلى مصر من بلاد النوبة ، وبحر فارس غير الخليج الفارسى، وهو الذى يعرف اليوم بالمحيط الهندى ، وبلاد النوبة تقابل السودان الحالى ، وقد ظلت مسيحية الى القرن الرابع عشر الميلادى ثم انتشر فيها الاسلام بعد ذلك

(*) عن تحقيق هذه الاقاليم كلها انظر :
Guy Le Strange, Lands of the Eastern Califate

فالبلقاء فاذرعات وسلمية فالخناصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليفها ، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين ، وبادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام ، واليمن المشتملة على تهامة (*) ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن

بحر فارس

ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة فى العراق الى ايلة (١) فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه فى هذا المقام

ديار المغرب

يراد بها فى اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غربا ويدخل فى ذلك (١) برقة (٢) افريقية وهى تونس (٣) تاهرت فى الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة فى مراكش

أما برقة فهى مدينة وسط ، واقعة فى مستو من الارض خصبة تطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر ، وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب ، وهى من عمل افريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس ، وهى كبيرة خصبة ثم القيروان وهى عاصمة افريقية وأكبر مدينة فيها واقعة فى البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها أيضا سجلماسة وهى بعيدة فى الصحراء

ويجعلون الاندلس جزءا من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها . والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة ، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادى الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك

مصر

وحدود مصر فى تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريبا ويلحقون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الاحمر فالعقبة

(*) يريد أن تهامة تدخل فيها ، والمعروف أن تهامة من الحجاز
(١) الاصطخرى ٢٨

الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة أقسام :
(١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق
(٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول اجناد الشام غربا ، يحده من جهة مصر رفح ، ومن الشمال اللجون وفيه يافا واريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغوربيسان ونابلس ، وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها فى الكبر بيت المقدس

وجند الاردن قصبته مدينة طبرية

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق ، وهى أعظم مدن الشام على الاطلاق وهى معروفة

واما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهى مشهورة ، ويتبعها الطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين

وجند قنسرين قصبته حلب وهى مشهورة الى اليوم ، وكان لها شأن كبير لوقوعها فى طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها مدينة قنسرين وهى صغيرة ومعرة النعمان

واما العواصم فيراد بها اعالى الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتها انطاكية ، وهى تلى دمشق فى النزاهة ، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم ، وكان عليها سور ضخم للغاية قيل ان دوره للراكب يومين (١) ومن مدن العواصم بالس على ضفة الفرات ومنبج فى البرية

اما الثغور فهى ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس فى آسيا الصغرى ، ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهى أكبر الثغور ، وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة واذنة وطرسوس . وقد يدخلون الثغور فى العواصم ويطلقون عليها جميعا اسم العواصم . والمراد بالثغور عندهم (أى عند المسلمين) المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ، ولذلك كان عندهم ثغور شامية أى الحدود مما يلى الشام وحدود جزرية أى الحدود مما يلى الجزيرة

بحر الروم

ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له فى غرضنا الآن

الجزيرة

بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين ، يسمى القسم الشمالى منها الجزيرة والجنوبى العراق ، والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار أو هيت على الفرات . ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين فى بعض المواضع . يحدها من الشمال ميافارقين وما يليها غربا الى الفرات قرب ملطية ، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ، ويحدها من الغرب الجنوبى بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال واذربيجان

والجزيرة بلاد خصبة جدا مثل بلاد العراق. ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار فى وسط البرية بديار ربيعة ، ليس فى الجزيرة بلد فيها نخل مثلها ، ونصيبين وكانت انزه بلد فى الجزيرة ، ودارا وهى صغيرة ، ورأس عين مدينة مستوية الارض فى دار مضر ، وآمد فى أعالى دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضا ، ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفى أواسطها أيضا حران وهى مدينة الصابئين ، والرها وهى قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب

وفى الجزيرة مفاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، تقيم ربيعة فى الشمال الشرقى ومضر فى الجنوب الغربى وقد كانوا هناك قبل الاسلام . وهم اهل خيل وغنم وابل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة ، وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان اكثر أهلها نصارى

العراق

هو القسم الجنوبى من بين النهرين وما يجاوره ، طوله من تكريت على دجلة من الشمال الىعبادانعلى بحر فارس فى الجنوب ، وعرضه من قادسية الكوفة فى الغرب الىحلوان فى الشرق. ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقا الى شهرزور ثم جنوبا شرقيا الىحلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس الىعبادان، ثم ينعطف الىالبصرة ومنها صعدا نحو الشمال والغرب فىالبادية علىسواد البصرة وبطائحها الىالكوفة ، ثم على الفرات الى الانبار ومن الانبار شمالا الى تكريت. ويسمى مابين دجلة والفرات السواد. هذه حدود العراق فى ابان التمدن الاسلامى ، وهى تختلف عن حدوده الآن وخصوصا لان مجارى الانهر تغيرت ، وسنعود الى تفصيل ذلك فى مكانآخر

واشهر مدن العراق بغداد وهى قصبته ، وعاصمة المملكة الاسلامية فى ابان مجدها ، بناها المنصور. والبصرة وهى مدينة عربية ، بناها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب ، وللبصرة بطائح سيأتى تاريخها فى موضع آخر .

وواسط مدينة عربية أيضا بناها الحجاج فى وسط السواد. والكوفة غربى الفرات وهى من بناء العرب . ومن مدن العراق النهروان شرقى دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن. وحلوان فى آخرحدود العراق شرقا ، وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

خوزستان

هى شرقى العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ، ومن الشرق فارس واصبهان ، ومن الغرب العراق ، ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز، واليها تنسبخوزستان فيقال لها الاهواز. وتقسم الى كور اولها كورة الاهواز. ثم جندى سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم . وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

بلاد فارس

وهى واقعة بينخوزستان فى الغرب وكرمان فى الشرق ، ويحدها شمالا اصفهان وبادية خراسان، ومنالجنوب والغرب بحرفارس. وتقسم بلاد فارسالىخمسكور أكبرها كورة اصطخر، قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة (*) وقصبتها جور، وفيها أيضا مدينة شيراز وهى عاصمة بلاد فارس بها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دارابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ، ثم كورة سابور وهى أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون. ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حى يتعيشون بالمرعى والحرث فى بقاع يقال لها رموم (**). ويقدرون تلك القبائل فى بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ بيت (***) ينتجعون المراعى فى المشتى والمصيف على مذاهب العرب (****) . وقد يكون فى البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاة (*****) نحو عشرة رجال ، فاذا اعتبرنا معدل

(*) كذا فى الاصطخرى ، بالخاء المضمومة ، وفى نسخ اخرى جره بالجيم ودره بالدال (ص ٩٧)

(**) كذا فى الاصل (الاصطخرى ، ص ٦٧) ونظن أن صحتها زموم بالزاى ، جمع : زم ومعناه الزمام ، وهكذا يستعملها الادريسى وياقوت والاصطخرى نفسه يقول فى ص ٦٨ فى الكلام على كورة سابور : «وأما رمومها فهىخمسة وأكبرها رم جيلويه ويعرف برم الزيمجان، ثم الذى يلى هذا الرم فى الكبر رم أحمد بن الليث .. الخ » مما يفهم منه أنه يتحدث عن أزمة سابور ومن المعروف أنه كان من دواوين الدولة العباسية ديوان يعرف بديوان الازمة

(***) فى الاصل (الاصطخرى ، ص ٩٩) ٥٠٠ ألف بيت شعر ، ويراد بها الخيام التى كانت قبائل الاكراد تصنعها من الشعر فتقيم بها ، وكل خيمة لاسرة

(****) يريد انه كان لكل قبيلة موضع تقضى فيه الصيف يسمى المصيف ، وموضع تقضى فيه الشتاء يسمى المشتى كما كانت العرب تفعل

(*****) الارباب هم أرباب البيوت أى أصحابها ، وهم الافراد الذين يملكون الماشية ، والاجراء من يعملون فى خدمتهم لقاء أجر ، والرعاة يرعون لهم لقاء نصيب من نتاج الماشية

الرجال فى كل بيت خمسة كان عدد الرجال الأكراد ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ رجل ، وباعتبار ما يلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

كرمان

هى أكبر من فارس واقعة بين فارس فى الغرب ومكران وسجستان فى الشرق ، ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس ، وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز

مكران

هى شرقى كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند ، وفى الشمال سجستان وبلاد الهند وفى الجنوب بحر فارس ، وهى أكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك وراسك

طوران

هى أصغر من فارس واقعة بين مكران فى الغرب وبلاد السند فى الشرق والشمال وبحر فارس فى الجنوب ، وأشهر بلادها محالى وكيزكانان وقصدار

السند (*)

والسند آخر حدود مملكة الاسلام فى الشرق واشهر مدنها المنصورة وهى بلسان الهنود برهماناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها . أما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها فى شبه الجزيرة وأهلها مسلمون . ويطلق الاصطخرى على مكران وطوران والسند اسم السند (**)

(*) جعل الاصطخرى ، والمؤلف ــ يتابعه هنا ــ كرمان وطوران داخلة فى بلاد السند وقال : « واما بلاد السند ومايصاقبها مما قد جمعناه فى صورة واحدة فهى بلاد السند وشىء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة ، وشرقى ذلك كله بحر فارس ... » ثم يقول : « والذى يقع من المدن فى هذه البلاد : فبناحية مكران التيز وكيز وقنزبور ودرك وراسك .. » . (الاصطخرى ١٧٠ ــ ١٧١)

(**) نورد هنا نص الاصطخرى ، نظرا لاهميته بالنسبة لتقرير حدود مملكة الاسلام ، من ناحية الشرق على أيامه : « وأما مدن الهند فهى قامهل (أيضا قامهل ، وعند الادريسى مامهل ، وفى جيهان نامة : فامهل وتامهل) وكبناية (ايضا كنباته وكنيانه وكيناته ، وفى جيهان نامة : كسانة) وسوبارة (فى جيهان نامة : جوبارة) وسندان وصيمور والملتان وجندراور (عند الادريسى : الجندور ، والمقدسى : جندوار ، وفى نسخة : الجندور ، وكتبها ياقوت : جندراون) وبسمد . فهذه من مدن هذه البلاد التى عرفناها . ومن كبناية الى صيمور من بلد بلهرا بعض ملوك الهند ، وهى بلاد كفر ، الا ان هذه المدن فيها المسلمون ، ولا يلى عليهم من قبل بلهرا الا مسلم ، وبها مساجد يجمع فيها الجمعات ، ومدينة بلهرا التى يقيم فيها مانكير ، وله مملكة عريضة »

الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣

ارمينية

هى فى اعالى مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق اذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (فى آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها ديبل وفيها دار الامارة والنصارى بها كثيرون ، ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ، ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا (*)

اذربيجان

فى شرقى الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وارمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال . عاصمتها مدينة اردبيل وفيها العسكر ودار الامارة طولها ميلان فى ميلين ، ويلى اردبيل فى الكبر المراغة وكانت قبلا دار الامارة وتليها أرميـــة على شاطىء بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرندوشيز

بلاد الران

هى شمال اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب ارمينية ، ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب اذربيجان . أكبر مدنها مدينة برذعة ، ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها

الجبال

يراد بالجبال جبال فارس وهى تقسم الى كور أشهرها ماه الكوفة وهى الدينور ، وماه البصرة وتسمى نهاوند. ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس ، ومن الغرب العراق والجزيرة ، ومن الشمال اذربيجان والديلم والرى وقزوين ، ومن الجنوب خوزستان والعراق. وهى تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وماسبذان واصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان. مساحة همذان فرسخ فى فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد. والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها. واصبهان مدينتان بينهما ميلان. ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين. وحلوان مدينة فى سفح الجبل المطل على العراق. وشهرزور

(*) جاء فى الاصطخرى (ص ١٨٠ ـ ١٨١) : « فأما أرمينية والران وآذربيجان فانا جمعناها فى صورة واحدة ، وجعلناها اقليما واحدا ، والذى يحيط بها مما يلى المشرق الجبال والديلم وغربى بحر الخزر ، والذى يحيط بها مما يلى المغرب حدود الارمن واللان وشىء من حد الجزيرة ، والذى يحيط بها مما يلى الشمال اللان وجبال القبق ، والذى يحيط بها مما يلى الجنوب حدود العراق وشىء من حدود الجزيرة »

قريبة من العراق . وقزوين فى أعالى فارس وهى ثغر بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهى خصبة . وقاشان مدينة صغيرة

الديلم

هى جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض اذربيجان ، ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب اذربيجان . وأهل الديلم صنفان : سكان الجبال وسكان السهول ، ومن توابعها الرى وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان

طبرستان

وهى تلى الديلم شرقا واقعة على بحر الخزر ايضا يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . اكبر مدنها آمل وهى مركز الولاية وسارية وهى بلاد كثيرة المياه ودماوند (أو دنباوند)

جرجان

هى شرقى طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . أكبر مدنها مدينة جرجان وهى اكبر من آمل . ثم استراباد فى الجنوب ودهستان على شاطىء البحر

قومس

هى جنوبى جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال . وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ، ومن الغرب تحدها بلاد الرى قصبتها مدينة الدامغان

مفازة خراسان

هى بادية واقعة فى اواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ، ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والرى وهى أقل من بادية العرب سكانا ، وبعض هـــذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملى فارس وكرمان ، وهى وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها

سجستان

هى واقعة فى شمالى مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند. ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

خراسان

هى من اخصب بلاد المشرق واوسعها يحدها من الشرق الشمالى ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبى بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز فى تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس. وتقسم خراسان الى كور اعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وباذغيس وكنج — وستاق ومرووذ وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهى اعظم مدنها جميعا وتسمى ايضا أبو شهر ، واقعة فى ارض سهلة ابنيتها من طين سعتها فرسخ فى فرسخ . ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهى قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم

ما وراء النهر

هى آخر بلاد الاسلام شمالا شرقيا يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ، ومن الغرب الجنوبى خراسان يفصل بينهما نهر جيحون . ومن الشمال الغربى خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من أخصب اقاليم الاسلام وانزهها وأكثرها خيرا. واشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش واشروسنة وخوجند

خوارزم

ويعدها الاصطخرى تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون فى الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب . قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالى عصر المأمون ونسبة اقاليمها بعضها الى بعض ، تمهيدا لما سنذكره من جباية المملكة العباسية ، وهى تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس . ولم يكن كل اقليم منها قائما بذاته يؤدى خراجه باسمه ، فان بعض هذه الاقاليم كان داخلا فى عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف الاعصر ، فربما ورد فى قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ، ويكون المراد خراج اقليمين أو اكثر مما دخل تحت سيطرة عامله ، اذ كثيرا ما كان الخلفاء يولون العامل عدة اقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها

وقبل الشروع فى ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع

الدولة ، لابد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم أو الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا فى كلامنا عن ولاية الاعمال فى الجزء الاول انها كانت فى بادىء الرأى اشبه بالاحتلال العسكرى منها بالتملك . وكان العمال فى عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم ، وواجباتهم مراقبة سير الاحكام فى البلاد التى افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج ، وظلت اعمال الحكومة فى داخل البلاد المفتوحة جارية على ماكانت عليه قبل الفتح. وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة فى البلاد موظفين من أهلها الاصليين ، فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه ناحيتهم من نفقات ، ودفعوا الباقى الى الحاكم المسلم ، وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الرى من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقى الى بيت المال فى عاصمة الخلافة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية فى زمن الراشدين ، ولما أفضى الامر الى بنى امية واضطر معاوية الى اكتساب الانصار زاد فى نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم ، فازدادوا استقلالا فى أعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم فى أيام عبد الملك ومن جاء بعده — الا جباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين: القبط فى مصر والدهاقين فى العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافى الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقى الى بيت المال فى دمشق ، وهو مايعبرون عنه بارتفاع الجباية. واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقى(١)

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمنا فى هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر أن العمال زادوا استقلالا من هذا القبيل عما كانوا عليه فى أيام بنى أمية ، حتى آل الامر أخيرا الى تضمين الخراج أى تقبيله (*) ، وهو أن يوظف على العامل مال

---

(١) المقريزى ٧٧ ج ١

(*) تقبيل الخراج أو أى مصدر من مصادر الايراد الثابت للدولة معناه المعهود به الى رجل يلتزم بأدائه الى الدولة على أقساط ثم يقوم بزراعة الارض واستغلالها بنفسه. فالمتقبل على ذلك يختلف عن الملتزم اختلافا واضحا : ان المتقبل كان يتعهد بنفسه بالزراعة والعمل ، أى أنه مزارع ، أما الملتزم فى العهد التركى فكان يدفع قيمة الالتزام للدولة ثم يجمعه كيف شاء . وقد لجأت الدولة الاسلامية الى تقبيل الارض من أوائل أيام الدولة العباسية، فكانت كل ناحية تقسم قبالات اى اقساما مالية ، وتوكل كل قبالة الى المتقبل الذى يعرض مبلغا اكبر . وقد عثر جروهمان على اوراق بردية مصرية تثبت أن نظام القبالات عرف فى مصر

معين يدفعه فى السنة الى بيت المال فى بغداد ، وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لايطالبه الخليفة الا بالمال المضروب ، ويكون ذلك فى امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افريقية ، وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠،٠٠٠ دينار معونة له ، فلما تولاه ابن الاغلب تنازل عن هذا المال وبذل أن يحمل كل سنة ٤٠،٠٠٠ دينار(١) وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانونا قائما ، فوجه بمولى له فوزع خراج الارض بأربعة وعشرين الف دينار (٢) وكذلك فعل المأمون مع عبدالله ابن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١هـ و٢١٢هـ قدرا معينا سيأتي ذكره ، وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند (٣) ثم صار التوظيف المذكور ضمانا وتكاثر حتى آل الى استقلال الامراء بولاياتهم

وجملة القول أن المال الذى كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلانى انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد أداء أعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الرى وسائر الكلف (٤) أو بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة اى مجموع صافى الدخل ، لاينفق منه الا على موظفى الدواوين ورجال الدولة فى بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سيأتى تفصيله . وقد صرح ابن خلدون فى مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية فى أيام المأمون بقوله : « ما يحمل الى بيت المال ببغداد فى أيام المأمون من جميع النواحى نقلته عن جراب الدولة » (٥) فبالقياس على ما تقدم يعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انه صافى أموال الجباية

من أوائل العصر العباسى ، وان القبالة كانت تعطى لمدة اربع سنوات ، ووصف المقريزى فى الخطط (٩٨/١) الطريقة التى كان يتم التقبيل بها فقال : « ان متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الاراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما انتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين من اجل الظمأ او الاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى هذا الامر خرج كل من كان تقبل ارضا وضمنها فى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضى ما ينفقه فى عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائبة (أى بحسابه) مقدرة فى الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين »

(١) ابن الاثير ٦٣ ج ٦ (٢) اليعقوبى (كتاب البلدان) ١٣٢ (٣) ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ (٤) المقريزى ٩٧ ج ١ (٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

جباية الدولة العباسية

فى العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية فى ايام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل فى السنة . والتوفق الى ذلك نادر فى تاريخ الاسلام لان القوم قلما يدونون غير حوادث الحرب والفتح والثورات وما الى ذلك

أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضا ، وهى :

(١) قائمة ابن خلدون : هى أقدمها كلها ، وقد أوردها ابن خلدون فى مقدمته فى عرض كلامه عن « أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » ، وقال انه نقلها عن جراب الدولة ، وفيها مقدار الخراج الذى كان يرد على بيت المال فى بغداد فى ايام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالى الاعوام . وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون فى مصر والشام ، فراينا خطأ فى أسماء بعض البلاد الواردة فى تلك القائمة ، نظنه وقع من النساخ لتشابه فى أشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمة المذكورة ، لان الخطأ اللفظى المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوى ، لوقوعه فى أسماء البلاد أو الاقاليم التى حمل الخراج منها ، وهاك اصلاحها :

١ ــ كنكر (١) : هى لفظة لا معنى لها فى هذا المقام ، وصوابها « كسكر » ، وهو اقليم من أقاليم السواد

٢ ــ طبرستان والروبان ونهاوند (٢) ، فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء ، وهى من اقليم الديلم وقد ذكرناها فى محلها ، ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال كما تقدم . ونظرا لبعدها من طبرستان والرويان ، فالغالب أن يكون المراد بها بلدا آخر قريبا من هناك ، نظنها « دماوند » ، وهى من كور طبرستان

---

(١) فى السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠

(٢) فى السطر ٢١ من الصفحة المذكورة

٣ ـ ما بين الكوفة والبصرة (١) : لم نر فى سائر القوائم ولا فى غيرها من التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الالمانى ، ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة ، دخلت فى القوائم الاخرى باسم آخر(٢) . والصحيح على ما نرى ان النساخ اخطأوا فى قراءتهم « مابين » ، وصوابها « ماها » أو «ماهين» : مثنى « ماه » ، فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال ، قصبة الاولى نهاوند ، وقصبة الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورَتين من قائمة ابن خلدون بالكلية

٤ ـ ماسبذان والدينار (٣) : ماسبذان من كور الجبال ، تقدم ذكرها ، واما « الدينار » فلا مسمى لها فى بلاد الاسلام ، وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معا فى هذه القائمة ، فهى على الغالب مبدلة من « الريان » وهى كورة بقرب كسكر فى العراق (*)

وهناك غلط نسخى فى تعيين مقدار الخراج فى بعض الاقاليم صوابه ظاهر ، مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم ، والعادة أن لايدونوا فى الديوان آحاد الدراهم (٤) فالغالب أن يكون صوابها وثمانمائة الف درهم . وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم ، والصواب ٢٥ الف الف درهم ، لانها نحو ذلك فى القائمتين الاخريين . وكقوله فى طبعة بولاق عن خراج قومس «الف الف مرتين وخمسمائة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف » ، فيكون خراجها ... ٥٠٠ ١ درهم و ١٠٠٠ من نقر الفضة . وكقوله عن العسل الوارد من الموصل انه ... ... ٢٠ رطل والاقرب الى الصواب أن يكون ... ٢٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر ، فقد ورد هناك انه « الف الف الخ» ، والصواب على ما نرى « الفا الف الخ » بالقياس على جبايتها فى ذلك العصر . والخطأ انما وقع فى النسخ لتشابه اللفظين خطا

اما زمن هذه القائمة ، فقد عينه ابن خلدون صريحا فقال انه فى أيام المأمون ، ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ ـ ٢١٨ ، وحساب بيت المال فى بغداد احترق فى الفتنة بين الامين والمأمون ثم لم يدون

---

(١) فى السطر ٢٦ من تلك الصفحة (٢) Cult. gesch. des Orients 1.356

(٣) فى السطر ٢٧ من تلك الصفحة

(*) مما يؤسف له ان كل طبعات المقدمة ، بعد طبعة بولاق ، وقعت فى هذه الاخطاء ، ومن الغريب ان الذين اشرفوا على الطبعة الانيقة التى اخرجتها مطابع بيروت سنة ١٩٥٦ لم يعنوا بتصويب الالفاظ التى تنبه اليها العلامة المحقق جرجى زيدان منذ نيف واربعين سنة ، ثم يقال بعد ذلك انها طبعات علمية مراجعة مصححة ..

(٤) الطبرى ١٤٦٨ ج ٣

الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ (١) فالقائمة المذكورة كتبت فى ما بين ٢٠٤ و ٢١٨ هـ ونظرا لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١ و ٢١٢ هـ ، فالارجح انها كتبت بين ٢٠٤ و ٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقادا على تاريخ قائمة ابن خلدون ، خلاصته : انها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين ، بحيث تتصل بعصر المهدى أو الهادى أى بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ، ومن أدلته على ذلك « أنه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكانتا فى ايام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ، ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريمر لايستخف برأيه فى تاريخ الاسلام وتمدنه وآدابه ، لانه من أهل التحقيق والبحث ومن اكثر الالمان تمحيصا للحقائق . ولكننا نراه واهما فى حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :

أولا : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية ، وقطع المال عنها. نعم ان افريقية استقل بها الاغالبة ، وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤–٢٩٦ هـ ، ولكن استقلالهم هذا لايمنع تاديتهم مالا معينا كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين فى مصر وخراسان وغيرهما . فانهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون أنهم تابعون له دينيا فقط – كذلك كان شأن الدولة الطاهرية فى خراسان ، والطولونية فى مصر (٢) ، وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية ، والبعض الآخر باسم الخراج ، أو الضمان أوغيرهما. وزد على ذلك ان افريقية لم تكن تحمل مالا الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ ، أى بعد أن تولاها ابراهيم بن الاغلب ، وهو الذى فرض على نفسه ... ٤٠ دينار. فلا يبعد أن يستمر الاغالبة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية من مملكتهم كل أيام الاغالبة ، وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الاغالبة تحت هؤلاء الولاة (٣) ويقال نحو ذلك فى السند ، بل نرى فى هذا شاهدا أقرب على صحة رواية ابن خلدون ، فان المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦ هـ عاملا اسمه عمران بن موسى العتكى (٤) على أن يحمل اليه منها مليون درهم بعد كل نفقة (٥) ويدل ذلك على سيادته عليها ، وان كان المال المذكور أقل كثيرا مما ذكره ابن خلدون ، اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الازمنة . أما عدم ورود هذين البلدين فى قائمتى قدامة وابن خرداذبة فقد يكون سببه عارضا ، اما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون ، أو لاسباب أخرى راجعة الى دخول بعض الاقاليم

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) المقريزى ٣٢١ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٥ ج ٧
(٤) ابن الاثير ٤٥ ج ١ (٥) ابن خرداذبة ٥٧

فى بعض او غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب اقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ او الوهم ، وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص (*) . وقد قال صريحا أن هذه الجباية وردت على بيت المال فى أيام المأمون

ثانيا : ان ابن خلدون استحوز على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج ، كان يرجع اليها فى تحقيق مايكتبه فى هذا الشأن ونحوه (١)

ثالثا : أن الديوان احترق فى أيام الامين ، وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ، واما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبناء على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق فى جانب ابن خلدون ، وأن يكون البارون فون كريمر واهما فى اعتراضه وفوق كل ذى علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى فى كتابه المسمى : « كتاب الخراج » ولم يصل الينا منه الا نتف طبعت فى لايدن بعناية دى خويه المستشرق الهولندى الشهير ، وقد توفى قدامة سنة ٣٣٧ هـ ، وكان ابوه نصرانيا واسلم فى أيام المكتفى (من ٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ) وتولى منصبا كبيرا من مناصب الدولة العباسية ، والف كتبا كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر أنه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ ، نقلا عن أوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب أن ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ (**)

(*) لا نظن ان ابن خلدون معصوم من الوهم فى مسائل المال والجبايات خاصة ! بل ربما كان وهمه فى هذه الناحية من اقوى المآخذ على تاريخه ، واليك أمثلة بسيطة نأخذها من فصل واحد ، هو ذلك الذى يتحدث منه المؤلف هنا وعنوانه « فى ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » (بولاق ، المقدمة ص ١٤٨ وما يليها ــ بيروت ١٨٨٦ ص ١٥٤ وما يليها ــ بولاق ، طبعة ثانية ١٣٢١ هـ . ص ١٦٧ وما يليها) :

ــ « ... واعتبر ذلك بجوائز ابن ذى يزن لوفد قريش ، كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرا عشرا ، ومن كرش العنبر واحدة ، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب ، وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس ، وانما حمله على ذلك همة نفسه ، وما كان لقومه التبابعة من الملك فى الارض والغلب على الامم فى العراقين والهند والمغرب ... »

ــ « ... وكان الصنهاجيون بافريقية ايضا اذا اجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم ، فانما يعطونهم المال احمالا والكساء تخوتا والحملان جنائب عديدة ... »

ــ « ... هذا جوهر الصقلى الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ، ولا تنتهى اليوم دولة الى مثل هذا ... »

وفى هذه الامثلة كفاية ...

(١) ابن خلدون ٢٢٩ ج١

(**) ثبت الآن ان قدامة بن جعفر الكاتب لم يؤلف كتابه فى الخراج وحده ، وانما وضع موسوعة شاملة لكل ما يحتاج اليه كتاب الدولة من المعارف ، اى ان كتاب قدامة كان شبيها بكتاب صبح الاعشى للقلقشندى مثلا ، وقد عثرنا عليه قطعا متفرقة ، احداها تلك التى نشرها دى خويه عن الخراج واخرى نشرها الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادى عن « نقد النثر » ، ثم عثرنا على قطعتين اخريين الاولى هى أول الكتاب ، وفيها يعرض قدامة لمنهج كتابه وما يحويه من المباحث ، والثانية عن نقد الشعر ، ويعدهما للنشر الآن احد الاساتذة السوريين

(٣) قائمة ابن خرداذبة : هو عبد الله بن خرداذبة ، وذكر صاحب الفهرست أنه كان يتولى البريد فى بلاد الجبال ، ويظهر انه كتب وهو فى هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ، ويظن دى خويه ناشر هذا الكتاب أن ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢ هـ ، ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالى سنة ٢٥٠ هـ

هذه هى القوائم الثلاث ، وفيها جباية الدولة العباسية فى ابان ثروتها ، فلنوردها باعتبار قدمها. واقدمها قائمة ابن خلدون، ثم قدامة، ثم ابن خرداذبة:

١ ـ جباية الدولة العباسية

(فى أيام المأمون ـ نقلا عن ابن خلدون) (*)

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
	٣٩ ٤٠٠ ٠٠٠	المجموع

(*) قائمة ابن خلدون التى نقلها من خط كاتب من كتاب الخراج يسمى أحمد بن محمد بن عبد الحميد لا تخلو من مشاكل تجعل الاعتماد عليها واستخراج نتائج منها أمرا عسيرا . مثال ذلك انه يقول : غلات السواد ٢٧ الف ألف درهم مرتين و ٨٠٠ ألف درهم ... الخ ويقول فى غلات حلوان : ٤ آلاف ألف درهم مرتين و ٨٠٠٠ درهم ، وفى خراج كرمان : ٤ آلاف ألف درهم مرتين ومائة ألف درهم . ثم يجىء الى مكران فيقول : ٤٠٠ ألف درهم مرة ، وبعد ان ينتهى من القائمة يقول : « وأما الاندلس فالذى ذكره الثقات ان عبدالرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله ٥ آلاف ألف دينار مكرر ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير ٥٠٠ ألف قنطار ، فما معنى المرة والمرتين والثلاث مرات ؟ هل المراد أن هذا المبلغ كان يدفع على دفعتين ، كل دفعة نصف القيمة أم المراد ان هذا المبلغ يؤدى مرتين ، وبذلك تكون جباية هذه النواحى ضعف الرقم المذكور ؟

وربما شرحت لنا هذه الناحية عبارته الاخيرة عن الاندلس ، فهو يقول ان الناصر خلف فى خزائنه ٥ مليون دينار مكررة ثلاث مرات ، اى انه خلفه ١٥ مليون دينار

وعلى هذا يكون المراد بلفظ مرتين هو «مكررة مرتين » وهى طريقة غير طبيعية فى تدوين الارقام

ثم ان ابن خلدون يحول مبلغ ١٥ مليون دينار الى قناطير فيقول انها ٥٠٠,٠٠٠ قنطار من الدنانير ، وعلى هذا فيكون القنطار الواحد ٣٠ دينارا وهى قيمة غريبة للقنطار

ومع ذلك ، فنريد أن نعتمد عليها لعلنا نخرج منها بشىء

يقول ابن خلدون انه راى فى بعض التواريخ ان المحمول الى بيت مال الرشيد بلغ ٧٥٠٠

أسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
	٣٩ ٤٠٠ ٠٠٠	مجموع ماقبله
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	(*)
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ... ٣٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ... ٣٠ قارورة ومن الزيت الاسود ... ٢٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب و٢٠٫٠٠٠ رطل من التمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند ومايليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	و ١٥٠ رطلا من العود الهندى
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ راس رقيق و٢٠٠٠٠ ثوب متاع و ٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
(المجموع)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم

قنطار ، فاذا قلنا ــ على حساب ابن خلدون ــ ان القنطار ٣٠ دينارا لكانت قيمة ما حمل الى الرشيد بالدنانير ٥٫٢٣٥٫٠٠٠ دينار ، وهومبلغ غير معقول يجعلنا نشك فى قيمة هذه التقديرات التى يوردها ابن خلدون . وانراى عندى ان المراد بلفظ مرتين ان هذا القدر يحمل الى الخليفة مرتين فى موعدين مختلفين ، بدليل انه يقول فى بعض الحالات : مرة فقط ، وبذلك لتغير ارقام القائمة تماما . ومن الغريب ان حسن ابراهيم نقل هذه القائمة عن جرجى زيدان دون اشارة ودون تغيير فى حرف واحد

ثم ان القائمة تهمل قيمة الاشياء الأخرى التى كانت ترسل معالاموال ، كأنها كانت هدايا، او زيادة على المال يرسلها الوالى من عنده ، والحقيقة أنها جزء لا يتجزأ من الخراج، فقد كان بعضه يرسل مالا وبعضه عينا ، وهذا ثابت من أوراق البردى المصرية التى نشرها ادولف جروهمان . ومن البيانات التى نجدها فى هذه الاوراق نستطيع أن نستنتج ان هذه الاشياء العينية كانت تقدر بثلث قيمة الخراج كله او نصفه على أكثر تقدير

وهذه حقيقة اخرى تقلل من قيمة الارقام التى يوردها ابن خلدون

وعلى اى الاحوال ، فقد تركنا الارقام فى الاصل على حالها ، على اعتبار انها تعطى فكرة عامة عن « نسب » جبايات الاقاليم بعضها الى بعض

(*) الاصل ٢٠٠٠٠٨ درهم ، وقد صوبها المؤلف وهو على حق فى تصويبه

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
(مجموع ماقبله)	١٦٥١٠٠ ٠٠٠	درهم
جرجان	١٢٠٠٠ ٠٠٠	و ١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٥٠٠(*) ٠٠٠	ومن نقر الفضة ١٠٠٠ نقرة
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠ ٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من العرش الطبرى و٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جامة
الرى	١٢٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١٣٠٠ ٠٠٠	و ١٠٠٠ رطل من رب الرمانين و ١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان(**)	٤٠٠٠ ٠٠٠	
شهر زور	٦٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل من العسل الابيض
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٠٠٠ رأس من الرقيق و١٢٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و٢٠ من القسط (***) المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم « ضرب من الوشى » و ١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السورماهى و ١٠ ٠٠٠ من الصونج « نوع من الاسماك البحرية » و٢٠٠ بغل و ٣٠ مهرا
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
افريقية	١٣٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطا
(المجموع)	٣١٨٦٠٠ ٠٠٠	درهم

(*) فى الاصل : « الف الف مرتين وخمسمائة الف من نقرالفضة » وقد اقترح المؤلف قراءتها هكذا ، الف الف مرتين وخمسمائة « و » الف من نقر الفضة . ونظن أن الاصل مستقيم فيكون حساب خراج قومس على هذا : ١٠٠٠،٠٠٠ مرتين + ٥٠٠٠٠ من نقر الفضة

(**) فى الاصل الدينار ، وقد رأى المؤلف تصويبها الى « الريان » مع أن هذا الموضوع قد ذكر آنفا ، وقد استبعد ان تكون الدينور

(***) فى الاصل : البسط وفى نسخة القسط ، وقد اختار المؤلف القراءة الثانية . ونظن ان البسط اصح فهى نوع من النسيج

والجهات التالية وردت جبايتها بالدنانير :

اسماء الاقاليم	من الدنانير	من الاموال والغلال
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ١٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الاردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	
مصر	٢٩٢٠ ٠٠٠	و ٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠	سوى المتاع « لم يذكر »
(المجموع)	٤٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوى ٠٠٠ ٢٥٥ ٧٢ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الاقاليم المذكورة قبله	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجملة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر فى هذه القائمة ان خراج أقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم، وخراج أقاليم المغرب بالدنانير(الا برقة وافريقية) وسترى نحو ذلك ايضا فى القائمتين الاخريين ، والسبب على مايظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومجموع خراج سائر أقاليم المغرب ٤٫٨١٧٫٠٠٠ دينار، حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ، وهو صرفه فى ذلك العصر فبلغت ٧٢٫٢٥٥٫٠٠٠ درهم ، وباضافتها الى جباية أقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠٫٨٥٥٫٠٠٠ درهم

ورأينا فى ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين فى ما لدينا من النسخ ــ نظنه وجدهما فى نسخة فون همر برجشتال المستشرق النمسوى . خراج الاولى ٣٠٠٫٠٠٠ درهم ، والثانية ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية فى أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ماعدا الاموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته ، واذا أعدت النظر فيه رأيته شيئا كثيرا . والعادة فى تقدير الجباية أن تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ، ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد ، كما فعل صاحب جراب الدولة فى غلات السواد ومعظمها فى الاصل من الحنطه ، وكما سترى فى تفصيل طساسيج السواد بقائمتى قدامة وابن خرداذبة

وقد تقدم أن الجباية التى كانت ترد الى بيت المال فى بغداد انما هى صوافى ما تحصل منها فى الاقاليم ، بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الرى ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ، ولم يبق على هذا المال الا نفقات الدواوين فى بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارىء فى رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام ، وما فيهن من يبقى فى صندوقها معشار هذا المال — ولذلك فناتى بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون

٢ — جباية الدولة العباسية

(فى ايام المعتصم — نقلا عن قدامة بن جعفر)

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشـــعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، اى نواحيه فى الشرق والغرب

طساسيج السواد فى الجانب الغربى : (*)

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
نهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
(المجموع)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠

(*) يلاحظ ان قائمة ابن خلدون تختلف عن قائمة قدامة بن جعفر اختلافا واضحا، فان ابن خلدون يذكر الجباية بحسب الاقاليم ، والاقليم تقسيم جغرافى ، اما قدامة فيذكرها بحسب الطساسيج ، والطسوج هو القسم المالى المقابل للكورة ، وقد حاول ليسترينج فى كتابه عن « بلاد الخلافة الشرقية Lands of the Eastern Califate» ان يحدد معنى الطسوج فلم يوفق الى نتيجة نستطيع التعويل عليها ، وحاول ذلك فيليب حتى فى ترجمته الانجليزية لفتوح البلدان للبلاذرى . ومايهمنا هنا هو ان قدامة كان كاتبا من كتاب الخراج ، فهو خبير فى هذا الموضوع اولا وينقل من وثائق رسمية ثانيا ، فأرقامه اولى بالثقة ، خاصة وقد عنى بتقدير قيمة الحنطة والشعير وهو الذى حدد لنا قيمة الكر ، ومن الغريب ان نتيجة الحساب عند ابن خلدون وقدامة اتفقتا تقريبا آخر الامر ، فقدامة يقدر المجموع بمبلغ ٢٨٨ر٢٩١ر٣٥٠ درهما وابن خلدون : ٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠ درهم ، والموضوع كله فى حاجة الى دراسة شاملة

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ماقبله)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرانية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٢٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
طسوج عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
طسوج الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سوراو وبرنسيما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الاعلى والاسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد			
فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج الرذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
طسوج نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠
(المجموع)	٩٦٣٠٠	٩٨٩٠٠	٧٠٤٤٨٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ماقبله)	٩٦٣٠٠	٩٨٩٠٠	٧٠٤٤٨٠٠
جلولا وجلتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
الذبيين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠ ٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠ ٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥ ٠٠٠
طسوج برز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠ ٠٠٠
النهروان الاعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠ ٠٠٠
النهروان الاوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠ ٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠ ٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠ ٠٠٠
نهر الصلة	١٠٠٠	٢١٢١	٥٩ ٠٠٠
النهروان الاسفل	١٧٠٠	١٣٠٠٠	٥٣ ٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٣٥٦٢١	٨ ٨٢١ ٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥ر٦٠٠ كر حنطة ، و١٣٥ر٦٢١ كر شعير ، و ٨ر٨٢١ر٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل ، كما تقدم ، فقد قال في أيراد المجموع : « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧ر٢٠٠ كر ، ومن الشعير ٩٩ر٧٢١ كرا ، ومن الورق ٨ر٠٩٥ر٨٠٠ درهم (١) ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على أن الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينارا ، والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدينار ، فبلغ ذلك ١٠٠ر٣٦١ر٨٥٠ درهما وقال أن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤ر٤٥٧ر٦٥٠ درهما على هذه الصورة

٨ر٠٩٥ر٨٠٠ الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠ر٣٦١ر٨٥٠ قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦ر٠٠٠ر٠٠٠ صدقات البصرة

١١٤ر٤٥٧ر٦٥٠ درهما

هذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم في المشرق والمغرب . وهي مع السواد :

(١) كتاب الخراج « طبعة ليدن » ٢٣٩

اقاليم المشرق	درهم	اقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠	آذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	قزوين وزنجان وابهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠	جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
اصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠	طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
حلوان	٩٠٠ ٠٠٠	الموصل وما يليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٥ ٠٠٠ ٠٠٠	قردى وبذيدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ماه البصرة	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
همدان	١ ٧٠٠ ٠٠٠	ارزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠٠ ٠٠	طرون	١٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠	آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠	ديار مضر	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	اعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٣١١ ٥٨١ ٢٥٠

اقاليم المغرب	دينار	اقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	الحرمين	١٠٠ ٠٠٠
جند دمشق	١١٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
جند الاردن	١٠٩ ٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	عمان	٣٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٥ ١٠٢ ٠٠٠

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦٫٧١٠٫٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة أعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠ درهما ، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة (١)

٣ ــ جباية الدولة العباسية

(فى اواسط القرن الثالث للهجرة ــ على رواية ابن خرداذبة)

فصل ابن خرداذبة جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة ، وزاد على

(١) وقد رأينا اختلافا فى قائمة قدامة بين التفصيل والاجمال لعله تطرق اليهما من النساخ فصححناه بقدر الامكان

ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده ، فنكتفى بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة ، وذلك عبارة عن ٦٣٫٠٤٠ كر حنطة ، و٩١٫٨٥٠ كر شعير ، و ٨٫٤٥٦٫٨٤٠ درهما نقدا . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين دينارا ، والدينار ١٥ درهما كما تقدم ، بلغت قيمتها ٦٩٫٨٦٢٫٥٠٠ درهم ، وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقدا تصير الجملة ٧٨٫٣١٩٫٣٤٠ درهما

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم فى الدولة الطاهرية ، باعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ، ومقدار ذلك جملة ٤٤٫٨٤٦٫٠٠٠ درهم ، و ١٣ دابة للركوب ، و ٢٠٠٠ شاة من الغنم ، و ٢٠٠٠ رأس من السبى الغزية ما قيمتــــه ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوبا ، ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحوا من خمسين عملا فى جملتها الرى ، وقومس ، وجرجان ، وكرمان ، وسجستان ، ونيسابور ، وطخارستان ، والطالقان ، واعمال ماوراء النهر ، وفيها بخارى ، والصغد ، وغيرهما . وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة (أى هذا القدر من المال) . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ، ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد وأعمال خراسان فليراجعها فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى من الاجمال الذى ذكرناه :

اقاليم المشرق	دراهم	اقاليم المشرق	دراهم
السواد	٧٨ ٣١٩ ٣٤٠	قم	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان وتوابعها	٤٤ ٨٤٦ ٠٠٠	الاهواز	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠
شهر زور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠	فارس	٣٣ ٠٠٠ ٠٠٠
ماسبذان ومهرجانقذق	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	قزوين	١ ٢٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠

اقاليم المشرق	دراهم	اقاليم المغرب	دنانير
(ماقبله)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠	قنسرين والعواصم	٤٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٣ ٨٠٠ ٠٠٠	جند حمص	٣٤٠ ٠٠٠
اصبهان	٧ ٠٠٠ ٠٠٠	جند دمشق	٤٠٠ ٠٠٠
ديارمضر	٥ ٦٠٠ ٠٠٠	جند الاردن	٣٥٠ ٠٠٠
الموصل	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	جند فلسطين	٥٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٧ ٧٠٠ ٠٠٠	مصر	٢ ١٨٠ ٠٠٠
ارمينية	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧ ٧١٥ ٣٤	(المجموع)	٤ ٧٧٠ ٠٠٠

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ر٥٥٠ر٠٠٠ درهم ، تضاف الى مجموع جباية اقاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة :

درهم	
٢٢٧ر٧١٥ر٣٤٠	جباية اقاليم المشرق
٧١ر٥٥٠ر٠٠٠	جباية أقاليم المغرب
٢٩٩ر٢٦٥ر٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم أن ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المأمون ، ثم اخذ فى التناقص بعده ، ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة ، لاسباب سيأتى بيانها . وأما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيما جدا ، كما تبين من القوائم الثلاث التى ذكرناها ، وهاك ملخص لها :

درهم	
٣٩٦ر١٥٥ر٠٠٠	جباية الدولة العباسية فىأيام المأمون بينسنة٢٠٤و٢١٠هـ
٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠	جباية الدولة العباسية فى أيام المعتصم او بعيده الى سنة ٢٢٥
٢٩٩ر٢٦٥ر٣٤٠	جباية الدولة العباسية فى أواسط القرن الثالث (١)
١ر٠٨٣ر٧١١ر٦٩٠	الجملة (*)

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق فى الجباية ظهر حتى فى النصف الاول من القرن الثالث ، وخصوصا اذا اعتبرت ما اغفلناه من قائمة ابن خلدون من الاموال والامتعة والمحصولات وهى من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال فى العام نحو ٣٦٠ مليون درهم ، وهى صوافى جباية الاعمال كما قدمنا ، مما لم نسمع بمثله فى الدول قديما ولا حديثا ـ الا اذا

(١) لا يخفى على المتأمل أننا عينا هذه الازمنة بالتقريب ، اذ قد يرد فى قائمة ابنخرداذبة مثلا خراج اقليم كما وقف عليه فى عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة وبالعكس ، وانما أعتبرنا فى تعيينها الاغلبية

(*) لا نظن أن هذه الارقام تعين ارتفاع الدولة الاسلامية فى عصور المأمون والمعتصموالواثق « منتصف القرن الثالث الهجرى » لاننا لا نعلم على وجه التحقيق ان كانت قائمة قدامة تعين الخراج على ايامه ، وكذلك يقال فى قائمة ابن خرداذبة ، ثم اننا راينا أن ملاحظة ابنخلدون من خراج الدولة ايام الرشيد لايمكن أن تكون صحيحة . وكل مايمكن أن يقال أن هذه كلها ارقام يمكن الاستئناس بها فى اقامة دراسة شاملة للموضوع

اعتبرنا ما أورده بعضهم اجمالا بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية أن جباية هذه الدولة ابان سطوتها ومعظم سعتها تساوى نحو ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم، منها ١٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) (١) ، وذكر ابن خرداذبة أن جباية مملكة الفرس فى أيام كسرى برويز بلغت ٤٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مثقال ، أو نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم ، اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . أما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جدا . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها فى أيام السلطان سليمان القانونى فى أواسط القرن العاشر للهجرة ، ولم يزد ارتفاع جبايتها فى أيامه على ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دوكات (٢) أو نحو ٢٫٨٤٣٫٧٥٠ جنيها مصريا ، فاين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على اضعافه ! وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى فى صندوقها كما سيأتى.

ولنتقدم الى الكلام فى الجهات التى كانت تنفق فيها الاموال

نفقات الدولة العباسية

لم نر فيما كتبه المؤرخون القدماء فى العربية نصا يتعلق بهذا الشأن ، ولا ندرى اذا كانوا فعلوا ذلك عمدا أو ضاع ماكتبوه فى ثنيات الزمان . على أن مؤرخى المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامى أو ما هو فى معناه ، كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم ، أو نظام الهيئة الاجتماعية غير ما جاء عرضا فى أثناء ذكر الوقائع الحربية ، أو وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون ، فقد أورد جباية الدولة فى عرض الكلام عن بذخها فى ابانها . وأما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكر مقدار الخراج فى عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج ايضا بعض أصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكن أحدا منهم لم يذكر شيئا عن الشؤون التى تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج فى العصر الذى نحن فى صدده

على أننا بالقياس على ماعرفناه من احوال ذلك التمدن ، نرجح أن المال المشار اليه كان يوضع فى بيت المال ، بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر أرباب المناصب فى دواوين الحكومة فى بغداد ، والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كانت

---

(١) Gibbon's Roman Empire 1.110

(٢) Porter's Conts, Hist. of Turkey, Ms.

أعمالهم فى الخارج مثل عمـــال البريد (١) وغيرهم . وما بقى من أموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع فى بيت المال تحت اجتهاد الخليفة (٢)

اما مقدار ما كان ينفق على الجند المقيدين فى الدواوين وغيرهم فمما لايمكن القطع فيه ، لانه يختلف باختلاف العصور وأحوال الخلفاء ، ولم نقف على شىء صريح فى هذا الشأن فى العصر العباسى الاول ولا فى غيره

على اننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائى على نفســه أن يقدمه من ضمانه الى بيت المال — وفيه ما كان ينفقه بيت المال فى بغداد فى السـنين الاولى من خلافة المعتضد العباسى (سنة ٢٧٩ هـ) (٣) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لـكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال ، وجملة ذلك ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ دينار فى السـنة ، تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار ، تفرق فى الجند وموظفى الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباســـية

(فى أيام المعتضـــد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة)

دينار فى اليوم	
١٠٠٠	ارزاق أصحاب النوبة (*) ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضـان (**) من الجنابيين (***) والبصريين وأصحاب المصاف (****) بباب العامة وغيرهم والسـودان وأكثر مماليك الناصر
١٠٠٠	ارزاق الغلمان الذين أعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) (*****) ويعرفون بالغلمان الخاصة
٢٠٠٠	المجموع

(١) ابن خرداذبة ١٥٣

(٢) الماوردى ١٧٩

(٣) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

(*) اى الذين يقومون بحراسة القصر بالمناوبة

(**) أى الذين يلبسون الخوذات الحديدية المسماة بالبيضات

(***) اى الذين يأتون من خارج بغداد من الجانبين الشرقى والغربى

(****) اى الجند القائم بالحراسة بباب العامة

(*****) لم افهم هذه الاشارة

دينار فى اليوم	
٢٠٠٠	(مجموع ما قبله)
١٥٠٠	ارزاق الفرسان من الاحرار المميزين
٦٠٠	ارزاق المختارين ، وهم جنود منتخبون من كل قيادة ، وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٥٠٠	ارزاق المثبتين فى أيام الناصر
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة الدار، والرسائل الخاصة ، والقراء ، واصحاب الاخبار، والمؤذنين، والمنجمين، والفنجاميين ، وأصحاب الاعلام ، والبوقيين ، والمضحكين، والطالبين ، وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة فى مدينة السلام ، وغيرها
٣٠٠	أثمان انزال المماليك ، وغيرهم
٣٣٣٠ $\frac{1}{3}$	نفقات المطابخ الخاصة والعامة ، والمخابز، وانزال الحرم ، والحشم ، ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة ، وآلاته ، ونفقات خزائن الكسوة ، والخلع، والطيب ، وحوائج الوضوء ، وخزائن السلاح ، والفرش الخ
٤	ارزاق السقائين بالقرب فى القصر ، والخزائن ، والمخابز ، والدور ، والحجر ، والخدم ، الخ
١٦٧	ارزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك ، دون الاكابر الاحرار ، ومن أضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	ارزاق الحشم من المستخدمين فى شراب العامة ، وخزائن الكسوة ، والصناع من الصاغة ، والخياطين ، والعقادين ، والاساكفة ، والحدادين، والرفائين، والمطرزين، والنجادين، والوراقين ، والعطارين ، والمشهرين ، والنجارين ، والخراطين ، والاسفاطيين ، وغيرهم الخ
١٠٠	ارزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦٠ $\frac{2}{3}$	ما يصرف من ثمن الكراع ، والابل ، والخيل الخ
٦٣٣١	(المجموع)

دينار فى اليوم	
٦٣٣١	(مجموع ما قبله)
٣٠	ارزاق المطبخيين
٣٠	« الفراشين ، والمحلبيين ، وخزان الفرش ، والحمالين
	« أصحاب الركاب ، والجنائب ، والسروج ، ومن يخدم فى دواب البريد
٤٤	« الجلساء ، وأكابر الملهين ، ومن يجرى مجراهم
٢٣ ١/٣	« جماعة من المتطببين ، وتلامذتهم الخ
٧٠	« أصحاب الصيد من البازياريين ، والفهادين ، والكلابزريين وغيرهم
١٦ ٢/٣	« الملاحين فى الطيارات ، والشذات ، والحراقات ، وغيرها من السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات ، والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التى تحضر كل يوم عند صلاة الصبح فى خرقة سوداء
٣٣ ١/٣	جارى اولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	« « الواثق
١٦ ٢/٣	« « الناصر
٢٠	ارزاق مشائخ بنى هاشم ، وأصحاب المراتب ، والخطباء فى المساجد
٣٣ ١/٣	ارزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين ، والطالبيين
٢٣ ١/٣	جارى عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (فى الشهر) برسم العرض
١٥٦ ٢/٣	ارزاق أكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين ، والمديرين ، والاعوان ، وسائر من فى الدواوين ، وثمن الصحف ، والقراطيس والكاغد ــ سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم ، واعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون ارزاقهم بما يوفرونه من اموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم
١٦ ٢/٣	جارى اسحق بن ابراهيم القاضى ، وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابى عمر ، واولادهما ، وعشرة نفر من الفقهاء
٥٠	نفقات السجون ، وثمن اقوات المحبسين
٦٩٤٥ ٢/٣	(المجموع)

دينار فى اليوم	
٦٩٤٥ ٢/٣	
٣ ١/٣	جارى المؤذنين فى المسجدين ، والمكبرين ، والقوام ، والائمة ، وثمن الزيت للمصابيح ، والحصر ، والبوارى ، والماء ، وثمن الستار للصيف ، والجلباب والخزف ، والعمارة فى شهر رمضان
١٩	نفقات الجسرين ، وثمن ما يبدل من سفنهما ، وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى ، ولم يكن يومئذ غيره ، وأرزاق المتطببين والمأانين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين ، والجنازين ، وغيرهم ، وأثمان الطعام والادوية والاشربة
٦٩٧٤	(الجملة)

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار ، وذلك نفقات الدولة العباسية فى اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ، ومجموع ذلك فى السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها فى أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك ــ وهى فى اعتقادنا يجب أن تكون أقل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك فى أواخر القرن الثالث عما كان فى أوائله ــ فاذا فرضنا النفقات واحدة فى أيام المأمون والمعتضد ، وحولناها الى دارهم باعتبار الدينار عشرين درهما على الاكثر ، بلغ ذلك ... ... ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا أسقطناها من معدل الجباية الذى ذكرناه وهو... ... ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، كان الباقى ... ... ٣١٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، أو قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التى يبقى فى بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد فى معظم الثروة ، لاننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى فى صندوقها نصف هذا المال ، أو ربعه ، أو عشره ، الا ما قدمناه عن دولتى الروم والفرس

وزد على ذلك أن هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية ، لانها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائى من البلاد ، وهى سقى الفرات ، ودجلة ، وجوخى ، وواسط ، وكسكر ، وطساسيج نهربوق ، والذيبين ، وكلواذى ، ونهربين ، والرذانين وطريق خراسان ، وكلها من العراق ، وهى بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة ــ فلا مشاحة فى ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض أعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكى ينجلى لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث ، يجب أن نحولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم أن الدينار كان صرفه فى النصف

الاول من القرن الثالث ١٥ درهما ، فمقدار هذه الثروة بالدنانير ... ... ٢٠ دينار، ويقدرون الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه ، فيكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين من الجنيهات

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات ، او ما يستخدم به من الرجال ، فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها اردب الحنطة بخمسين قرشا ، يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الاردب بمائة قرش

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور ، فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا في أوائل القرن الماضي من الاغنياء ، لان حاجيات الحياة كانت رخيصة جدا ، ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس ، وتفننهم في طرق المعائش ، ولاسباب اخرى ، حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس في شهر واحد . وقد لاحظنا فرقا واضحا في سعر الذهب في الأعوام الاخيرة بمصر ، يجدر بالحكومة أن تتنبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها — وذلك انه بالنظر الى تصاعد أثمان المآكل واجور المساكن ، زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة ، فالموظف الذى كان ينفق على عائلته الف قرش في الشهر مثلا اصبح لايكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش ، والراتب الذى كان يتقاضاه لايزال واحدا ، ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب — فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي أن تزداد رواتبهم كلما غلا السعر (*)

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام ، يجب أن نقابل بين أثمان المحصولات يومئذ وأثمانها اليوم واجور العمال في العصرين . وقد رأيت فيما تقدم أن ثمن الكر من الحنطة والشعير في أيام قدامة (١) ثلاثون دينارا ، والكر العراقي أربعون اردبا (٢) ، والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه ، فالاربعون أردبا بأربعين جنيها أو ثمانين دينارا أى نحو ثلاثة أمثاله في تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء في أيام المنصور قيراط فضة ، والروزكارى (الفاعل) حبتين (٣) والقيراط في العراق جزء من عشرين من الدينار (٤) والحبة جزء من ستين منه فكأن أجرة الاستاذ بنقود هذه الايام ثلاثة ارباع

(*) تركنا هذه الفقرة على حالها لاهميتها الكبرى بالنسبة لمن يؤرخ لتطور الحياة الاقتصادية في مصر الحديثة ، والمؤلف مشكور على ايرادها ، وان كان مكانها الحقيقي في الهامش

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط

(٣) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٥ (٤) محيط المحيط

الدرهم أى نحو ثلاثة قروش . واجرة الفاعل قرش ، وذلك نحو ثلث أجرته اليوم (سنة ١٩٠٣) أو ربعها . فالنقود فى أيام العباسيين كانت تساوى ثلاثة أضعاف ما تساويه اليوم على الأقل (*) . فالباقى فى بيت مال العباسيين فى السنة يساوى ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام ، وكانت توضع فى بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده ، يستخدمها فى الجهات التى يريدها أو تتراءى له فيها مصلحة للدولة — فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلانى أعطى شاعرا مائة الف درهم أو عشرة آلاف دينار ، ونحن نرى اغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة الف جنيه ، والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه أو مليون ؟ وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

وليس فى دول هذه الايام (سنة ١٩٠٣) ما يزيد الباقى فى صندوقها على مليون واحد الا نادرا ، مع ان مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه فى أيام العباسيين . خذ انجلترا مثلا ، وهى من أعظم الدول الآن ، فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه منها :

جنيـــــه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاى
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع للعقود ونحوها
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)

فترى من هذا المجموع أن نحو اربعة اخماس دخل هـــذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر فى صدر الدولة العباسية

(*) اذا اخذنا تقدير المؤلف اساسا استطعنا ان نقول ان مستوى الحياة فى مصر ارتفع نحو سبع مرات منذ سنة ١٩٠٣ الى اليوم ، فهو يقول أن اجر عامل البناء ايام الدولة العباسية كان قرشا فى اليوم واجره فى سنة١٩٠٣ ثلاثة اضعاف ذلك او اربعـة اى ان اجره كان مابين ثلاثة قروش أو اربعة ، فاذا اخذنا المتوسط وهو ٣٫٥ قرشا وذكرنا أن أجر الفاعل اليوم ٢٠ قرشا فىاليوم فمعنى ذلك أن الاجور ارتفعت سبع مرات تقريبا ، ومعنى ذلك أن مستوى الاسعار يبلغ اليوم سبعة اضعافه بالنسبة لسنة ١٩٠٣ فى مصر

اما قوله ان قيمة النقود ايام العباسيين كانت ثلاثة اضعاف قيمتها سنة ١٩٠٣ « و ٢١مرة قدر قيمتها اليوم » فملاحظة طيبة ، وانما ينبغى أن نذكر أن الناس آذ ذاك كانوا يتعاملون بالمعدن نفسه ، اى ان الدينار كان دينارا ذهبيا والدرهم كان درهم فضة ، ومن الطريف أن نلاحظ أن قيمة الجنيه الذهب ارتفعت منذ سنة ١٩٠٣ سبعة أضعاف بالنسبة لسعر الجنيه الورق ، اى ان قيمة الذهب لازالت كما هى تقريبا

ويغلب فى نفقات الدول الحديثة ان تساوى دخلها او يبقى لها باق قليل جدا يندر أن يزيد على مليون جنيه ، وكثيرا ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها ، لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها ، كما حدث لانجلترا فى الاعوام الاخيرة أثناء حربها فى جنوبى افريقيـــا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور ـ فما هو السبب فى الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ لا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية

أسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيرا وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقى من اسقاط الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ، ونبين اسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية فى أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح على نفسه من نصارى جزيرة العرب ويهودها ، وتوفى النبى (صلعم) ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح فى الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة ، وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على ذلك فى أيام بنى أمية مع مافرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف فى تحصيلها كما تقدم . ومما وضعوه فى أيامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان فى أثناء ولايته أرمينيا سنة ٧٢ هـ (١) ونظنهم وضعوا أيضا أعشار السفن وهى العشور التى تؤخذ من المراكب المارة فى البحار . واخماس المناجم التى تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية تزداد وتتفرع حتى أصبحت فى أيام العباسيين عديدة ترجع الى أحد عشر وهى :

(١) الصدقة أو الزكاة
(٢) الجزية
(٣) الخراج
(٤) المكوس (الفردة)
(٥) الملاحات والاسماك
(٦) أعشار السفن
(٧) اخماس المعادن (أى المناجم)
(٨) المراصد (الجمارك)
(٩) غلة دار الضرب (*)
(١٠) المستغلات
(١١) ضرائب الصناعة وغيرها

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٤

(*) كانت العملة فى العصور الاسلامية سلعة كغيرها تباع وتشترى ، وكانت أسعارها تقدر بمقدار ما فيها من الذهب والفضة ، وكان الناس يأخذونها لهذا وزنا لا عدا ، لان وسائل سك النقود لم تكن دقيقة ، فكان بعض الدنانير والدراهم يخرج من السك ووزنه اقل او اكثر من الوزن الرسمى ، ولهذا يقولون : « وزن له الف دينار » ومعناه أنه أخذ وزن الف دينار صحيحة ، وقد يكون ما يأخذه اقل او أكثر من الف دينار صحيحة الوزن . وكانت الدولة تكل الى بعض الناس أمر سك النقود فى مقابل دفع مبلغ للدولة ، فيحصل على الذهب من اى طريق يريد ويسكه نقودا صحيحة وازنة ويبيعها للناس بسعر العملة الرسمية ،ويكسب الفرق ، وهذا المبلغ الذى تتقاضاه الدولة من صاحب احتكار سك العملة هو الذى يسمى غلة دار الضرب او غلة السكة

على ان العمدة فى زيادة الثروة انما هى على الخراج ، حتى انهم سموا مجموع الجباية خراجا باطلاق البعض على الكل . فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب . وعليه فلنبحث اولا فى الخراج وسبب كثرته فى العصر العباسى الاول ، ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض أو محصولاتها ، ولكثرته فى الدولة العباسية اسباب اهمها أربعة ، وهى :

١ ــ سعة المملكة العباسية

لما كان المعول فى مقدار الجباية على الخراج ، فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة أرضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية فى العصر العباسى الاول كانت عظيمة الاتساع جداً ، بل هى أوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصا اذا اعتبرنا أسبانيا منها) الا مملكة الاسكندر فربما قاربتها

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التى قامت مقامها اليوم ، وهى :

مساحة المملكة العباسية

(فى القرن الثالث للهجرة)

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالاميال
ايران كلها	شاه العجم	٦٢٨ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٢١٥ ٠٠٠
بلوجستان	انجلترا	١٣٠ ٠٠٠
السند	انجلترا	٤٨ ٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧ ٠٠٠
بلاد القوقاز « تفليس»	روسيا	١٥ ٣٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٧٢ ٥٠٠
العراق الجزيرة	تركيا	١٠٠ ٢٠٥
سوريا فلسطين	تركيا	١٠٩ ٥٠٩
جزيرة العرب « منها»	تركيا	٢٠٠ ٠٠٠
القطر المصرى	تركيا	٤٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠ ٠٠٠
	(المجموع)	٢ ٥٧٥ ٥١٤

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالاميال
	« مجموع ما تقدم »	٢ ٥٧٥ ٥١٤
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤ ٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١ ٠٠٠
مراكش (*)	مستقلة	٢١٩ ٠٠٠
	(المجموع)	٣ ٣٢٨ ٠١٤

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣٫٣٢٨٫٠١٤ ميلا مربعا ، وذلك نحو مساحة أوربا كلها . فخراج ممالك أوربا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم ، فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول فى جبايتها على الخراج لما استقام أمرها ، وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والجمارك كما تقدم

على أن سعة المملكة العباسية لا تكفى وحدها لتعليل ثروتها ، لان المملكة العثمانية بلغت من السعة فى أيام السلطان سليمان القانونى ما يقرب من سعة مملكة بنى العباس ، ومع ذلك فان الجبـــاية فى أيامه لم تزد على ٢٫٨٤٣٫٧٥٠ جنيها مصريا كما رأيت ، وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس بالزراعة ونقل الضرائب وخصب الارض وغير ذلك

٢ ـ اشتغال الناس بالزراعة

قلنا فى كلامنا عن بيت المال فى عصر الامويين أن عمالهم كانوا يسيئون الى أصحاب الخراج من الرعايا ، بما يستعملونه من العنف والعسف فى تحصيلها ، فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الارض ، وزادها اهمالا انتشاب الفتن والحروب فى العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الاسلامية ، ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها ، فاصبح معظم البلاد خرابا من الاهمال (١) وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ، ونشروا لواء العدل ، واحسنوا معاملة أهل الذمة والموالى ، وأمنوهم على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم ، عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره

وكان للخلفاء الاولين من بنى العباس عناية كبرى بتأييد الامن وتعمير البلاد ، ورعاية أهلها من الذميين والموالى . فالمنصور كان يتتبع العمال

(*) سبق ان اوردنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب الوضع السياسى لكل هذه البلاد فى أيامنا هذه

(١) الفخرى ١٥٧

الظالمين ويأخذ أموالهم ، ويستبدل بهم سواهم ويضع ما يأخذه من أموالهم فى بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم (١) وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضا ، ويبحث عن كل ما يقضى به القضاة أو يعمل به الولاة ، وعما يرد الى بيت المال وعن كل مايحدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب ، واذا شك فى شىء مما قضى به القاضى سأله ووبخه (٢) ، وبعد ان كان الموالى كالارقاء فى أيام بنى امية أصبحوا فى أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة ، يوصى الخلفاء بعضهم بعضا برعايتهم وخصوصا آل خراسان ، فقد اوصى المنصور ابنه المهدى قائلا : « انظر الى مواليك ، فأحسن اليهم وقربهم ، واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك ، واوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك» (٣) . وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره فى النظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف معهم مما يؤدى الى اطمئنانهم وهدوئهم . ومن وصاياه لابنه المذكور : « يا بنى لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وادلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدى يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . واخبار الرشيد فى العدل اكثر من أن تحصى ، وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك أنه كان قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينا يأتيه بما يقول ، فراوه يوما قد كتب على الحائط :

أما والله ان الظلم لؤم　　وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى　　وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد ، فبكى واحضره واستحله وأعطاه ألف دينار . وله مع أبى العتاهية حديث أغرب من هذا ، وهو أن الرشيد أولم وليمة ووضع طعاما، وطلب الى أبى العتاهية أن يصف ماهم فيه من النعيم ، فقال :

عش ما بدا لك سالما　　فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ　　ـت لدى الرواح وفى البكور
فاذا النفوس تقعقعت　　فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا　　ما كنت الا فى غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : « بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد : « دعه . رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا » (٤)

---

(١) ابن الاثير ١٣ ج ٦
(٢) الطبرى ٤٣٥ ج ٣
(٣) ابن الاثير ٨ ج ٦
(٤) ابن الاثير ٨٨ ج ٦

وأمثلة ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لايستوعبه كتاب . فكيف لايستتب الامن فى ظل هؤلاء ؟ ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة فى حمايتهم ؟ وكيف لا يتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك فى خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد فى ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران الا فى ظله ولا حياة الا به ؟ ولا يتم عز للسلطان الا بالعدل ، اذ لا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل (١) والعدل أساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ، أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم فى تعمير ما تركه الامويون خرابا من الضياع والمزارع ، بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها (٢) فضلا عما كانوا يبذلونه من العناية فى شق الانهر (*) وانشاء السدود وغيرها مما يسهل الرى

السواد

فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها ، وخصوصا السواد (أو العراق) ، فانه من اخصب بقاع الارض ، واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۲۰ درهم ، وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من أيام الفرس ، فقد جباه قباذ بن فيروز ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۵۰ درهم (٣) وجباه كسرى بن قباذ ۰۰۰ر۰۰۰ر۲۸۷درهم (٤) وجباه غيرهما من ملوك الفرس ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۲۰ درهم ، سوى۰۰۰ر۰۰۰ر۳ من الوضائع لموائد الاكاسرة (٥) ـ كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ، ولكنهم كانوا يعتنون بالرى فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور ، ووادى الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادى النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه ، وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان فى الشتاء ، والنيل يجرى من الجنوب الى الشمال ويفيض فى الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى اصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء

وكان ماء دجلة يجرى قديما غير مجراه اليوم . أى انه كان يجرى مثل مجراه اليوم من بغداد جنوبا الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ، ومن هناك ينعطف غربا حتى يسير سيرا عموديا الى فم الصلح فواسط ، حتى يصب فى البطائح حيث يلتقى بالفرات ومنها الى دجلة العوراء

(١) ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ — (٢) الفخرى ١٥٧

(*) يراد بالنهر فى مصطلح تلك الايام الترعة أو القناة ، فاذا قالوا نهر عيسى كان معناه القناة التى شقها عيسى بن موسى

(٣) ابن خرداذبة ١٤ — (٤) الماوردى ١٦٥ — (٥) ابن الفقيه ٢٠٥

بقرب البصرة ، ومنها الى خليج فارس قرب عبادان ، ثم يجرى بعد ذلك من ماذرايا شرقا ، ثم ينعطف جنوبا شرقيا على ماهو عليه اليوم . وكان الفرات فرعين : أحدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيها ، وكلاهما يصب فى البطائح

البطائح

والبطائح مستنقعات أو ارض كان يغمرها الماء فى أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وسببها ان دجلة انبثق فى ايام قباذ بثقا كبيرا بقرب كسكر ، فأغفل أمره حتى غلب ماؤه واغرق كثيرا من الارض العامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولى انوشروان العادل الشهير أمر بذلك الماء فزحم بالمسنيات (أى أقام الجسور على جانبى المجرى القديم) حتى عاد بعض تلك الارض الى العمارة ، ثم خلفه ابنه برويز ، وفى ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (فى السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار ، فجهد برويز أن يسكرها حتى ضرب اربعين سكرا فى يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت (١) ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيرا فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠٠ درهم فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٢) لكنهم قلما عنوا باصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الرى . وفى أيامه انبثقت بثوق أخرى وكبرت البطائح ، فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك بخبرها وانه قدر للنفقة على سدها ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال له اخوه مسلمة ابن عبد الملك : « انا انفق على سدها من مالى على ان تعطينى خراج الارض المنخفضة التى يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على أيدى ثقاتك » فرضى الوليد بذلك فحصلت للوليد ارض وطساسيج كثيرة ، فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة (اى عمال الارض) والمزارعين وعمر تلك الارض . واستخرج للوليد ايضا من البطائح ثم لهشام بعده مالا كثيرا ، ثم جرى الناس على ذلك الى أواخر بنى أمية (٣)

ولما أفضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم ، جعلوا همهم احياء أرضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور ، حتى تشابكت الترع فى السواد ، وأصبح ما بين دجلة والفرات سوادا مشتبكا غير مميز ، تخترق اليه أنهار من الفرات (٤) ، وقس على ذلك سائر أنحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا فى أيام العباسيين لارتياح الناس الى

---

(١) قدامة ٢٤٠ (٢) الماوردى ١٧١ (٣) قدامة ٢٤١ (٤) الاصطخرى ٨٣

العمل ورغبة الخلفاء فى تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك

خراسان

ومن البلاد التى زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان ، فقد كانت أرضا خصبة بالاضافة الى سعتها ، ورغبة أهلها فى نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، اذا أضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بنى العباس فى ابان دولتهم مبذولة فى هذين البلدين وفى الحجاز . وكان يقال : أما العراق فللمال ، وأما خراسان فللمال والرجال ، وأما الحجاز فهو مصدر الثقة فى الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان فى ذلك الوقت مما لاريب فيه — قال المقدسى فى عرض كلامه عن مدائن العراق ، وقد أطنب فى عمرانها : « فهذه مدن بغداد ، وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن » (١) وكثيرا ماكان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها (٢)

ويدخل فى ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر ، وهى كثيرة الخصب جدا — قال ابن حوقل : « ولم أر ولم أسمع فى الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى ، لانك اذا علوت قندهار لم يقع بصرك من جميع النواحى الا على مفارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء قبة زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضا ونورا من أراضى ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال : « والمشار اليه من متنزهات الارض صغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » (٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية فى ذلك العصر الزاهر

مصر

ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد فى ظل الدولة العباسية ، فان العدالة توطد دعائم الامن ، واذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل ، فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها : فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامى نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ، ويستبعد أهل زماننا امكان هذا . واكثر منهم استغرابا اهل أوائل القرن الماضى ، فقد ذكر الدكتور كلوت (بك) تقدير العرب لسكان وادى النيل انه عشرون مليونا ، وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل أن يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر» (٤) وقد رأينا اليوم أنه زاد على نصفه ، ولايزال آخذا فى الزيادة

اما كلوت (بك) فانه أعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس فقط ، على انه لما ذكر هذا

(١) المقدسى ١٢٢ (٢) اليعقوبى ٥٥٥ ج ٢ (٣) ابن حوقل ٣٤٥
(٤) Aperçu gén. sur l'Egypte 1-165.

الاحصاء أظهر اعجابه بزيادة سكان وادى النيل فى عهد محمد على عما كانوا عليه فى أيام المماليك

اما فى أيام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد على مليون فدان وبعض المليون ، بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الأمراء المماليك . فلما استقرت الأحوال فى العصر الحديث تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة ، حتى بلغت الآن ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهم آخذون فى الزيادة . وبالطبع ان مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان ، وهما لا يكونان الا فى ظل العدل الصحيح - اعتبر ذلك فى جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى انها تمشت على هذه القاعدة تماما :

كانت جباية مصر فى زمن الراشدين أعلى ما بلغت اليه فى الاسلام . فقد جباها عمرو بن العاص فى زمن عمر بن الخطاب ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ومساحة الارض للزراعةعلى تقديرهم ٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فدان . وجباها عبدالله ابن سعد فى أيام عثمان ١٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، ولكنه استعمل العنف فى تحصيلها (١) . فلما كانت ايام بنى أمية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ، ولم تزد فى أيامهم على ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار الا فى أيام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، لانه بذل الجهد فى تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيرا لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه فى أيام بنى أمية . ولما أخذت الدولة العباسية فى التقهقر زاد انحطاط الجباية فى مصر حتى اصبح فى بعض سنى القرن الثالث للهجرة ٨٠٠ر٠٠٠ دينار ، فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها فى أيامه ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار ، وكان القمح كل‌عشرة أرادب بدينار(٢) فلما انقضت دولة بنى طولون والدولةالاخشيدية ودخلت مصر فى‌حوزة الفاطميين‌سنة٣٦٣هـ جباها جوهرالقائد...ر...٧ دينار(٣) لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على‌الأفدنة. ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعا لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه (*)

---

(١) ابن حوقل ٨٨ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) ابن حوقل ١٠٨

(*) معظم هذه الارقام موضع شك‌كبير اليوم،وابسط دلائل الشك قول‌ابن حوقل ان‌مساحة الارض المزروعة فى مصر كانت ٣٠ مليون فدان على أيامه ، وهى الفترة الاولى من العصر الفاطمى ، وهذا القول لايحتمل الا أحد أمرين - اذا كان ولابد من قبول هذا الرقم - فاما أن الناسخين أخطأوا فكتبوا ٣٠ بدلا من ٣ وهو أقرب الاحتمالات الى الصحة ، واما ان يكون ابن حوقل قد أدخل فى حسابه اراضى مصر كلها ، بما فيها الصحارى ، وجدير بالذكر أن الصحارى لم تكن أيام دخول العرب مصر قاحلة تماما كما هو الحال اليوم ، بل كانت مراعى خضراء تتخللها واحات كثيرة ، ودليل ذلك اننا نقرأ على طول العصر البيزنطى

وآخر عهدنا بانحطاطها على أيام الامراء المماليك فى اواخر القرن الثامن عشر ، كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جدا مع كثرة الضرائب والتشديد فى تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) :

وعرضه أحبار الرهبان والديارين الذين كانوا يقيمون فى صحارى مصر الغربيــة والشرقية ، وقد كانت المســاحات الشــاسعة الممتدة من ســاحل الاســكندرية ومريوط الى الفيوم مراعى خضراء ، بل كان كل مايلى مديرية البحيرة الحالية مزروعا بالعنب والزيتون ، واذا كانت مصر خــلال العصر البطلمى من أعظم بلاد العالم انتــاجا للزيت ، بحيث كان القمح والزيت الغلتين الرئيسيتين اللتين يعتمد عليهما اقتصــاد البــلاد ، فقد كان القمــح يزرع فى الوادى اما شجر الزيتون فكان يزرع فى الصحراء الغربية

وحتى على هذا الاعتبار لم تكن أراضى المراعى ممــا يقاس فى النظام الاسلامى بالفدان أو تقدر عليه ضرائب كما يقدر على الارض العامرة ، وانما كان لها حكم خاص يفصله أبو يوسف القاضى فى كلامه عن أرض « الــكلا والمروج » وكانت معفاة من الضرائب اذا لم يتملكها أحد، فاذا كان لها مالك وجبت عليه الصدقة فقط اذا كان صاحبها مسلما ، فاذا كان ذميا اكتفى منه بجزية رأسه . وعلى هذا الاساس لايمكن ان تدخل هذه المساحات ضمن حساب الارض المزروعة سواء بالسقى والانهار او بماء المطر ، الا اذا احتفر فيها صاحبها ابارا واتخذ فيهــا « مشاريع » أى قنوات فيصير حكمها حكم الارض العــامرة . ولو أن هذه الاراضى كلها كانت عامرة كما يقول ابن حوقل لكانت جباية مصر من خراج الارض وحده نحو ٣٠ مليونا من الدنانير ، على اعتبار دينار واحد للفدان وهو أقل مايمكن تقــديره . ولهذا كله يرجح عندنا ان المساحة كانت ثلاثة ملايين فحسب ، ولا ينبغى أن يغيب عن ذهننا ان ابن حوقل كان داعية فاطميا ، وأنه كان لهذا يبالغ فى تقدير عمار الارض فى ظل الفاطميين

ويجمع مؤرخو مصر الاسلامية على ان خراج مصر كان١٢مليونا من الدنانير ايام عمرو بن العاص ثم ارتفع الى ١٤ مليونا ايام عبد الله بن سعد بن ابى سرح ، ثم انخفض بعده بقليل الى نحو ١١ مليونا ، ثم انحط بعد ذلك الى أربعة ملايين من الدنانير ايام معاوية ، وثبت على ذلك تقريبا حتى نهاية العصر الاخشيدى ، ثم ارتفع قليلا اوائل العصر الفاطمى ، فأصبح سبعة ملايين ، وانخفض بعد ذلك مباشرة حتى بلغ مليونين او اقل . وما يهمنا هنا هى الارقام الثلاثة الاولى ١٢ ، ١٤ ، ١١ مليون دينار ، فهى ارقام تبدو مبالغا فيها بشكل ظاهر ، ولكن اجماع المؤرخين عليها ، وانعدام ماينقضها لايدع لنا مجالا لرفضها ، وليس أمامنا الا ان نبحث عن تعليــلات لهــا

ذهب كارل هاينريش بيكر الى أن العرب طالبوا اول الامر بنفس المبالغ التى كان يقتضيها البيزنطيون من المصريين ، وأخذوها منهم جملة واحدة ، وتركوا للاقباط امر تقسيمها على القرى والافراد ، واذا كان البيزنطيون يستخرجون من مصر ماقيمته ١٨ مليون دينار ، فليس بكثير أن يستخرج العرب ١٢ أو ١٤ مليونا . وثابت من كلام عمرو بن العاص ان جباية مصر كانت تحددها مطالب الحكومة المركزية لاقدرة البلاد على الدفع ، وقد شكا اليه الاقباط ذلك وطلبوا اليه ان يخفف عنهم فلم يستمع لهم . اما قول مؤرخى العرب ان العرب جمعوا جباية مصر من اول الامر على أسس الشريعة الاسلامية من حيث ضريبــة الارض وجزية الرءوس فقول لا يؤيده الواقع ، فقد أثبتت اوراق البردى أن الجملة العامة كانت تقرر مقدما باتفاق بين العامل المسلم وممثلى القبط ، ثم يقوم هؤلاء بمطالبة النواحى بما يجب عليها ، وابسط دليل على ذلك أننا لا نستطيع حســاب الاثنى عشر أو الاربعة عشر مليــونا على أساس ضريبة الارض وجزية الرءوس ، فلو قلنا ان ســكان مصر ايام الفتح كانوا نحــو خمسة ملايين ، وهو أقرب الاقوال الى الصحة ، فان الذين تجب عليهم الجزية منهم حوالى المليونين تجب عليهم ٤ ملايين دينار ، واذا كانت مساحة مصر ٣ مليون فدان ، فلابد أن يكون باقى الاثنى عشر او الاربعة عشر من خراج هذه الملايين الثلاثة ، اى بنسبة دينارين او دينارين ونصف دينار للفدان ، وهو مبلغ باهظ جدا ، اذ أن متوسط ضريبة الارض على الفدان العامر لم يزد على نصف دينار ، فاذا تجاوزنا من ذلك وقلنا ان كل فدان يدفع دينــارا ، كــان المجموع ٣ ملايين ، اذا اضفناها الى قيمة جزية الرءوس وهى اربعة ملايين كان المجموع ٧ ملايين ، فأين باقى الاثنى عشر او الاربعة عشر !

لم يبق اذن الا أن نأخذ برأى بيكر المؤيد بدلالات الوثائق البردية ، فنقــول ان المبلغ كان يقدر جملة واحدة لم يوزع بعد ذلك ، وبهــذا جبى عمرو بن العاص ١٢ مليــونا وعبد الله

الوارد

ميدة او نصف (*)	
٨٠ ٤٦٠ ٠٦٨	مال الميرى على القرى والاوقاف
١٠ ٨٧٠ ٧٧٣	مال الميرى عن الايراد
٢٢ ٨١١ ٨٠٥	مال الميرى على الصنائع والماكولات
٢ ٥٠٩ ٠٨١	مال الميرى على الرؤوس
١١٦ ٦٥١ ٧٢٧	

الخارج

ميدة او نصف	
٢ ٩٣٩ ٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩ ٧٧٢ ٦٥٧	نفقات الجند
٢ ٦٥٣ ٥٨٥	نفقات مختلفة
٨ ٤٣٨ ٩٩٤	نفقات العلماء والتعليم ووقفيات
١٣ ٨٩٢ ١٣٩	نفقات رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢٠٧١ ٦٥٤	نفقات الحج

٩٩ ٨٦٨ ٢٧٦	مجموع الخـــارج يستخرج من مجموع الوارد اعلاه
١٦ ٧٧٣ ٤٥١	الباقى

والباقى المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة ، وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة . ولما تمرد حكام مصر ، حاول بعضهم اسقاطها ، والبعض الآخر تخفيضها ، ثم انتهت اخيرا الى أن يقتطعوا منها ٩ر٢٨٣ر٤٥١ نصفا فى مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

ابن سعد ١٤ مليونا ، ومن جاء بعده ١١ . ولم يكن من الممكن أن يسير الامر على ذلك ، فقد بدأ المصريون يسلمون ويتعلمون العربية ويطلعون على الشرع واحكامه ، ولم يعد من الممكن تجاوز قواعد الشريعة ، وهذا ماحدث ابتداء من ايام معاوية بن أبى سفيان ، فأصبحت الجباية أربعة ملايين ، وثبتت على ذلك ، وربما قلت عن ذلك فى بعض السنين . اما ان جوهرا الصقلى جبى مصر للفاطميين سبعة ملايين ، فيدخل فى ذلك أموال المصادرات الكثيرة التى اوقعها جوهر بالاخشيدية وخصوم الفاطميين فى البلاد ، ثم ان الجباية عادت بعد انتقال المعز الى مصر الى الملايين الاربعة العادية

(*) الميدة ــ وتكتب احيانا مايدى او ميدى ــ هى اللفظ الدارج للفظ مؤيدى وهو نصف الدرهم ، سمى كذلك نسبة الى السلطان المؤيد أبى نصر الشيخ المملوكى . ولما كانت قيمتها نصف درهم فهى تسمى أيضا النصف ، وكانت الميادى رقيقة جدا لانها كانت تضرب من الفضة وقيمتها بعملتنا الحالية تزيد على القرشين قليلا ؛ وكانت هى العملة الاساسية فى مصر طوال العصر المملوكى الثانى

انظر : دوزى : ملحق القواميس ، لفظ ايد

ميدة او نصف	
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١ ٥٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع سائر القطر
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	اثمان سكر وخلافه
٢ ٧٨٣ ٤٥١	نفقات اخرى يأمر بها شيخ البلد
٩ ٢٨٣ ٤٥١	الجملة

فاذا أسقط هذا المال من الخزانة المذكورة كان الباقى ٥٠٠ر٠٠٠ر٧ ميدة (١)

وخلاصة ما يهمنا فى هذا المقام ، أن مجموع الايراد فى عصر المماليك بلغ ٧٢٧ر٦٥١ر١١٦ نصفا ، أو ميدة ، والميدة فى تلك الايام كانت تساوى أربعة سنتيمات تقريبا (٢) أو كل ٢٨ نصفا تساوى ٤ قروش و ٣٧٥ من ألف من القرش . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالقروش نحو ٢٥٠ر١٥٦ر١٨ قرشا(*) غير أن قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم ، وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات ، فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضانى سبعة انصاف وثمن اردب القمح ٢٤٠ نصفا (٣) فاذا قسنا ذلك بأثمانها فى هذه الأيام رأينا الميدة أوالنصف يقابل نصف القرش المصرى تقريبا . فتكون جباية مصر فى عصر المماليك تساوى نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٨ قرش مصرى أو ٠٠٠ر٥٨٠ جنيه ، فلما تولتها العائلة الخديوية ، أخذت جبايتها فى الزيادة حتى بلغت فى العام الماضى (١٩٠٧) ٠٠٠ر٨٥٠ر١١ جنيه ، أى أكثر من عشرين مرة من جبايتها فى أيام المماليك ، والتربة واحدة ، والنيل واحد ، والفصول على حالها

(٣) ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الارض فى المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد ، فبعضها بالمساحة ، أى أن يضربوا على المساحة المعلومة

---

(١) Descrip. d'Egypte XII.

(٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

(*) أورد المؤلف القيمة بالفرنك الفرنسى بحسب قيمته سنة ١٩٠٣ ، وكانت ٣٧٥ر٤ قرشا ، وكان الفرنك عملة اساسية متعاملا بها فى مصر اذ ذاك ، فقال ان الجباية كانت ٤١٥٠٠٠٠ فرنك ، فحولناها الى قروش

(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

من الارض مالا معينا فى العام ، سواء زرعت تلك الارض أم لم تزرع ، والبعض الآخر بالمقاسمة ، أى أن يكون الخراج جزءا من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها فما لم يزرع لايطالب بخراجه وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتى بيانها . ولما كان السواد (أو العراق) أهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به

السواد

كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار «الجريب» ، وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعا فى ستين أى ٣٦٠٠ ذراع مربع ، فكل ماكانت مساحته جريبا كان الفرس يأخذون عليه قفيزا (أى محصول قفيز من الارض عينا) ودرهما (١) . والقفيز عشر الجريب (أى ٣٦٠ ذراعا بلديا مربعا . وهم يقولون القفيز ويريدون غلته، أى انهم كانوا يأخذون عشر المحصول كله عينا، لان القفيز عشر الجريب وزيادة على ذلك درهما نقدا عن الجريب) ويعبرون عن القفيز وزنا بثمانية أرطال ، ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم (٢) وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة فى الجاهلية ، ومن ذلك قول زهير بن أبى سلمى :

تغل لكم ما لا تغل لأهلها   قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهما ، يؤخذ عليه أربعة دراهم أى نحو ١٣ وثلث فى المئة ، وهو خراج خفيف جدا — لولا أن كثيرا من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع أصحابها الخراج عنها (*)

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب ، وعلم بما كان الفرس يجبونه ، أمر بمساحته فمسحوه وعدلوه باعتبار نوع الفرس. وخلاصة ذلك : انه أبقى الخراج على الحنطة كما كان فى أيام الفرس، أى على الجريب قفيز ودرهم أو اربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ، ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن القصب ستة دراهم ، والرطبة خمسة دراهم ، وعلى الشعير درهمين ، وعلى الرأس من الناس ١٢ درهما أو ٢٤ أو ٤٨ درهما ، وأخرج من ذلك النساء والصبيان (٣) وكان العمال يجبون السواد لعمر ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم باعتبار انه ٣٠٠٠٠٠٠٠ جريب ، وظل السواد فى أيام الراشدين عامرا وأكثره مزروعا. فلماكانت الفتنة بعد مقتل عثمان ، واشتغل

---

(١) الماوردى ١٦٥   (٢) الماوردى ١٤١

(*) يبدو أن هنا وهما يسيرا فى الحساب ، فقد كانت الجباية عن كل جريب عشرة أقفزة وعشرة دراهم ، فاذا كانت قيمة محصول القفيز ٣ دراهم فان قيمة المحصول الذى كان يعطى عن كل جريب ٣٠ درهما يضاف اليها درهم عن كل قفيز فالمجموع ٤٠ درهما ، ولما كانت قيمة محصول الجريب كله ٣٠٠ درهم على اعتبار أن الجريب عشرة أقفزة فان نسبة الضريبة هى ٤٠ من ٣٠٠ أى ٧٫٥ فى المائة

(٣) كتاب الخراج لابى يوسف ٢٠

المسلمون بالحروب الى أيام بنى أمية ، واستصفاء الاموال فى أيام معاوية والحجاج وغيرهما ، اشتغل أهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته فى أيام عمر ، ولا بد أنه استخدم العسف والشدة فى ذلك ، لان صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن أرض لم يزرعها ، فاذا لم يؤد ماعليها ظل عليه الخراج دينا عاما بعدعام ، فيتراكم ذلك على أصحاب الارض وهم يزدادون ضنكا ، فخربت البلاد وهجرها أهلها ، وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر أصحاب الارض الى الالجاء كما سيأتى . ناهيك بما كان فى نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بنى أمية ، لتعصبهم للعرب ، واحتقارهم لغير العرب ولو كانوا مسلمين

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ ، وجهوا عنايتهم الى السواد ، بنوع خاص ، وأول من فعل ذلك منهم المنصور ، فانه نظر فى السواد فاذا هو يكاد يكون خرابا للاسباب التى قدمناها ، فرأى أن من الظلم استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ، فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما أكثر غلات العراق) اى أن يؤخذ خراج الارض من غلتها اذا زرعت ، فاذا لم تزرع لايؤخذ منها شيء ، وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة (١) ، ولاندرى كم جعل حصة بيت المال من المقاسمة المذكورة ، ولكننا نعلم أن ابنه المهدى (من سنة ١٥٦ — ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف فى الارض التى تسقى سيحا أى بدون تعب ، وبالثلث فى الارض التى تسقى بالدوالى (*) وبالربع فى الارض التى تسقى بالدواليب ، وأبقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة (أى تركه يحسب على أساس المساحة المزروعة) وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض — أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار (٢) ، فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريبا ، لان أكثره يسقى سيحا ، وهو خراج ثقيل ، ولكن الناس عدوه يومئذ فرجا ورحمة

ويظهر أن الهادى أوالرشيد زاد على ذلك الخراج العشر ، فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها أى ستة اعشارها ، وظل ذلك شأنها الى سنة ١٩٢ هـ فاسقط الرشيد العشر وابقى النصف فقط (٣) وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجا الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين (٤) فكانه أسقط عشرين فى المائة من مقدار الخراج ، وخفض خراج بعض البلاد

---

(١) الماوردى ٧٧ و ١٦٨

(*) دوال جمع دلو وتجمع أيضا على أدلية ، ويراد بها هنا آلة من الات الرى تشبه الشادوف المصرى ، وهى غير الدولاب وهو الساقية

(٢) الماوردى ١٦٨ والفخرى ٦٤ والبلاذرى ٢٦١ (٣) الطبرى ٦٠٧ج٣ وابن الاثير ٤٨ج٦

(٤) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج٦ والطبرى ١٠٣٩ ج ٣

الاخرى غير السواد كالرى ، فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة ، وأمر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ أهل (قم) ذلك طلبوا اليه أن يحط خراجهم كما فعل بالرى فأبى ، فتمردوا وامتنعوا عن أداء الخراج وكان مقداره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه فى ذلك العام ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم تأديبا لهم (١)

فترى مما تقدم أن خراج السواد كان ثقيلا بالنظر الى ما كان عليه فى أيام الراشدين على المساحة ، لانهم كانوا يأخذون على الجريب أربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ أو نسبة ١٠٠ : ٣٣٣ وثلث فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ وثلث ، وهو خراج زهيد بالنظر الى مابيقى بورا فهو كثير ، وربما كان المعدل فى الحالين واحدا ــ يدلك على ذلك ان الفرق فى ارتفاع الخراج بين المساحة فى أيام الراشدين والمقاسمة فى ابان كثرتها لايعتد به ، اما بالنظر الى هذه الأيام (سنة ١٩٠٣م) فان ضرائب السواد مازالت حتى فى ايام المأمون تعتبر ثقيلة بالنسبة اليها . اذ ليس فى العراق الآن أرض يزيد خراجها على خمس غلتها ، وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفى لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة . لانهم مسحوا الارض وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتها باختلاف المغروسات ، فالارض التى غلتها كيل زيتون أو حمل ورق توت أو بذار مد قمح أو ما تساوى قيمته ٣٦٠ قرشا سموها سهما ، وفرضوا على السهم ٢١ قرشا الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ فى المئة فقط

مصر

ويلى العراق فى الخصب مصر ، وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة ، والقصبة خمسة أذرع بذراع النجار وستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش (٢) (*) وفى تعريف الحكومة المصرية اليوم الفدان ٣٣٣ ١/٢ قصبة ، والقصبة ٣٫٥٥ من المتر المربع ، وبتحويله الى امتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع ، وقد تزيد او تنقص قليلا (٣)

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون فى عهد بنى أمية من العسف وزيادة الضرائب ، فدخلت الدولة العباسية مصر وأكثرها خراب لما كان يسوم أهلها عمال بنى أمية من زيادة الخراج ، وأشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن

---

(١) الطبرى ١٠٩٣ ج ٣ (٢) المقريزى ١٠٣ ج ١

(*) ذراع النجار هو طول الذراع بحسب قياس النجارين وأهل المعمار ، ولهذا يسمى فى ايامنا بالذراع المعمارى ، وذراع القماش هو طوله بحسب مقياس القماشين اى تجار القماش وغيرهم من التجار ، ولهذا يسمى اليوم بالذراع البلدى

(٣) القوانين العقارية ١٦١

الحبحاب ، فى أيام هشام بن عبد الملك ، فانه زاد على القبط قيراطا فى كل دينار ، كما تقدم ، فآل ذلك الى ثورة كبرى · على أن الثورات كانت تتوالى فى مصر بسبب ضغط العمال ، فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية أعمالهم ، وملاحظة سيرهم ، كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادى النيل عن مركز خلافتهم ، فكان العمال حتى فى صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ، ويشددون فى تحصيله ، كما فعل موسى بن على سنة ١٥٦ هـ فى أواخر أيام المنصور ، وموسى بن مصعب فى أيام المهدى فانه ضاعف الخراج وشدد فى استخراجه (١) وربما كان ذلك بايعاز الخليفة ، لان المهدى زاد الخراج على أهل العراق كما رأيت

اما فى أيام المأمون اى فى ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان (٢) ، وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن ، اذا اعتبرنا الفرق فى السعر بين تلك الايام واليوم . لأن الخراج المضروب على أطيان مصر الخراجية (وهى الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها · وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة · لانهم قسموا القطر المصرى الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها · واخصب النواحى لايزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشا (٣) ، وأمثال هذه الفدادين قليل جدا · وأما الاكثر فخراجه حوالى مائة قرش ، وفيها ما خراجه عشرون قرشا ، أو عشرة قروش · واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها ، رأينا الخراج لايزيد على خمس الغلة بوجه التقريب ، لان الفدان الذى تقدير خراجه مائة قرش مثلا يضمن بخمسة جنيهات أو ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين ، رأينا معدل خراج الفدان لايزيد على ٨٥ قرشا ، لان فى القطر المصرى نحو ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان زراعى بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية (١٩٠٢) ٤٫٦٥٢٫٥٧٠ جنيها (٤) فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشا ، وقد تقدم فى غير هذا المكان أن القرش اليوم يساوى ثلث قرش تلك الايام · فالديناران خراج الفدان فى أيام المأمون يساويان ستة دنانير فى هذه الايام أو ثلاثة جنيهات ، فيكون خراج مصر فى أيام المأمون يزيد على ثلاثة اضعافه فى هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكن يظهر ان الخراج فى مصر زاد بعد المأمون ، حتى بلغ فى أواسط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفا ، فجعلها هو سبعة دنانير (٥) وذلك شىء كثير

---

(١) المقريزى ٣٠٨ ج ١ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) القوانين العقارية ١٦٤وما بعدها
(٤) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢ (٥) ابن حوقل ١٠٨

وقد رأينا فى كتاب احسن التقاسيم للمقدسى أنه : « ليس على مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام (*) وتركت ، ثم يخرج الخازن وامين السلطان فيقطعان (اى يأخذان) كرى الارض ويعطيان ما بقى للفلاح » ولكن ذلك كان خاصا بالارض التى كانت الحكومة تقبلها اى تضمنها وليس لها مالك ، وقد تكون فى الأصل لبعض القواد أو العمال من الروم الذين قتلوا فى الحرب أو هربوا ، فبقيت حلالا لبيت المال كما تقدم ، يضمنها الحاكم ويأخذ ضمانتها عينا أو نقدا

بلاد اخرى

وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة ، والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلا كان خراجها على ثلاثة أصناف : ١ ــ المقاسمة ، ٢ ــ المساحة ، ٣ ــ القوانين وهى المقاطعات (اى الاقطاعات) . على أن أكثر بلاد فارس على المساحة ، وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها فى شيراز (١) فان خراج الجريب حنطة أو شعيرا ١٩٠ درهما والجريب من الارطاب والمباطخ (**) ٢٣٧ ونصف درهم ، ومن القطن ٢٥٦ درهما واربعة دوانق ، ومن الكرم ١٤٢٥ درهما ، ولكن الجريب عندهم كبير اى سبعون ذراعا بذراع الملك ، وهو تسع قبضات (٢) فاذا فرضنا أن الجريب جريبان من اجربة العراق فالخراج مع ذلك لايزال ثقيلا جدا . وهو خراج تلك البلاد فى أواسط القرن الرابع ، ولم نقف على مقداره فى ايام المامون

ومن هذا القبيل خراج المغرب فى أيام الاغالبة ، فقد بلغ خراج الفدان فى ايام عباس بن ابراهيم بن الاغلب ١٨ دينارا (٣) ولا نظن مثل هذا المال بطول اقتضاؤه من أصحاب الارض ، وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال

وجملة القول ان الخراج كان فى العصر العباسى الاول ثقيلا ، ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه ، وقلما شكا الناس ثقله ، وربما استطاع العامل أن يجمع الملايين من الدراهم بسهولة فى بضعة أيام ، كما اتفق للمامون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملا له عليها ، وقد قل المال مع المامون

(*) جاء فى ملحق القواميس لدوزى « ١٢٢/٢ » تحت لفظ عرم ان : العرمة هى التل الصغير Monceau او كومة التبن Pile de Foine أو الحبوب او التراب ، والعرام هو الكوم . وعلى هذا فيكون رشم الارض بالعرام هو تغطية المزروعات بشىء يشبه التبن حتى يقبل رجال الدولة فيأخذوا كراء الارض ويتركوا الباقى للفلاح

(١) الاصطخرى ١٥٧

(**) المباطخ جمع مبطخة وهى الارض التى يزرع فيها البطيخ ومايشبهه كالخيار والقثاء

(٢) المقدسى ٤٥١ (٣) ابن الاثير ١٢٥ ج ٦

فشكا ذلك الى المعتصم فقال : يا امير المؤمنين كانك بالمال وقد وافاك بعد جمعة · فجاءه بثلاثين الف الف درهم (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف (١)

سائر مصادر الجباية

على اننا لا نرى باسا من الاشارة الى ما بقى من مصادر الجباية فى العصر العباسى الاول لتتمة الموضوع ـ منها :

١ ـ أعشار السفن : هى ضريبة ذات بال ، كان يرد منها الى بيت المال مبالغ وافرة ، لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ماكان يجبى منها فى العصر العباسى ، ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة فى تلك الايام ، بين العراق وسائر أقطار الدنيا حتى الهند والصين ، أن السفن كانت كثيرة وأحمالها ثمينة· وقد ذكروا تاجرا واحدا من تجار البصرة فى القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس ، له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين ، بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠,٠٠٠ دينار فى العام (٢) فاعتبر ذلك وقس عليه غيره فى البصرة وغيرها من ثغور الاسلام ، وفيها ما يكون اكثر دخله من أعشار السفن · فقد كان ضمان أعشار المراكب فى عدن فى القرن الرابع ٢٠٠,٠٠٠ دينار (٣) ، وضمانها فى القرن السادس ١١٤,٠٠٠ دينار (٤) والظاهر أن جباية تلك الاعشار كانت فى العصر العباسى أقل مما صارت اليه بعد ذلك ، لاننا نرى فى جريدة على بن عيسى التى كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب فى البصرة بلغت ٢٢,٥٧٥ دينارا · وقد تقدم أن أضعاف ذلك كان يتحصل من أحد تجارها بعد قرنين

٢ ـ أخماس المعادن : كانت المعادن عندهم ضربين : ظاهرة ، وباطنة · فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، فهذه لايجوز اقطاعها ، لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه (ومن قبيل ذلك أراضى المراعى والكلأ والآجام) · وأما المعادن التى فى باطن الارض فهى ماكان جوهرها مستكنا فيها ، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ، ولها الخمس مما يخرج منها (٥) ، ونظرا لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ، ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها ، وهاك امثلة منها ومن أماكن وجودها :

---

(١) الطبرى ١١٤٣ ج ٣ ـ وفى ابن الاثير وابى الفداء والفخرى ان مقدار ذلك المال ثلاثون الف الف الف درهم « ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ » وهذا خطأ من النساخ

(٢) ابن حوقل « فى الذيل » (٣) ابن حوقل ٢٠ (٤) ابن حوقل «فى الذيل»

(٥) الماوردى ١٨٧

كانت فى خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم (*) والنوشادر والزئبق (١) . وفيما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق لايكاثره معدن فى الغزارة والكثرة (٢) . وفى بلاد فارس عامة المعادن : الفضة والحديد والانك (**) والكبريت والنفط والصفر (***) والزئبق . وبغربى اصبهان معدن الكحل (٣) . وفى كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها أكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر (٤) . ومن هذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل افريقيا الشمالية ، وهو شيء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قاربا أو أكثر ، وفى كل قارب عشرون رطلا (٥) . وفى سوريا معادن الحديد ، كانت بجوار بيروت ، والمغرة الجيدة (****) فى حلب وجبال الحمر فى مكان آخر ، ومعدن الرخام فى فلسطين ، ومعدن الكبريت فى الاغوار (٦) . وفى مصر معادن الشب بالصعيد ، وكانت العربان تحضره من مناجمه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ، ويحمل منه الى الاسكندرية أيام النيل ، وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٫٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة . وكذلك النطرون فى البر الغربى للنيل وفى غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠٫٠٠٠ قنطار ، وكان يضمن فى بعض الأحوال ضمانا تبلغ قيمته ١٥٫٥٠٠ دينار (٧) . وفى النوبة مما يحاذى أسوان معدن الذهب المشهور — قال ابن حوقل : « والمعدن ليس من أرض مصر ، ولكنه فى أرض البجة وينتهى الى عيذاب ، والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهى رمال ورضراض ومجمع تجارهم العلاقى » (٨) . وفى بلاد الغرب مما يلى سجلماسة معادن الذهب والفضة ، وكذلك فى ماوراء ذلك الى بلاد السودان (٩) . وكان فى صعيد مصر جنوبى النيل (كذا) معدن الزبرجد فى برية منقطعة عن العمارة (١٠) وفى البحرين بخليج فارس مغاوص اللؤلؤ ، وفى صنعاء مناجم العقيق ، وبين ينبع والمروة معادن الذهب ، وعلى شواطىء عدن ومخا (فى اليمن) العنبر (١١)

نستعمل نحن الشمع الاحمر اليوم . وكانت العادة فى المكاتبات الرسمية ان يوضع طين الختم

(*) طين الختم طين خاص ذو تركيب معدنى يجعله صالحا لان يستعمل فى الاختام كما فى ختامها ثم يختم بختم الخليفة . وكان الختم يوضع أيضا على الخطاب بعد اقفاله كما نفعل نحن اليوم فى المكاتبات الهامة

(١) المقدسى ٢٢٦ (٢) ابن حوقل ٣٣٧

(**) الآنك بفتح الهمزة وضم النون ، ويكتب أيضا انوك ، هو الرصاص

(***) الصفر هو النحاس

(٣) الاصطخرى ١١٥ و ٢٠٢ (٤) ابن الفقيه ٢٠٦ (٥) ابن حوقل ٥١

(****) جاء فى ملحق القواميس لدوزى « ٦٠٢/٢ » : المغرة طين احمر ، وهو مغرة النجارين وهو ضربان : منها المغرة المدنية ومنها المغرة اللواحية وهو ازكها . اى ان المغرة كانت مادة يصنع منها مانسميه نحن اليوم بالقراء

(٦) المقدسى ١٨٤ (٧) المقريزى ١٠٩ ج ١ (٨) ابن حوقل ١٠٧

(٩) المقدسى ٢٣١ (١٠) الاصطخرى (١١) المقدسى ١٠١

هذه أمثلة مما كان فى المملكة العباسية من المعادن تمثيلا لما كان يجبى من أخماسها الى بيت المال · وكانوا يقطعون هذه المعادن اقطاعا أو يضمنونها تضمينا بمال معين ، وقد يكون ذلك المال كثيرا ــ من أمثلة ذلك أن معادن الفيروز فى نيسـابور بلغت ضمانتها فى أواسـط القرن الرابع للهجرة ٧٥٨ر٧٢٠ درهما (١)

٣ ــ الجزية والزكاة : كانت الجزية فى صدر الاسلام كثيرة ، ثم تناقصت بدخول الناس فى الاسلام · والزكاة كان لها شأن كبير فى أول الاسلام ، ثم قلت أهميتها ، وسيأتى بيان ذلك

٤ ــ المكوس والمراصد : وهما تقابلان الجمارك والعوائد فى هذه الايام ، وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة فى البحر أو البر ، مهما يكن نوعها من الانسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره · وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير · ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ، ولكن يظهر أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وربما اختلفت فى البلد الواحد باختلاف الزمان ، وفى الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره ، وانما نأتى بما شاهده شمس الدين المقدسى بنفسه فى مصر فى أواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التى كانت تؤخذ فى تنيس ودمياط ، قال : « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما الثياب الشطوية (*) فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا أن تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليها ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تحمل الى من يطويها ، ثم الى من يشدها بالقشر (**) ثم الى من يشدها فى السفط ، والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه · ثم على باب الفرضة (أى الميناء) يؤخذ شىء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها · ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه · ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، رأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قبل قبالة هذا الموضع (يجمع) فى كل يوم الف دينار ، ومثله عدة على سواحل البحر فى الصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضا على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » (٢)

وذكر ابن حوقل : انه كان يتحصل مما يخرج من أذربيجان الى نواحى

---

(١) المقدسى ٣٤١ (٢) المقدسى ٢١٣

(*) نسبة الى بلدة شطا قرب دمياط

(**) أى يشدها على ألواح الخشب ، والمراد بذلك كبها

الرى ولوازم على الرقيق والدواب ، وأسباب التجارات والابقار والاغنام ...ر...را درهم فى السنة (١) (*)

على ان هذه الضرائب وامثالها لم يكن لها رواج فى أوائل الدولة العباسية ، ولا كانت غلتها تستحق الذكر ، ولكن دخلها تعاظم فى عصر الاضمحلال

٥ ـ المستغلات وغلة دار الضرب : يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ، ابتناها الناس فى أرض تربتها للسلطان (أى يملكها السلطان) فيؤدى عنها أجرة (٢) . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب فى مدينة السلام بغداد...ر...٥ر١ درهم فى السنة (٣) ، وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها ...ر...ر١٠ درهم فى السنة (٤)

فالدولة العباسية فى ابان زهوها كانت تجبى من هذه الضرائب شيئا كثيرا ، ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

٤ ـ صدق العمال فى ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بنى أمية انهم كثيرا ماكانوا يستأثرون بالخراج لانفسهم ، اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمة له فى مقابل نصرته على على ، أو بحجة الحاجة الى المال فى الحروب كما حصل فى ايام الحجاج ، أو استرضاء لعامل متمرد التماسا لقعوده (أى سكوته وطاعته) (٥) ، أو أن يعصى العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق فى ايام أخيه يزيد (٦) فان «يزيد» استحيى أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه. ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال الفىء والغنائم وهى من حق بيت المال ، وقد يذكرونها ويطمعون فيها كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ ، فانه أصاب مالا كثيرا بقى منه لبيت المال ...ر...ر٦ درهم ، كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه (٧) ـ ذلك ونحوه دعا الخلفاء فى

---

(١) ابن حوقل ٢٥٣

(*) نص ابن حوقل هنا : « ومن الميانج الى الخونج مدينة ايضا بها مرصد (اى مركز لتحصيل الجمارك) على ما يخرج من أذربيجان ولوازم (اى ضرائبه لازمة) على الرقيق والدواب وأسباب التجارات كلها من الاغنام والبقر ، ومقاطعة هذا المرصد دائما مائة ألف دينار وزائده الى الف ألف درهم وناقص فى السنة ، وليس له ولما يجتاز به شبه فى جميع اقطار الارض » ـ طبعة كرامر ، لايدن ١٩٣٩ جـ٢/٣٥٢

(٢) ابن حوقل ٢١٧

(٣) ابن خرداذبة ١٢٥

(٤) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٨

(٥) ابن الاثير ١٤٣ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٤٧ ج ٥

(٧) الطبرى ١٣٢٤ و ١٣٥٠ ج ٢

بعض الاحوال الى أن يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس ، فقد كان معظم عمالهم فى أوائل الدولة من أهلهم الاقربين ، ثم استعملوا انصارهم الفرس ، وهم أكثر الناس رغبة فى قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لايقصرون فى زيادة رواتبهم حتى بلغت فى أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم (١) وهى عمالة (بكسر العين وهى المرتب) الفضل بن سهل على المشرق ، ولم يدرك مثلها أحد من عمال بنى امية . لأن أكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠,٠٠٠ درهم ، وهى عمالة يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق (٢)

ومما ساعد بنى العباس فى أوائل دولتهم على حفظ نظام أعمالهم . واجماع العمال على ولائهم سداد راى وزرائهم ، وخصوصا البرامكة . فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة ، وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال ، لانهم كانوا يعدون استيلاء بنى العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ أعوام للتخلص من بنى أمية واحتقارهم اياهم

وهناك أسباب أخرى لكثرة جباية الدولة فى أيام المأمون . كقلة الحروب والفتن ، فانها مذهبة للاموال ، مضيعة للخراج ، مفسدة للاعمال . لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال فى الجند

أسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن أسباب كثرة الخراج فى الدولة العباسية بالقياس على أيام بنى أمية ، وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهى القسم الاول من أسباب الثروة العباسية . فلنأت الى القسم الثانى وهو قلة النفقة . وأهم أسبابها ثلاثة :

١ — قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين فى مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ، ويقال بالاجمال انهم اقل عددا فى الحكومات الاستبدادية منهم فى الحكومات المقيدة ، لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شىء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك فى المحاكم القضائية ، ومقدار الفرق بين عدد موظفيها فى عهد الاحكام العرفية ، وبينهم فى عهد الاحكام القانونية ، وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه ، ويكفى لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفى الحكومة المصرية قبل نظامها الحالى بعددهم اليوم

---

(١) الطبرى ٨٤١ ج ٣ — (٢) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (فى أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سلم الفاتح وابنه السلطان سليمان

وخلاصة ذلك ان رئيسها (الباشا) وهو الوالى المرسل من الاستانة يليه ٢٤ بيكا (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى فى القطر وهم :

(١) الكخيا : وهو نائب (الباشا) وكاتم سره

(٢) الدفتردار : وهو ينظر فى الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا

(٣) امير الخزنة : وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر

(٤) أمير الحج : وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز

(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندريه

(٦) خمسة مديرين لأقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية

وهناك أربعة كشاف لاقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم · واعمالهم مثل أعمال البكوات مديرى الاقاليم الاخرى

ومن المصالح الاخرى القاضى وامير الضربخانة والمحتسب

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهى :

(١) وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى

(٢) وجاق الجاويشية : وهو مؤلف فى الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

(٣) وجاق الهجانة

(٤) وجاق التفقجية (*) : وهم ناقلو البنادق

(٥) وجاق الانكشارية : وهم أخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية ، وكانوا يعرفون أيضا بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفا من افراد يقال لهم «وجاقلية» ، واحدهم «وجاقلى» على كل وجاق منها ضابط ، يلقب بالآغا ، يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجى (١) · ومن

(*) كذا فى الاصل وفى القواميس التركية : تفنك بمعنى بندقية وبلوك تفنكجى نفرالى = فرقة الرماة بالبنادق ، فلعل صحة الكلمة تفنقجية

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ا ج ٢ (طبعة ثالثة)

اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي أمرا الا بمصادقتهم

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ، ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ماعدا الجيش) ، فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ أو قل ٣٠٠ أو ٤٠٠ ، وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس وسائر المصالح ، مما يربو عدد موظفيها على الفين كما يأتي :

الموظفون في الحكومة المصرية الآن فئتان : الفئة الاولى : العمال ، وهم الذين يتولون أعمالها وادارة شؤونها ، ومنهم النظار ، ورؤساء الاقلام ، والكتاب والحساب . والفئة الثانية : الخدمة ، ومنهم الفراشون ، والبوابون ، ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام (١)

عدد موظفي الحكومة المصرية

لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد		عدد	
١١٢١	المعية وتوابعها	١٨٤٦٤	(مجموع ما قبله)
١٨	مجلس النظار	٢١٨	خفر السواحل
٢٦	مجلس الشورى	١٤٠	الدخوليات (الجمارك)
٢٤	نظارة الخارجية	٤	مصايد الاسماك
٤١٩	نظارة المالية	١٣	الرسالة
٤٢٤	نظارة المعارف	١٩٣٨	السكة الحديدية
١٨٦	نظارة الداخلية	٣٢٧	التلغرافات
٢٧٦٠	نظارة الحقانية	٢٩	ميناء الاسكندرية
٦٢٩	نظارة الاشغال	٥٥٠	البوستة
٣٣٠٦	نظارة الحربية	١٠٣	الفنارات
١٧١٥	مصالح ادارة الاقاليم وماليتها	٦	الليمانات
٦٦٤٤	مصلحة البوليس	١٥	التمغة للمصاغات
٥٢٦	مصلحة الصحة	٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١٠٥	مصلحة السجون	١١	الكتبخانة الخديوية
١٥	مصلحة منع الرقيق	٤	الانتكخانة
٣٦	مصلحة الدفترخانة	١٤	المطبعة الاهلية
٥١٠	مصلحة الجمارك	٩٠	أملاك الميرى الحرة والمشتركة
		٢٢٧	القومسيون البلدى
١٨٤٦٤	(المجموع)	٢٢٤٥٤	(الجملة)

(١) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

فجملة موظفى الحكومة المصرية من العمال ٢٢٫٤٥٤ ، فاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها فى ادارة شؤون الحكومة وهى :

عدد			
١٩٣٨	السكك الحديدية	٢٨٤٤	(مجموع ما قبله)
٣٢٧	التلغرافات	١٠٣	الفنارات
٢٩	ميناء الاسكندرية	٦	الليمانات
٥٥٠	مصلحة البوستة	١٥	قلم التمغة
٢٨٤٤	(المجموع)	٢٩٦٨	(الجملة)

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها ١٧١٥ — كان المجموع ٤٦٨٣ ، وباخراجه من العدد الاصلى يبقى ١٧٫٧٧١ وهو عدد موظفى الحكومة المصرية فى نظاراتها ومصالحها ما عدا الجيش · فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد ، وبين ما كان عليه فى أيام المماليك ، وقس عليه عدد موظفى الحكومة فى الدولة العباسية

على أن ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية ، فانك ترى معظم أصحاب الرواتب هناك من الجند ، وخدمة البلاط ، والحرس الخاص ، والغلمان ، والحشم ، والفراشين ، وأصحاب الصيد ، ونحوهم ، وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الا جزء صغير وهم المعبر عنهم « بأكابر الكتاب » ، وأصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) ، واسحق بن ابراهيم القاضى ، والفرسان ، ونفقات السجون ، والعلوفة ، ونحو ذلك · ولا نظن نفقات الحكومة على مصالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (أى ١٫٢٥٠٫٠٠٠ دينار) مع أن نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه · ومامصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير · وأما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على ان السبب فى قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ، ولكن هناك سببا آخر ذا بال ، اعنى تسديد ارزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل فى باب الوارد · فقد رأيت أن أرزاق اكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ ١٥٦ وثلثا دينار فى اليوم ، غير أن هؤلاء ليسوا كل موظفى الدواوين بل هم الكبراء فقط . ويتضح ذلك من قوله هناك : « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة ، وأصحابهم وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون أرزاقهم مما يوفرون من أموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم » · ويدل ذلك

أيضا على احتصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام أصفر الباعة اذا أراد ضبط حسابه فضلا عن دوائر الحكومة . فان أموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب أن تدون في أبواب الوارد ، وتدون رواتب أولئك الموظفين في باب النفقات · وعلى أننا نستبعد أن لا يكون لهذه القيود محل في دفاتر الحكومة العباسية ، وانها اسقطت من هـــذه القائمة حبا في الاختصار أو لاسباب أخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث ، انغماس الحكومات الاوربية في الديون ، وما من دولة الا وهي مدينة بمال لابد لها من تأدية فوائده ، أو تسديد بعضه من دخلها كل عام · فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلها ، مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية ، أوكانت معروفة على صورة خفيفة جدا · فقد تقدم أن دخل انجلترا ...ر...ر١٢٠ جنيه يجتمع نحو أربعة أخماسها من ضرائب أكثرها حديثة العهد ، وأن نفقات الدولة تستغرقها كلها · فمن اسباب ذلك أن ربع هذا الدخل تقريبا يذهب في وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون · ولولا ذلك لبقى في خزينـــة الحكومة الانجليزية كل عام حوالي...ر...ر٣٠جنيه أي نحو ثروة الدولة العباسية كلها · وليست انجلترا وحدها غارقـــة في الديون فان معظم دول أوربا مثلها ، وان تفاوتت ديونها ــ وهاك بيان بديون اشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر ، بقطع النظر عن كسور المليون ، وقد رتبنـــاها في الجدول الآتي باعتبار الاكثرية :

ديون اشهر دول العالم (١)

	جنيه		جنيه
فرنسا	١ ٢٥٠	(مجموع ماقبله)	٢ ٧٠١ ... ...
انجلترا	٧٠٠	المانيا	١٠٠ ... ...
روسيا	٢٠٠	هولندا	٩٣ ... ...
الولايات المتحدة	٢٠٠	الصين	٥٤ ... ...
الدولة العثمانية	١٢٨	اليابان	٤٨ ... ...
النمسا	١٢٠	ايطاليا	٢٢ ... ...
مصر	١٠٣	اسبانيا	١٢ ... ...
(المجموع)	٢ ٧٠١	(الجملة)	٣ ٠٣٠ ... ...

(١) Statesman's year book

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالى الاجيال ، بما احتاجت اليه من النفقة فى الحروب ، أو فى انشاء المشروعات الكبرى ، أو نحو ذلك ، مما لم تكن الدولة العباسية فى غنى عنه ، ولكنها كانت فى أيام زهوها تنفق مما تدخره من فضلات الجباية كما تقدم ٠ فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة فى طور الاضمحلال ، ولم يبق فى بيت مالها ما تنفقـــه فى الحروب عمدت الى استخراج الاموال من أهل الثروة ، وخصوصا من كبار موظفيها كالوزراء ، والعمال ، والكتاب الذين أثروا من مالها بالاختلاس ونحوه ، وسموا ذلك مصادرة كما سيأتى

على أن الدولة العباسية كانت فى بعض الاحيان تستسلف المال من بعض التجار فى مقابل أوراق لم يحل أجلها ، وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود ، وهم أقدر الناس على المراباة كما لا يخفى ــ وبلغ مقدار الربا الذى كانوا يأخذونه على تلك القروض نحو ٢٠ فى المائة ٠ فقد كان على بن عيسى وزير المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استسلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف ، ولم تحل بعد ٠ وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانقا ونصفا على كل دينار فى الشهر ، فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها فى الشهر ٢٫٥٠٠ درهم ٠ وأشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود فى بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس (*) وهو من تجار الاهواز أيضا ، وآخر اسمه هرون ابن عمران أو من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة (١) ــ غير أن ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلى الشائع فى هذه الايام (**)

(*) كذا فى الاصل ، وفى كتاب الوزراء للصـــابى ، ص ١٧٨ : يوسف بن فيجـــاس اليهودى ، وكان جهبذ الاهواز

(١) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches 63

(**) الفرق بعيد بين ما كانت الحكومة العباسية تلجأ اليه ابتداء من القرن الرابع من اقتراض الاموال من التجار أو المولين وما تعقده الحكومات اليوم من قروض أهلية بضمانة الخزانة ، ففى أيام العباسيين لم تكن الدولة هى التى تقتـــرض بل كان الوزير أو شخص الخليفة نفســه ٠ ولم تكن المسألة فى الحقيقة مسألة قرض بل وسيلة للحصول على النقود لضرورة عاجــلة دون ضمـــان ٠ وقد روى الشابشتى فى كتاب الديارات كيف نشـأ ذلك ، قال : « ان الخليفة الموفق احتاج الى مال يخرج به الجند لمحاربة الصـــفار ، والتمس من وزيره صاعد بن مخلد أن يحتال فى ذلك ، فقال الوزير : والله مالى حيلة الا من حظر النفقات ومنع المرتزقين ، فقال الموفق : أين يقع ذلك مما احتاج ؟ والذى أريد أن تأخــذ من التجار قرضا ، وتوظف عليهم وعليك وعلى الكتاب مالا تستعين به على اخراج راشــد (قائد الجند) فاذا اتسعنا رددناه عليهم ، فاستوحش صاعد من ذلك وأراد أعمال الحيلة فى التباعد عنه » ٠ وفى سنة ٣٠٠ هـ احتاج الوزير الى شىء من مال الاهواز ، ولم يكن أهله متأهبين لذلك ، فأرسل فى احضار يوسف بن فيجاس الجهبذ اليهودى ، وكان جهبـــذ الاهواز ، وطلب اليه تقديم مال (الوزراء للصـــابى ، ١٧٨) ٠ وقد يطلب الوزير من بعض الزراع دفع الضرائب مقدما ، كما فعل صاعد بن خالد سنة ٣١٩/٩٣١ اذ « استسلف من مال سنة عشرين وثلثماية شطرة قبـــل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هــذه

(٣) اقتصاد الخلفاء الأولين وتدبيرهم

من الأمور المقررة فى التاريخ السياسى ، أن مؤسسى الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ، ولولا ذلك لم يتأت لهم انشاء الدول أو تثبيت دعائمها ، ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبيها ، كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت فى حوزة السفاح طفلة ، فتناولها المنصور صبية فغذاها وأنماها حتى أدركت شبابها فى أيام الرشيد والمأمون ، ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم فى أيام الخلفاء الذين اتوا بعد ذلك

توفى السفاح وقد ملك أربع سنوات ، ولم يخلف سوى بعض الثياب (١) ولو كان طماعا لجمع مالا كثيرا لكثرة ما وقع له من غنائم بنى أمية فضلا عن الجبايات وغيرها

وخلفه المنصـــور فتولاها بضعا وعشرين سنة ادخر فى أثنـــائها نحو ٨١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كما تقدم · وكان لفرط حرصه متهما بالبخل ، ولم يكن بخيلا ولكنه كان لا يضع الكرم فى غير موضعه : لم يكن يبذل المال الا اذا رأى فى بذله منفعة فى تأييد دولته · وفضل المنصور فى تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب فى تأييـــد الاسلام ، يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما أوصى به ابنه

السنة الا أقله ، واضطر فوق هذا الى أن يقترض مائتى ألف دينـــار بربح درهم فى كل دينار » (مسكويه ٥/٢٤٢ ، ٣٤٥ و ٣٦٤)

روى ذلك كله آدم ميتز : الحضـــارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ترجمة الدكتور أبو ريدة ، (الطبعة الثانية ١٩٤٧) ، وانظر بقية الشواهد هناك

والخلاصة أن استسلاف المـال بهذه الطريقة لم يكن عقد قروض بالمعنى المفهوم ، وانما وسيلة الحصول على المال بأى طريق . وكان الغالب ألا يرد الوزير ما يأخذه كما حـدث سنة ٣٢٣/٩٣٤ · وربما كتب لهم بأموالهم سفاتج (كمبيالات) يعطيهم بقيمتها فيما بعد شيئا من أملاك الدولة

وكان التجار والمولون ضحيـــة الدولة وعمالها فى ذلك كله ، فكانت أموالهم مهددة ، بل كانت بلاء عليهم · وسبب ذلك ان الدولة كانت فى افلاس تام من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى فى خلافة المعتضد (٢٧٩/٨٩٢ـ ٢٨٩/٩٠١) · وقد وصف هذه الحـــالة أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد فى حديث له مع أحد اصحابه قال : « وقـــد وردنا على دنيا خراب مستغلقه ، وبيوت مال فارغة ، وابتداء عقد لخليفة جديد الامر ، وبيننا وبين افتتاح الخراج مدة ، ولابد لى فى كل يوم سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزية ، فان كنت تعرف وجها تعيننى به فارشدنى اليه ، فأشـــار صاحب الوزير باطلاق ابنى الفرات ، وكانا عاملين لهما دهاء وخبرة بالاعمـــال والاموال ، فاطلقهما من سجنهما ، فخاطبا أحد الاغنياء فى أن يضمن جزءا من أرض العراق على أن يحمل من ماله فى كل يوم سبعة الاف دينار ، فأعطى خطه بذلك ، وعـــرف الوزير الامر ، فاستطير هو والخليفة سرورا لهـذا الحـل الجديد لما انطوى عليه من مهارة »

كتاب الوزراء للصابى ، ١٠ — ١١

رواه آدم ميتز فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ، ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦

(١) ابن الأثير ٢١٩ ج ٥

المهدى عند وفاته . من ذلك قوله : « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عنيك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث .. واياك أن تدخل النساء فى أمرك ، واياك والاثرة والتبذير لاموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ، وامن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة ، وهى من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع.. واعد رجالا فى الليل لمعرفة ما يكون فى النهار ، ورجالا فى النهار لمعرفة ما يكون فى الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن ، واسىء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ » (١)

***

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير فى داره لهو ولا شىء يشبه اللهو أو اللعب ، أو العبث ، الا مرة ، كان فى مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركى وكان واقفا على راسه أن يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادما من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور، وهن يضحكن ، فعاد حماد وأخبر المنصور فقال : «وأى شىء هو الطنبور؟» فوصفه له فقال : «وما يدريك أنت ما الطنبور؟» فقال : « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجوارى فلما راينه تفرقن خوفا منه ، فأمر بالخادم فضرب راسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه

***

وكان المنصور بخيلا على نفسه باللباس ، كان يرتدى جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بخل الا اذا راى الجود لازما . فربما سأله أحدهم درهما فلا يعطيه ، ويعطى الآخر الفا بلا سؤال.. من امثلة ذلك ان أحد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيرا فسأله المنصور: «ماعيالك؟» قال : «ثلاث بنات والمراة وخادم لهن» فقال له : « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرن فى بيتك ..» ولم يعطه شيئا . ولما توفى عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : «خلف ألف دينار انفقته امراته على مأتمه » فقال : «كم خلف من البنات ؟» قال : « ستا » فاطرق المنصور ثم أمر لكل من البنات بثلاثين ألف دينار وسعى فى تزويجهن . وفرق المنصور فى أهل بيته فى يوم واحد ١٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٢)

---

(١) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦

ولما توفى المنصور خلفه ابنه المهدى ، وكان شبيها بأبيه من عدة وجوه ، ومن جملتها النظر فى دقائق الامور . وفى أيامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة ، وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار (١) وكان يجلس للمظالم بنفسه ، وكان تقيا ورعا ، ولكنه لم يكن فى مثل ما كان عليه أبوه من الاقتصاد . وتولى بعده الهادى زمنا قصيرا ، ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك ، وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة أهل كرم وسخاء ، فزادوا الخلفاء كرما وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صفرهم ، كما فعل يحيى البرمكى مع الرشيد وكان يسايره يوما فقام رجل فقال : «يا أمير المؤمنين عطبت دابتى» فقال الرشيد : «يعطى خمسمائة درهم» فغمزه يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى : «يا أبتاه أومأت الى بشىء وقتما أمرت بالدراهم فما هو؟» فقال : «مثلك لايجرى هذا المقدار على لسانه ، انما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، وعشرة آلاف ألف» ، قال : «فاذا سئلت مثل هذا كيف أقول ؟ » فقال : « تقول : يشترى له دابة ويفعل به فعل نظرائه » (٢)

وكان الرشيد ميالا للجود من فطرته ، فنشطه ذلك حتى صار الى أبعد مما أرادوه ، واضطروا الى ايقافه عند حده (٢) . وأوغل الخلفاء بعد ذلك فى البذخ والاسراف ، وهما من أسباب سقوط دولتهم على ماسيجىء

وجملة القول ان أسباب الثروة العباسية فى عصرها الاول كثرة الدخل وقلة النفقة . وأسباب كثرة الدخل :

١ ــ سعة المملكة
٢ ــ اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم
٣ ــ ثقل الخراج المضروب على الارض
٤ ــ صدق العمال فى ارسالهم المال المجموع الى بغداد

وأسباب قلة النفقة :

١ ــ قلة الموظفين
٢ ــ عدم وجود الدين
٣ ــ اقتصاد الخلفاء الاولين

---

(١) الفخرى ١٦٣ (٢) سير الملوك ٧٨
(٣) الطبرى ١٣٢٢ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

فى عصر الاضمحلال

تمهيد فى اسباب ذلك الاضمحلال

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة : فالدولة العباسية بلغت شبابها فى أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسى الزاهر . ثم أخذت بعدهما فى الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة ، كما بلغت الدولة الاموية فى الشام شبابها فى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الأموية بالاندلس بلغت شبابها فى ايام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور فى أيام السلطان سليمان ، وقس على ذلك . وقد قسم ابن خلدون أيام الدولة الى خمسة أطوار : (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير(١). وهو تقسيم اجمالى ربما لاينطبق على أحوال جميع الدول انطباقا تاما الا بالتأويل. وأما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح. ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية فى عصر الاضمحلال ، أن نذكر أسباب ذلك الاضمحلال مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

العرب والفرس

علمت مما تقدم أن الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصا أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتقاما لأنفسهم من بنى أمية لما كان من تعصبهم للعرب ، واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين. فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم فى ذلك فقربوهم واستخدموهم فى مصالح الدولة ، واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم ، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم فى ارجاع نفوذهم . وبلغ الفرس أرفع المنازل عند العباسيين فى أيام البرامكة ، فزاد حقد العرب عليهم وسعوا فى اسقاطهم رغم ماكان من جود البرامكة وكرم أخلاقهم — ولعلهم كانوا يبالغون فى السخاء دفاعا عن مركزهم . على انهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع فى الملك حتى نكبهم الرشيد ، ومن أشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربيا ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان (٢)

---

(١) ابن خلدون ١٤٧ ج ١ (٢) ابن خلكان ٤١٢ ج ١

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مات الرشيد واختلف ابناه الامين والمأمون على الخلافة ، والامين عربي الابوين لان امه زبيدة حفيدة المنصور . فأخذ اهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب (الحربية) . واما المأمون فأمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته (١) فنصره الخراسانيون كما نصروا اجداده ، وانتهى الخلاف بمقتل الامين وفوز المأمون ، فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء ، وخصوصا لما تولى الحسن بن سهل ، وهو فارسي مجوسي الاصل حديث العهد في الاسلام ، فطعنوا في اسلامه وقالوا : « لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة ، ولكنهم عادوا الى السكينة قهرا (٢) وجاء المأمون الى بغداد واستتب الامر له ولنصرائه ، واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بأن القرآن مخلوق ، فازداد العرب كرها له ولكنهم لم يستطيعوا رده

الاتراك

فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم بالله ، وكانت امه تركية الأصل من بلاد الصغد في تركستان (٣) فشب محبا للاتراك ، وكان قد اصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الامين ، وهي أول مظاهر جراتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم — فلم ير له غنى عن الاعتماد على من ينصره من غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الاتراك والفراغنة ، فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب امه بهم . فاقتنى منهم الوفا اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر اتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفا (٤) فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا وأنزلهم فيها (٦) ، وأطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولاريب انهم كانوا عونا له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلا الى تقهقر الدولة العباسية ، بما كان من مطامعهم في الاموال ، واستئثارهم بالنفوذ ، حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها تحت رحمتهم

وكان المأمون عالما حكيما ، وكل بطانته وجلسائه من أهل الحكمة والعلم ،

---

(١) ابن الاثير ٩٢ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٢٩ ج ٦ (٣) ابن الاثير ٢١٥ ج ٦
(٤) القرماني ١٥٧ (٥) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٢

وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته ـ قال يحيى بن اكثم : ماشيت المأمون يوما من الايام فى بستان مؤنسة بنت المهدى ، فكنت من الجانب الذى يستره من الشمس ، فلما انتهى الى آخره واراد الرجوع أردت أن أدور الى الجانب الذى يستره من الشمس فقال : « لا تفعل ، ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى » فقلت : « يا امير المؤمنين لو قدرت أن أقيك حر النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ » فقال : « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساترا لى من الشمس كما سترته (١)

وقال يحيى بن خالد بن برمك أيضا : « كنت نائما عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ، وانا نائم فينغص على نومى ، فرايته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى انا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار الى فراشه »

وبالغ المأمون فى ملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر : « كنت عند المأمون يوما ، فنادى بالخادم : ياغلام ! فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : ياغلام ! فدخل غلام تركى وهو يقول : « ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام ! الى كم ياغلام ؟ » فنكس المأمون راسه طويلا فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر الى وقال : يا عبد الله ، ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، واذا ساءت اخلاقه حسنت أخلاق خدمه . وانا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا » (٢)

***

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم ، مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . فخلفه المعتصم وكان عاريا من العلم يقرأ قراءة ضعيفة (٣) وكان غضوبا شديد النقمة (٤) منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٥) وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات (٦) فرأى رجال الدولة فرقا بعيدا بينه وبين أخيه ، فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة فى أتراكه ، وفراغنته . وكان مع ذلك على رأى أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن ، فاستخدم العنف والشدة فى تأييده حتى لقد أحضر أحمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه فى القرآن فلم يجب الى القول بخلقه ، فأمر بجلده جلدا عظيما حتى غاب عقله

(١) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ (٢) المستطرف ٦٦ ج ١ (٣) القرمانى ١٥٥
(٤) أبو الفداء ٢٧ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ (٦) الفخرى ٢٠٩

وقطع جلده وحبس مقيدا (١) فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصا العرب وهو لايكترث بذلك ، وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد فى الاسلام وفى التمدن الاسلامى ، لانهم جاءوا من بلاد كانت لا تزال فى عهد الجاهلية ، وكانوا حجر عثرة فى طريق ذلك التمدن ، ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة فى التقهقر من ذلك الحين

المال

وكانت غاية المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الامويون الخلافة احتاجوا الى المال ، فبذلوا كل وسيلة فى سبيل جمعه وقلت الرغبة فى تأييد قواعد الدين ، ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الأمم . فكان مطمح انظارهم « العرب والمال » ، فلما تولى العباسيون اهملوا امر العرب ، واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق ، وانصرفوا فى أيام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن ، واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين فى المدنية قبل الفتح الاسلامى ، وفيهم استعداد فطرى للتمدن فضلا عن ان تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لان مركز الخلافة فيها . فأخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ، ففاضت الأموال فىخزائن الخلفاء ورجال دولتهم فأسرفوا وانغمسوا فىالرخاء والرغد والترف ، حتى بلغوا قمة المجد فى أيام الرشيد والمأمون . فلما كانت أيام المعتصم واستكثر من المماليك الاتراك كما تقدم ، واستخدمهم فى مصالح الدولة ، انحصرت غاية رجال الدولة فىاختزان الاموال لأنفسهم ولو آل ذلك الىخراب البلاد لأنها ليست بلادهم ولا أهلها أهلهم . وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم (٢) وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا ، وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء لاصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند ، والجند يتطلبون الاموال ، والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب ، فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أى أخذ أموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملا الا بالمال

فأصبح المالمحور القوة لحفظكيانالدولة ، وعليه معول الخلفاء فى تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عنحياتهم ، حتى فى داخل قصورهم . وامحت العصبية القرشية التى قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦

(٢) ابن الاثير ٢٠٩ ج ٦

يخالف أباه مصعبا فى أثناء محاربته عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش — وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبد الله فى الخلافة ، فجاءه محمد بن مروان فبذل له الامان اذا سلم فأبى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فأجابه الغلام : « لا تتحدث نساء قريش أنى خذلتك ورغبت بنفسى عنك » فقال له مصعب : « اذهب أنت ومن معك الى عمك فى مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول » فقال الغلام : « لا أخبر عنك قريشا أبدا ، ولكن يا أبت الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أنى فررت » ثم قال لابنه : « تقدم أنى أحتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعا (١)

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر. فلما كانت الدولة العباسية فى ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ، ثم اخذت فى التقهقر بغتة من أيام المعتصم — ويتضح ذلك جليا من مقابلة مجاميع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها أكثرها وهى :

١ — قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦ر١٥٥ر٠٠٠ درهم

٢ — قائمة قدامة من سنة حوالى ٢٢٥ هـ ارتفاعها ٣٥٠ر٢٩١ر٣٨٨ درهما

٣ — قائمة ابن خرداذبة من سنة حوالى ٢٥٠ هـ ارتفاعها ٢٩٩ر٢٥٦ر٣٤٠ درهما

فترى أن ارتفاع الدولة كان فى أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عدا الاموال والغلات . ثم صار فى الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ، ثم صار فى أواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدريج فى النقص الى أواخر أيام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحا فى كل العصور ، لقلة المصادر التى بلغت الينا فى هذا الشأن ، اما لعدم عناية الحكومة فى تدوين الميزانيات المضبوطة أو لضياعها فى أثناء الفتن الاهلية وغيرها

مقدار الجباية فى عصر الاضمحلال

واذا نظرنا فيما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالى الاعوام ، رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على أنهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئا خلفه من يسرف فيضيعه . ومن

---

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٤

أمثالهم المأثورة أن ماجمعه السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد انفقه الامين (سنة ١٩٣ ـ ١٩٨) ، وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق انفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ ـ ٢٤٧) ، وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى انفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)

أما مقدار الجباية فى العام فلم نتوفق الى تفصيل له الا فى أيام المقتدر ، اذ اضطر وزيره على بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز أن يرفع تقريرا بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى اظهرها البارون فون كريمر ، ونشرها فى كتاب سماه جباية الدولة العباسية (١) لسنة ٣٠٦ ، وصدره بمقدمة ألمانية ، ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة ، وما عاناه فى قراءتها ، لانها مكتوبة بخط عربى غير مألوف ، وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفى بذكرها كما قراها هو

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام :

الاول فى جباية السواد وملحقاته

والثانى فى جباية المشرق أى البلاد الواقعة شرقى السواد

والثالث جباية المغرب ، اى البلاد الواقعة غربى السواد

والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

« وهى قائمة على بن عيسى وزير المقتدر ـ كما قرأها فون كريمر »

١ ـ جباية السواد

حرف (أى بيان) عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة

دينار	
١ ٥٤٧ ٧٣٤	أموال السواد وطساسيجه وصدقات اراضى المغرب (أى الغرب) بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجرى معها

(1) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

باذوريا وكلواذى ونهربين (*) ١٦٦ ٢٨٣ درهم

(تفصيلها)	
١٩٨ ٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥ ٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥ ٠٠٠	كونى ونهر درقيط
٩ ٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتاسب
١٦ ٧٣٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣ ٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠ ٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٣٨ ٣٥٠	نهر الملك ومورجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦ ٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠ ١٥٤	طساسجة الكوفة والخزن
٥٠ ٢١٩	العمارات بسر من رأى
٢٠ ٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٣٤ ٣٠٠	بزر جسابور (**)
٢٠ ٠٣٥	الراذابان
١٣ ٦٦٦	روستقباد
٤٦ ٤٨٠	النهروان الاعلى وسمنطاى
٨٥٩ ١٢٥	(المجموع)

(*) كذا فى الاصل بحسب قراءة فون كريمر ، ونظن أن صحتها طسوج النهرين ، فقد ورد طسوج بهذا الاسم بين طساسيج السواد فى الجانب الغربى فى قائمة قدامة بن جعفر . واثبته كذلك بهذا الرسم لى سترينج فى كتابه عن بلاد الخلافة الشرقية

(**) ورد هذا الطسوج فى طساسيج الجانب الشرقى فى قائمة قدامة بن جعفر

٨٥٩ ١٢٥	(مجموع ما قبله)
٤٠٣٢٧	النهروان الاوسط
٦٠٥٣٢	النهروان الاسفل
١٥٩٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقات الراتبة
١٢١٠٩٥	البصرة وكور دجلة
٢٢٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢٧٥٠	أموال الضمانات وما يؤدى عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠٢٥٠	العبارة بهيت
١٦٩٧٥	أسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
١٦٠٠٠	الجوالى بمدينة السلام
١٣٨٧٤	مايؤدى الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١٨٤٦١٨١	(المجموع) (١)

٢ ــ جباية المشرق

١٢٦٠٩٢٢	كور الاهواز ضمانا على ابراهيم بن عبدالله المسبع وغيره
١٦٣٤٥٢٠	أموال فارس مع مايسوغه مؤنس الخادم مع مافى ايدى اصحاب الاطراف مما ورد نفلا (هبة) فقط
٢٥٨٠٤٠	ضياع الامراء بهذه النواحى مع مال المراكب بسيراف
٣٦٤٣٨٠	كرمان مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورح(*) وقرى المفازه وما يسوغه مؤنس الخادم عن مال الخزن والجهبذة (الصيرفة)
٨٠٠٠٠	مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة
٢٥٩٧٨٦٢	(المجموع)

(١) ترى فرقا كبيرا بين هذا المجموع والمجمل المذكور فى اول القائمة لعل سببه خطأ فى قراءة الاعداد فى الاصل ، وسنعتمد على المجمل الاول .

(*) يغلب على ظنى ان فون كريمر قرأ هذا اللفظ قراءة خاطئة . واحسب أنها الوزع بمعنى مصدر الضريبة ، قال ابن خلدون فى المقدمة : « اعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة » . وانظر : دوزى ، ملحق القواميس ٧٦٩/٢

٢٥٩٧٨٦٢	(مجموع ماقبله)	
		ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ١٥٧٠٥٢٥
	٤٦٥٠٧٨	الخراج والاعشار والاخماس بالرى والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد بن على
	١٢٢٦٤٤	الضياع بها
		قزوين وزنجان وأبهر
	١١٥٧١٠	الخراج
	٥٨٢٩٠	الضياع
		قم
	١٩٧٢٢٩	الخراج
	٨٠٢٢٩	الضياع
		اصفهان
	٤١٠١٧٨	الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد وما يفل من الايفار (*) وضياع السلطان
	١٨٩٣٣٤	الضياع بها
		ماه البصرة والايفارين
	١٨٥٦٣٦	الخراج
	٢٦٧٥٢٠	الضياع
		همدان
	١٥٠٤٨٠	الخراج
	٥٥٧٨٩	الضياع
		ماسبذان
	٥٧٧٤٦	الخراج
	١٦٧٥٠	الضياع
٢٣٩٠٢٣٧	١٧٦٢٥	ساوة ودار الضرب بها
٥٩٨٨١٠٠	(المجموع)	

(*) الايفار اقطاع لايدفع عنه صاحبه ضريبة لعامل الخراج ، أو يؤدى خراجه الى الخليفة مباشرة . انظر : دوزى ، ملحق القواميس ٨٢٣/٢

٥٩٨٨١٠٠	مجموع ماقبله	
	١٠٥٦٧٨	ماه الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم
	٨٩٥٠٠	الضياع بها
	٣٠٠١٥	حلوان عن الخراج والضياع
٢٢٥١٩٣		آذربيجان وارمينية على المعارفة التى فورق عليها سبيل السعر
٢٢٦٣٧٠		
٦٤٣٩٦٦٣	(المجموع)	

٣ ــ جباية المغرب (*)

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب وأجناده بعد الاحتسابات التى وضعها (أى خصمها) العمال من أصول الارتفاع كما هو جار فى العادات وسوى مقاطعات وثمن أجناس الفنائم مع ما فورق أهل (جزيرة قبرس) على ادائه فى كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة

يكون
ما يتعلق بالمغرب واجناده
٤ ٧٤٦ ٤٩٢

تفصيله

٢٩٠ ٧٧٣	مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة
١ ٠٨٠ ٠٠٠	وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة وأثمان الفنائم
	جند فلسطين بعد الاحتسابات (**)
٨٠ ٧٥٠	مال
٢٣٠ ٦٤٧	جند الاردن بعد الاحتسابات
٤٠ ٤٦٠	مال
١ ٧٢٢ ٦٠٣	(المجموع)

(*) لايراد بالمغرب هنا بلاد المغرب ، بل المراد مايقع غربى دجلة من ولايات الدولة العباسية وتكتب أيضا الغرب او الجانب الغربى

(**) أظن أن المراد بهذا السطر ان هذا مال مصر والاسكندرية اذا حسبت فيه مصادرة الماذرائيين ومال المرافق ... الخ

١ ٧٢٢ ٦٣٠	(مجموع ما قبله)
١٠٢ ٠٦٢	
١١٣ ٠٥٧	جند دمشق بعد الاحتبابات
٢٠٠ ٤٦٠	مال
١١٥ ١١٤	جند حمص بعد الاحتسابات
١٣٣ ٠٩٧	مال
١٣٣ ٠٦٧	جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات
٣٥٢ ٥٧٠	مال
١٥ ٧٦٥	دلوك ورعبان
٥٢ ٩٨٥	الثغور الشامية سوى صلح (أى ماصالح عليه) احمد بن الحسين الـكاتب
٥ ٣٩٧	شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضـوع (أى بعد الذى وضع منه أى أسقط)
٦٥ ٣٣٢	مال
١٤ ٥٠١	سميساط وملطية بعد الاحتسابات
	مال
٥ ٤٧٨	آمد سوى ماجمع فى اقطاع وكاسه بعد الاحتسابات
٨٢ ٤٢٢	مال
٥٦ ٧٥٠	ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات
٨٢ ٤٢٢	مال
٣٤٦٨ ٦٤٢	(المجموع)

٣ ٤٦٨ ٤٦٢	(مجموع ما قبله)
	ديار مضر
٢٥٧ ٢٢٥	
	ديار ربيعة بعد الاحتسابات
٢٢ ٧٩٧	مال
٣٠٤ ٠٩٣	
	الموصل وماردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات
١٧ ٧٥٠	مال
٤٩٢ ٤٣٠	
٩٦ ٥٨٤	طريق الفرات
٤ ٦٥٩ ٣٤١	(المجموع) (١)

٤ ــ جباية الاموال الخاصة

يكون (*) اموال الاعمال المسماة واموال الخاصة والاموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩ ٠٣٦	الضياع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسط اسوة حال الخاصة
٥١٦ ٤٤٧	اموال الخاصة ماكان منها بنواحي واسط فانه أضيف الى اموال العامة وخلط بها ودخل في حمولها ونفقاتها ١٨٥٤١١ العبر (أملاك الشواطيء أي الاملاك على السواحل) ١١٦١٦٠ الاهوار (المستنقعات) ٧٢٦٢٦ المشرق ١٠٤٠٠٠ المغرب
١٨ ٧٧٨	هيت واعمالها سوى ضياع السكر ٨٢٤٠ العبر ٥٨٤٥٠ المغرب ٥٢٦٢ الاهوار ٦٢٢٠٠ المشرق
٨٢٤ ٢٦١	(المجموع)

---

(١) نرى فرقا بين هذا المجموع والمجموع المذكور في اعلاه ، وسنعتمد على ذلك

(*) اى ان هذه الجباية تضم اموال الاعمال المذكورة واموال الخاصة والاموال الموقوفة

٨٢٤ ٢٦١	(مجموع ما قبله)
١٤٤ ٧٦٠	مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط
	١٤ ٧٣٢ العبر
	١٤ ٢٤٦ الاهوار
	٣٠ ٦٧٢ المشرق
	٧٥ ١١٦ المغرب
٤ ٥٧٠	مال الموقوف للمساجد سوى ماكان منها بواسط
	٢٢ ٨٦٩ المشرق
	١٢ ٧٦٠ المغرب
٦١٧ ١٢٦	مال الضياع الفراتية
	١٧٠ ٢٢٦ العبر
	١٢٩ ٧٢٤ الاهوار
	٩٧ ٣٣٦ فارس
	٩٥ ٢٧٨ المشرق
	١١٤ ٢٢٥ المغرب
١٠٠ ٣١٨	مال الضياع المفردة فى سنة ثلاث وثلاثمائة
٧٦ ٩٨٠	مال الخزن والجهبذة سوى مايجمعه العمال مع أصول الاموال وسوى ماسوغه مؤنس الخادم منها بفارس وسوى مادخل منها فى ضمان واسط
١ ٧٦٨ ٠١٥	(المجموع)

الخلاصة

١ ٥٤٧٧٣٤	جباية السواد
٦ ٤٣٩٦٦٣	جباية المشرق
٤ ٧٤٦٤٩٢	جباية المغرب
١ ٧٦٨٠١٥	جباية الاموال الخاصة
١٤ ٥٠١٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الجباية الى ما كانت عليه فى العصر العباسى الاول

فمجموع هذه الجباية اكثر من ١٤ مليونا ونصف مليون من الدنانير ، واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسى الاول . غير أن الحال فى هذه الجباية غير ماكانت عليه فى ذلك العصر، لان هذا المجموع لم

يف بالنفقات اللازمة للدولة · وكانت النفقات قد تضاعفت لاسباب سيأتى بيانها ، ومن أدلة ذلك ما جاء فى « عنوان السير » (*) عن نفقات الدولة على عهد على بن عيسى ، وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهى :

دينـــار	
٥ر٤٢٦ر٣١٥	نفقات الحرمين وطريقهما
٤٥٦ر٤٩١	نفقات الثغور
٥٦٩ر٥٦	رواتب القضاة فى الممالك
٤٣٩ر٣٤	رواتب ولاة الحسبة والمظالم فى جميع البلاد
٤٠٢ر٧٩	رواتب أصحاب البريد
٥ر٢٩٢ر٩٧٧	

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر فى قائمة المعتضد ــ ناهيك بزيادة الجند وغيره من أسباب النفقة ، بحيث زاد الخرج على الدخل فى أيام على المذكور ٨٩٤ر٠٨٩ر٢ دينارا (١)

وقس على ذلك أحوال بيت المال قبل المقتدر وبعده ، مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال · ولكن يقال بالاجمال ان الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها · والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى فى بيت المال بقية الا فى أحوال قليلة وبمبالغ صغيرة · فالمعتصم ترك فى بيت ماله ٠٠٠ر٠٠٠ر٨ درهم (٢) والمستعين (سنة ٢٥١ هـ) خلف فى بيت المـــال ٠٠٠ر٥٠٠ دينار (٣) ، والمكتفى (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ دينار، والظاهر أنها اجتمعت بتوالى الخلفاء ، فلما تولى المقتدر انفقها كلها ، وانفق ماجمعه فى أيامه من اموال المصادرة فضلا عن الخراج (٤) ، حتى قدروا ما أنفقه ضياعا وتبذيرا بنيف و ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ دينار (٥) ما عدا نفقات الدولة ، واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب (١) ، وبلغ من فقر بيت المال فى أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ

(*) « عنوان السير » هى الترجمة التركية لتاريخ ابن خلدون التى قام بها بيرى زادة « فينا ٨١٧ ـــ ٨٢٠ » واكملها جودت باشا «الاستانة ١٢٨٠هـ» وغيره « انظر بروكلمان، مجلد٢ من اللحق ص ٣٤٣» ولم يرد هذا البيان فى الطبعة العربية للعبر ، مما يدل على ان النسخ التى استعملت فى الترجمة التركية اوفى من النسخ التى طبعت عليها طبعة بولاق فى بعض المواضع

(١) عنوان السير نقله كريمر فى كتاب Einnahmebudget des Abbasiden Reiches.

(٢) الفخرى ٢٠٩ (٣) الطبرى ١٥٤٥ ج ٣ (٤) ابن الاثير ٤ ج ٨ (٥) ابن الاثير ٩٠ ج٨

(٦) صلة تاريخ الطبرى ١٤٤

انه باع ثيابه وانقاض داره ليدفع ٢٠٠٫٠٠٠ درهم ، طلبت منه للجند فى أثناء الفتنة ببغداد (١) . وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت فى ايام الراضى بالله سنة ٣٢٢ هـ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ، ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة (٢)

ولاضمحلال الثروة العباسية اسباب توضح كثيرا مما جاء فى جريدة على بن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨

(٢) الفخرى ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨

أسباب اضمحلال الثروة العباسية

فى العصر العباسى الثانى

قلنا فى بحثنا عن الثروة العباسية فى العصر العباسى الاول وعلة كثرتها : ان أسباب تلك الثروة كثرة الجباية ، وقلة النفقة ، وفصلنا ذلك تفصيلا . فأسباب قلة الثروة يجب أن تكون قلة الجباية ، وكثرة النفقة ، ولكل من هذين البابين فروع ولكل منها أسباب ، هاك تفصيلها :

أسباب قلة الجباية

١ ـ ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية اكبر سعتها فى أيام الرشيد والمأمون ، ثم اخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . وأول ما استقل من الولايات العباسية افريقية ، بدأت بالاستقلال فى أيام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان فى أيام المأمون ، ثم مصر فى أيام المعتمد فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، ثم فارس وما وراء النهر وغيرها . ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسما ، كل منها فى حوزة دولة من دول المسلمين . على أن معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسى رئيسها الدينى وتؤدى اليه أموالا ، بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك . وكان اكثرهم لايؤدى ما عليه الا مرة كل بضعة اعوام . وطبيعى أن تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

٢ ـ تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية فى أيام زهوها ثقل الضرائب ، وخصوصا فى العراق، اذ كانت مقاسمةعلىالنصف الى أيام المأمون. فادرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ، ورأى الثروة فائضة فى بيت ماله ، والاموال متوفرة ، فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين (١) اى انه انقصه عشرين فى المائة وهو اسقاط عظيم ، وقد ظهر فرق ذلك فى ارتفاع جبـاية العراق حالا ، اذ كان فى قائمة قدامة

(١) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبرى ١٠٣٩ ج ٣

٦٥٠ر٤٥٧ر١١٤ درهما فصار فى قائمة ابن خرداذبة ٣٤٠ر٣١٩ر٧٨درهما ، لأن الاول قدره على ما يظهر باعتبار النّصف ، والثانى باعتبار الخمسين

واقتدى بالمأمون فى تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء ، فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ أعشار السفن (١) وقد رأيت أنها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير . واقتدى بالواثق خلفه المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك أن الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج فى النوروز ، وهو يقع عندهم فى الخامس من حزيران (يونيو) ، وكانوا يكبسون فى كل مائة وعشرين سنة شهرا بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة أسقطوا شهرا فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من أيار (مايو) ولا يعيدون النوروز أو يطالبون بالخراج الا بعد شهر أى حتى يأتى الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب فى جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك فى ولاية خالد بن عبد الله القسرى على العراق ، فأراد الفرس أن يسقطوا شهرا على جارى عادتهم فنهاهم خالد وقال : « هذا من النسيء الذى نهى الله عنه » واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك فى ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجارى متقدما شهرا عن الحساب الحقيقى الذى تنضج فيه الغلات ، وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد أن يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك ، فأراد يحيى أن يجيب طلبتهم ، فتقول أعداؤه فى ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالى الاعوام حتى صار فى أيام المتوكل يقع فى نيسان (ابريل) والزرع أخضر . واتفق أن المتوكل مر ببستان فرأى الزرع أخضر ، فقال لرفيق له : « مالى أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج ؟ » فقص عليه السبب ، فأمر أن يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز فى الوقت اللازم . فأصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس (٢) لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحترى فى ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ ـد الذى كان سنه أردشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماما لانه قتل بعد قليل . واضطربت أحوال الخلافة ، حتى اذا كانت أيام المعتضد بالله رجع فى ذلك فأصدر أمره آخر

---

(١) الطبرى ١٣٦٣ ج ٣ (٢) البيرونى ٣١

سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوما ، وكان قد وافق أوائل المحرم سنة ٢٨٢ ، فأمر أن يكون فى ١٣ ربيع أول منها · وجعلوه موافقا ١١ حزيران (يونيو) وأن يكبس بعد ذلك فى كل أربع سنين من سنى الفرس يوم واحد (١) — فعل ذلك ترفيها للناس ورفقا بهم (٢)

وكان المهتدى (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقى من الزرع على المساحة — وذلك أن المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم ابقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة ، وكان ينكسر على أصحابه شيء كل عام والحكومة تطالب به · فلما تولى المهتدى أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن أمثالها ، ومقدار ذلك نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة (٣)

فنرى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه فى عصر الرشيد والمأمون ، وكان ذلك مساعدا على تقليل الجباية (*)

---

(١) المقريزى ٢٧٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٨٦ ج ٧ (٣) الماوردى ٧٧

(*) السبب الرئيسى فى اقدام بعض الخلفاء على اسقاط بعض الاموال هو شعورهم بأن جبايه الاموال لا تجرى على أسس ثابته محكمة ، وأن الذين يقومون بالجباية يعسفون الناس ويزيدون عليهم ، ومن الواضح من مراجعة قوائم الحساب التى سبق ايرادها فى هذا الكتاب أن الاساس الحسابى كله لم يكن سليما ، فهذه الدولة الكبيرة التى كانت تدير أقطارا بأسرها لم يتعد علم رجالها بمسائل الحساب الا تقسيم أموال الدولة كلهـا الى بابين كبيرين : « الاستخراج » اى الدخل ثم « النفقات » وهى المصروفات ، وكانت المصروفات تقسم قسمين : راتبة اى دائمة ، وحادثة أى طارئة ، ولم يكن فيها باب واحد للمرافق العامة أو النفقات العامة كالتعليم واعمال الرى وما الى ذلك . ولم يكن أحد فى الدولة يعرف ماله او ماعليه ، لان الامر خرج عن الاسس الشرعية منذ العصر العباسى ، لان الضرائب التى تنص عليها الشريعة هى الجزية والزكاة وخراج الارض التى افتتحت عنوة ، اما خراج الارض التى يزرعها المسلمون والمكوس والاخماس وماالى ذلك فكلها مستحدثة اجتهد الفقهاء فى تأييدها باسناد من الشرع تقربا الى اصحاب السلطان ، فقالوا مثلا ان المكس على المتاجر يعتبر زكاة ، ويجوز لهذا أخذه بنسبة ١٠ / ، فكانت النتيجة أن التاجر كان يؤدى العشر على نفس التجارة أكثر من مرة فى العام ، كلما دخلت التجارة بلدا أو خرجت من بلد ، مع أن الزكاة لا تؤدى الا مرة واحدة ، وفى ميقات معين . وكان عمال المال والجهابذة يبتكرون كل يوم أسلوبا جديدا لجباية مال جديد ، حتى لم يعد هناك شيء من غير ضريبة الا الهواء كما قال أحد المؤرخين ، فكان لابد من اسقاط بعض هذه الضرائب بين الحين والحين : فقد كانت جباية خراج العراق بنسبة نصف قيمة المحصول اجحافا ، وكان لابد من انقاصها ، فأنقصها المأمون الى الخمسين ، وهى أيضا نسبة عالية ، ومع ذلك فقد فرح بها الناس ، وبعض الشر اهون من بعض ، ومن هذا الباب ايضا ابطال الواثق لاعشار السفن وهى ضريبة غير مشروعة ، ومن هذا ايضا تأخير المتوكل لموعد افتتاح الخراج شهرين ، لانه لم يكن من المعقول أن يطالب الناس بالخراج والزرع لم ينضج بعد فى الحقول ، وهكذا

ولكن الاتجاه العام كان الى الزيادة لا الى النقص ، واليك مثالا واحدا نأخذه من الاصطخرى فى كلامه عن فارس :

ابواب المال :

لبيت المال على الناس والرموم « كذا وصحتها فى الغالب : الزموم اى النواحى » ابواب المال التى تطبق عليها الدواوين من خراج الارضين والزكاة واعشار السفن واخماس المعادن والمراعى والجزية وغلة دار الضرب والمراصد « اى المراكز التى تجمع فيها الجمارك على الحدود » والضياع والمستغلات واثمان الماء وضرائب الملاحات والاجام

« بقية الهامش فى الصفحة التالية »

ومن هـــذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص ، بدخول الناس فى الإسلام بتوالى الاعوام ، حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام فى أواسط القرن الثالث للهجرة ١٣٠،٠٠٠ درهم (١) وقد رأيت فى قائمة على بن عيسى أنهم جبوها ١٦،٠٠٠ دينار ، اى نحو ضعفى ما ذكره ابن خرداذبة ، ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على أوسط قيمتها وهى ٢٤ درهما على الشخص ، كان عدد الرجال نحو ٩،٠٠٠ وباضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لايزيد عددهم على ٤٠،٠٠٠ نفس من أهل الذمة فى مدينة بغداد من النصارى واليهود ، وهى فى ابان مجدها وسكانها يزيدون على المليون . فقس على ذلك سائر المدن

ويقال نحو ذلك ايضا فى الزكاة ، فقد تناقصت بتوالى الاعوام ، حتى كادت تتلاشى ، واصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر (٢) ، وكانت قد ابطلت فى مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الايوبى . وتذمر المسلمون منها ، وشنعوا على الذى يطالب بها ، حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر (٣)

٣ ـ استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال فى عصر بنى أمية ، واستئثارهم بالخراج ، وكيف تحسنت أحوالهم فى عصر العباسيين . غير أن ذلك التحسن لم يدم طويلا ، فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه أنظارهم من

---

(١) ابن خرداذبة ١٢٥ (٢) ابن الاثير ٨٢ ج ٢ (٣) المقريزى ١٠٦ و ١٠٨ ج ١

فاما خراج الارضين فعلى ثلاثة أصناف : على المساحة ، والمقاسمة ، والقوانين التى هى مقاطعات « اى اتفاقات » معروفة لاتزيد ولا تنقص زرع أم لم يزرع

واما المساحة والمقاسمة فان زرع اخذ خراجه وان لم يزرع لم يؤخذ

وعامة فارس مساحة الا الرموم ، فانها مقاطعات الا شيئا يسيرا من المقاسمات

وتختلف الاخرجة فى البلدان على المساحة ، فأثقلهـا بشـيراز وعلى كل صنف من الزرع شىء مقدر

فعلى الجريب الكبير من الارض يزرع فيه الحنطة والشعير السيح مائة وتسعون درهما

والجرجر السيح مائة واثنان وتسعون درهما

« الجرجر هو الترمس او بقل اخر كبير الحب . ويراد هنـا الجـريب من الارض التى يزرع فيها الجرجر »

والرطاب والمقالى السيح للجريب الكبير مائتان وسبعة وثلاثون درهما ونصفا

ومن الجريب الكبير من القطن السيح ٢٥٦ درهما و ٤ دوانيق

وعلى الجريب الكبير من الكرم ١٤٢٥ درهما

والجريب الكبير ثلاثة اجربة وثلثان بالجريب الصغير

(بعده)

طلب الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية ، واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وأن يكن أقل مما يجبى ، وهو الضمان أوالمقاطعة ــ كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على أن يدفع له ١٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم فى العام (١) مع أن ارتفاع جبايتها الحقيقي ٠٠٠ر٥٠٠ر١١ درهم (٢) وضمن البريدى الاهواز على أيام الراضي كل سنة ٠٠٠ر٣٦٠ دينار ، على أن يدفعها أقساطا (٣) وخراجها الحقيقي يزيد على اربعة أضعاف هذا المبلغ ، ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا قليلا مما تعهدوا به . فاذا ألح الخليفة عليهم فى المطالبة اتخذوا الحاجة ذريعة الى

(١) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ (٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٢٦ ج ٢

والجريب الصغير ٦٠ ذراعا فى ٦٠ ذراعا بذراع الملك ، وذراع الملك تسع قبضات

هذا خراج شيراز للسيح

وخراج « جور » على الثلثين من هذا ، لان جعفر بن أبى زهير الشامى كلم الرشيد فرده الى ثلثى الربع

وخراج اصطخر ينقص من خراج شيراز فى الزرع بشيء يسير

هذا خراج السيح

والبخوس « أو النحوس » خراجه على ثلث السيح

والطوى والنضح والمندى على ثلثى الخراج

والسقى ماندى وسقى سقية واحدة فيتبقى الربع من الخراج

واذا ندى وسقى سقيتين فهو السيح ، وقد استتم الخراج

وكورة دارابجرد وارجان وسابور زراعتهم ومقادير الخراج على أراضيهم بخلاف هذا يزيد وينقص

وأما المقاسمة فانها على وجهين :

ضياع فى أيدى قوم من أهل الرموم وغيرهم ، معهم عهود من على بن أبى طالب ومن عمر ابن الخطاب وغيرهما من الخلفاء ، فيقاسمون على العشر والثلث والربع وغير ذلك

والوجه الاخر مقاسمات على قرى صارت لبيت المال ، فيزارع الناس عليها

واما ابواب أموال الضياع ، فان الضياع السلطانية خارجة عن المساحة ، وانما تؤخذ من السلطان بالمقاسمة او المقاطعة ، وعلى الاكرة فيها ضرائب من الدراهم يؤدونها

واما الصدقات واعشار السفن واخماس المعادن والجزية ودار الضرب والمراصد وضرائب الملاحات والاجام واثمان الماء والمراعى فانها تقرب فى الرسم مما فى سائر الامصار . وليس بفارس دار ضرب الا فى شيراز

واما المستغلات فانها تربة « أى أرض » أسواق بشيراز وغير شيراز ، ويؤدون أجرة الارض والطواحين للسلطان واجرة الدور التى يعمل فيها ماء الورد

وكان الرسم القديم بفارس ان كل حومة بفارس لا خراج على الكروم فيها ولا على الاشجار بجميع فارس، الى ان ولى على بن عيسى الوزارة سنة ٣٠٢ هـ فألزمهم فيها كلها الخراج . وبفارس ضياع قد ألجأها أربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق ، فهى تجرى بأسمائهم ، وخفف عنهم الربع ، فهى فى أيدى اهلها بأسماء هؤلاء ، يتبايعونها ويتوارثونها »

الاصطخرى : مسالك الممالك ، ١٥٦ ــ ١٥٨

وقد أتيت بهذه الفقرة على طولها لانها توضح الكثير من المصطلحات الواردة فى هذا البحث

الاستقلال التام ، فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد (*)

٤ ـ اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن ، وانتشبت الحروب بين طوائف الجند ، أو بينهم وبين العمال ، انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم ، وتوقف العمال ، وغلت الاسعار ، وتعطلت الزراعة لضياع الامن ، فقلت الجباية ، واحتاج العمال والقواد الى الاموال ، فظلموا الناس فى تحصيلها منهم فزاد الخراب ـ وما من هادم للعمران كالظلم ، فانه يغل الايدى ويقعد الناس عن السعى ، فينشغل به الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصـــانع عن صناعته ، ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها الا بالرعية · والمشهور ان الظلم اخذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ، ولكنه أعم من ذلك كثيرا · فان كل من أخذ ملك أحد ، أو غصبه فى عمله ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع ، فقد ظلمه · فجباة الاموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ·· فاذا ساد الظلم اقبل الخراب لا محالة ··

ومما زاد البلاء جسامة ، أن اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون ، فى أوائل الدولة العباسية ، من الترع والانهار لرى الارض ، وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب ، لان المحاربين كثيرا ما كانوا يضطرون الى سد الانهار ،

(*) جاء فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لادم ميتز « الترجمة العربيـة ، الطبعة الثانية ، ص ١٨٧ » :

وكان امراء الاطراف فى معظم الاحوال يظهر امرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التىيحكمونها، ولم يظهروا في صورة اصحاب الاقطاعات كما كان الحال فى الامبراطورية الجرمانية المقدسة، وكانوا يتوصلون الي الملك بأن يبتدئوا باحتلال المدن والاقاليم غصبا ، ثم يقاتلوا عليها عسكر الخليفة ، حتى يعترف لهم بالامارة فى مقابل مال يضمنون آداءه ، وكانت أمثال هذه الضمانات التى تؤخذ كرها توفى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة لانواع الضمان الاخرى · ففى سنة ٩٣٤/٣٢٢ فتح عمــاد الدولة بن بويه اقليم فارس وطلبها ضمانا من الخليفة ، على أن ألف دينار ، وهو مايقرب من عشر الدخل الذى كانت تدفعه هذه البلاد منذ ١٠٠ سنة،وفى سنة ٩٣٤/٣٢٢ فتح عماد الدولة بن بويه اقليم فارس وطلبها ضمانا من الخليفة ، على ان يدفع اليه ... ... ١ درهم على حين انها كانت تؤتى من مال الخراج والضياع وحده منذ عام ٩١١/٢٩٩ الى مابعد ذلك بعشرين عاما ... ... ١٨ درهم ، وكذلك كان ضمان عمان فى أوائل القرن الرابع ... ٨٠ دينار ، وكان خراجها تحت الادارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ... ٣٠٠ دينار »

ليمنعوا سفن الاعداء من المرور فيها (١) فضلا عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الرى وضياع الزرع (*)

٥ – تحويل أكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع ، أو ما يعبر عنه المصريون بالابعادية أو العزبة . ويغلب فى الضياع أن تكون لاهل الدولة من الخلفاء أو اقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم أو كتابهم ، أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ ، وقد رايت فى هذا الجزء أن عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع ، لحكمة أرادها من بقائهم على اهبة الرحيل عند الاقتضـــاء ، لايقعدهم الترف أو القصف ، كما نهى عن اختزان المال فى بيت المال . غير ان هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض فى أيام بنى امية ، فاختزن الصحابة الأموال واتخذوا المصانع (أى الدور المبنية) والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين ، وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بنى امية ، فقد اكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصابا من أصحابها وليس من ينصفهم ، لتعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم واعتبارهم ما فتحوه من الارض ملكا حلالا لهم ، فما أرادوا أخذه أخذوه ، وما أرادوا تركه تركوه (٢) حتى افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقتداء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل ، باسترجاع الضياع المغتصبة الى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس ، فســـاء ذلك أهله فعجلوا به وعادت الاحوال بعده الى أشد مما كانت عليه كما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بنى العباس سنة ١٣٢ هـ أعملوا السيف فى بنى امية ، ففروا وتركوا اموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ، ولم يعدوا امتلاكها مخالفا لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازما لحياطة الدولة أو حقا من حقوق الملك ، اذ ليس من أوامر الدين أو نواهيه ما يمنعهم من

---

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨

(*) كان الداء الاكبر فى النظام المالى العباسى – ومعظم الدول الاسلامية فى العصـــور الوسطى – هم القائمون بشئون المال انفسهم ، فقد كانت الغالبية منهم أقرب الى اللصوص وقطاع الطرق والجلادين سواء فى ذممهم او اساليبهم أو خلقهم ، بل كانوا يختارون بنوع خاص من اولئك الذين لا ضمير لهم ، فقد روى الصابى فى كتاب الوزراء « ص ١٢١ ومابعدها» ان ابا الحسن بن الفرات فى وزارته الاولى «٢٩٦/٩٠٨–٢٩٩/٩١١» قال مرة : « اريد رجلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر يطمعنى حق الطاعة ، فأنفذه فى مهم لى .. » وقد كان الجانب الاكبر من الجباية يتسرب الى هؤلاء الناس ، وكانوا يستخرجون من الناس اضعاف ماعليهم ، وكان الناس جميعا يعرفون ذلك ، ومن هنا فقد كان الاتقياء يتحاشون العمل للسلطان ومال السلطان واعوانه على اعتبار أن اموالهم كلها حرام

(٢) المقريزى ٧٧ ج ١ والاغانى ٣٠ ج ١١

ذلك صريحا · والانسان ميال بفطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلا· فالخلفاء العباسيون فى أوائل دولتهم بذلوا الجهد فى انصاف الناس وتأمينهم ، ليبينوا لهم الفرق بين حالهم فى أيام بنى أمية وفى أيامهم ، فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالا ، ولكن بعض الذين دخلوا فى خدمتهم أو انتموا اليهم من الامراء أو الكبراء كانوا يمدون أيديهم الى ضياع الناس · وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم (١) على أن ذلك قلما كان يقلل من مطامع أهل الدولة فى أموال الناس ، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق أو بلا حق ، والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم أو قبضوا أموالهم بعد موتهم · كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة ، وكان مبلغها ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ٠٠٠ر١٠٠ درهم فى اليوم (٢) وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التى سيأتى تفصيلها · فالضياع التى تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة أو الدولة ، فآل ذلك الى استكثار الخلفاء أنفسهم من الضياع

على أن أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة واهله · وهذا طبيعى فى الحكومات الاستبدادية ، وخصوصا اذا كان الحاكم كريم الخلق او ضعيفا تؤثر عليه وساطة اهله ورجال حاشيته · ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس كجائزة عنى قصيدة أو خطاب او نكتة أو غير ذلك · وفى أخبار البرامكة كثير من امثال هذه العطايا · ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون ، فانه كتب ضياعه فى رقاع جعل اسم كل ضيعة فى رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها (٣)

وكان من ابواب اقتناء الضياع عندهم — حتى فى صدر الدولة العباسية — كثرة ما كان من الارض المهملة من عهد بنى أمية · فكان الخليفة يعهد الى بعض أهله أو خاصته فى تعميرها وغرسها ثم تصير له — كما فعل المنصور بابنه صالح اذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة فى الاهواز (٤) ومن احيا ارضا مواتا فهى له

الالجاء

ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء الاهالى

---

(١) الماوردى ٨٧ (٢) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٣) ابو الفداء ٣١ ج ٢
(٤) الفخرى ١٥٧

ضياعهم ومفارسهم الى بعض اقارب الخلفاء أو العمال تعززا بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجىء الى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه ، فلا يجرؤ الجباة على العنف أو الظلم فى اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له ويدون ذلك فى دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالى الاعوام ملكا للملجأ اليه (١) ويصبح صاحبها الاصلى شريكا فى غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث فى كل العصور فى البلاد التى يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم

وقد بدأ الالجاء فى الاسلام فى أيام بنى أمية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ أهل السواد فى ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززا به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت فى أعقابه حتى قامت الدولة العباسية ، فاستولى الخلفاء العباسيون عليها فى جملة ما استولوا عليه من أموال بنى أمية وضياعهم . واقطعت هذه الضياع لداود بن على بن عبد الله بن عباس ، ثم صارت من الضياع السلطانية (٢) وكذلك فعل بعض اهل المراغة فى آذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى ارمينية فانهم الجأوا تلك الضيعة انيه فقبضت فى جملة ما قبض من ضياعهم (٣)

وامتد الالجاء الى أيام بنى العباس بالاستمرار فألجأ أهل زنجان ضياعهم انى القاسم بن الرشيد تقربا اليه ودفعا لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاشرية (أى كتبوا له صكوكا ببيعها له) وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية (٤) . وحدث نحو ذلك ايضا فى فارس ، فقد كانت فيها ضياع الجأها اربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق وظلت تجرى بأسمائهم فخفف عنهم الربع وبقيت أجيالا وهى فى أيدى أهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها (٥) واصبح أهلها مزارعين لهم

ولم ينقض عصر الازدهار العباسى حتى اصبح فى حوزة الخلفاء واقاربهم ورجال دولتهم ما لايحصى عدده من الضياع ، واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه «ديوان الضياع» وهو غير ديوان الخراج. وقد رايت مقدار خراج الضياع فيما دونه على بن عيسى فى جريدة سنة ٣٠٦ هـ وكلها فى بلاد المشرق فى الرى ودماوند وقزوين وزنجان وقم واصبهان وهمذان وماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع فى بعض الممالك يزيد على خراج الارض الاخرى . فخراج الضياع فى ماه البصرة والايغارين

(١) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج١ (٢) قدامة ٢٤١ (٣) ابن الفقيه ٢٨٤
(٤) ابن الفقيه ٢٨٢ (٥) الاصطخرى ١٥٨

مثلا ٢٦٧ر٥٢٠ دينارا ، وخراج سائر الارض هناك ١٨٥ر٦٣٦ دينارا . ولو عوملت الضياع فى مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الارض الاخرى لزاد خراجها أضعاف ذلك . لان خراج تلك الضياع كان خفيفا جدا بالنظر الى غيره ، وكثيرا ما كان يترك ولا يطالب به أعواما على مقتضى أحوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء ، وربما تراكم الخراج عدة اعوام حتى تتغير السياسة ويأتى من يطالب به (١)

الضياع السلطانية

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهى ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهـــذه أقسام سميت بأسماء تدل على انواعها وهى :

(١) الضياع الخاصة : وهى ما يملكه الخليفة نفسه لايشاركه فيه احد . وقد رأيت خراج هذه الضياع فى جريدة على بن عيسى – غير ما كان منها فى نواحى واسط لانه أضيف الى أموال العامة – ٥١٦ر٤٤٧ دينارا

(٢) الضياع العباسية : وهى فى الغالب لبنى العباس أهل الخليفة ، وقد بلغ عددهم فى أيام المأمون ٣٣ر٠٠٠ نفس (٢) وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ، ١٤٤ر٧٦٠ دينارا سوى ما هو منها فى واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها فى تلك السنة٢٨٩ر٠٣٦دينارا

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لانها واقعة على ضفاف الفرات ، وخراجها لذلك العام ٦١٧ر١٢٦ دينارا

وكانت هذه الضـــياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواســـط والاهواز واصبهان (٣) يضمنونها احيانا بأموال معينة فى العـــام (٤) ولها دواوين وكتاب وعمال

فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الارض ، لان الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم (٥) وقد يتركونها لهم ، ومع ذلك فقد رأيت خراج الضـــياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها فى واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر أن ذلك طبيعى فى الدولة المطلقة فى تلك العصور فقد ذكرنا فى هذا الكتاب ان جباية الدولة العثمانية بلغت فى أيام السلطان

---

(١) ابن الاثير ١٨٢ ج ٧ (٢) ابو الفداء ٢٤ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٤٣ ج ٨
(٤) ابن الاثير ٦٨ ج ٨ (٥) Ein. Abb. 80.

سليمان ٨,٠٠٠,٠٠٠ دوكات منها ٥,٠٠٠,٠٠٠ من الضيـــاع السلطانية وحدها (١)

الايغار

وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه « ايغار » ، ومعناه فى الاصل « استيفاء » فيقولون : « أوغر العامل الخراج أى استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الارض مرة واحدة ولذلك قالوا : « أوغر الملك الرجل الارض » جعلها له من غير خراج ، أو هو أن يؤدى الخراج الى السلطان الاكبر فرارا من العمـــال ويسمى ضمان الخراج ايغارا (٢) فكان أصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا · ومن الايغارات المشهورة فى الدولة العباسية « ايغار يقطين » وأصلها أن رجلا اسمه يقطين ، أوغرت له ضياع من عدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين (٣)

اسباب كثرة النفقات

١ ــ اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعية فى العمران اذا كثرت الاموال فى الدول أن يسخو الملوك فى بذلها ، وخصوصا فى الدول المطلقـــة وعلى الاخص فى الدولة العباسية ، والخليفة مطلق التصرف فى بيت المال (٤) ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنتهم غير استرضاء الاحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب ، والاول أسلم عاقبة وأقرب منالا اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصا فى عصر الرشيد والمأمون · فلا غرو اذا رأيناهما يبذلان الاموال فى استكفاف الاذى عن الدولة ، أو سد أفواه أهل الفتن · لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة (٥) وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وانشأوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف ، والتأنق فى الطعام واللباس والرياش. وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيـــل الفتح الاسلامى (٦) واطلقوا أيدى نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم فى الاموال (*)

---

(١) Porters' Const. His. of Turkey M.S

والدوكة عملة ذهبية من عملات البندقية Ducato نسبة الى الدوج وهو حاكم البندقية ، وهو لفظ محرف عن -Du ، وكانت البندقية فى تلك العصور هى مصدر النقود الذهبية الصحيحة ، ولازال « العيار البندقى » فى وزن الذهب مستعملا عندنا الى الآن (٢) محيط المحيط (٣) قدامة ٢٤١ (٤) الماوردى ٢٠٣ (٥) اعلام الناس ٩٨ (٦) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢

(*) كان للخلفاء مال خاص يأتى من جهات معينة ، يحفظ فى بيت خاص يعرف ببيت مال الخاصة ، وموارد بيت مال الخاصة هى :

لم يتزوج السفاح الا امرأة واحدة (١) · وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى ألا يشرك النساء فى أمره (٢) ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الامر والنهى فى أيام الهادى وايامه وكان وزيره يحيى أبن خالد بن برمك تحت أمرها (٣) فأفضى نفوذها الى حشـــد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها فى العام ٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٠ درهم (٤) وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد · وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لا تزيد على ثلثى هذا المال · فقد ذكروا أن ايراد روكفلر الغنى الامريكى الشهير نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر١٠ دينار · وقد بينا فى غير هذا المكان أن قيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة روكفلر نحو ثلثى غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شـــديدة الوطأة رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها دست اليه من قتله (٥) ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضياعها (٦)

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلا غرابة فى اقتنائها

---

١ ــ الاموال التى يخلفها الخلفاء لابنائهم . وقد خلف الرشيد لابنائه أكبر تركة تركها خليفة لاولاده ، ترك ٤٨ مليون دينار . وكان المعتضد يقتصد من ماله الخاص كل عام مليون دينار ، حتى أجتمع له تسعة ملايين ، « ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج فى تلك السنة ، واراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ اصحاب الاطراف ان له ١٠ آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ هذه الامنية »

٢ ــ مال الخراج والضياع العامة الذى يرتفع من أعمال فارس وكرمان « بعداسقاطالنفقات» وبلغ مقدار ذلك فى كل سنة « منذ عام ٩١١/٢٩٩ الى ٩٣٢/٣٢٠ » ٢٣ مليون درهممنها٤ملايين كانت تحمل آلى بيت مال العامة ، والباقى وهو ١٩ مليون درهم الى بيت مال الخاصة . وتسقط من ذلك النفقات الطارئة كما حدث عام ٩١٥/٣٠٣ عندما انفق الخليفة فىاستخلاص فارس وكرمان من ايدى الثوار ٧ مليون درهم

٣ ــ اموال مصر والشام . وكانت جزية اهل الذمة مثلا تحمل الى بيت مال الخليفة باعتباره امير المؤمنين ، لا الى بيت مال العامة . وهذا مايجب للخليفة نظريا

٤ ــ المال الذى يتحصل من مصادرة أموال الوزراء والكتاب والعمال المعزولين ، ومايحصل من ارتفاع ضياعهم ، والمال الذى يتحصل من التركات

٥ ــ ماكان يحمل الى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والاهواز والمشرق والمغرب

٦ ــ ما يستفضله «يدخره» الخلفاء ، فكان المعتضد والمكتفى يستفضلان فىالسنةمليوندينار، وكان سبيل المقتدر ان يستفضل مثلهما ، فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة ٢٥مليوندينار، اى نحوا من نصف ماخلفه الرشيد . ولكن المقتدر أتلف كل هذه الاموال الطائلة حتى لم يبق فى بيت مال الخاصة بعد ما انفق فى محاربة القرمطى عام ٩٢٧/٣١٥ الا ٠٠٠ ٥٠٠ دينـــار

اى أن المقتدر انفق على نفســه فى أقل من عشرين سنة خمسة وعشرين مليونا من الدنانير

انظر : آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ١٧٣ــ١٧٥

(١) اعلام الناس ٤٥ (٢) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٣) ابن الاثير ٤٠ ج ٦
(٤) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٦) سير الملوك ٨٥

الاموال فى ابان الثروة العباسية ، انما الغرابة فى اقتناء امهات الخلفاء الاموال الكثيرة فى عصر الاضمحلال وبيت المال فارغ · فان « قبيحة » أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز ونحوها نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار نقدا ومالا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠٫٠٠٠ دينار (١)

***

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) فى العام تنفقها فى جواريها وهى نحو غلة الخيزران · وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠٫٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ، ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله (٣) وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام · فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند ، بما يتاح لهن من اطلاق الايدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد أتامش وشاهك الخادم فى بيوت الاموال وأباحهم فعل ما ارادوا · فكانت الاموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (٤)

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد · وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور واجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر(٥) · أو اذا قيل لك أن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درا فباعه بعشرين ألف دينار (٦) أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء (٧)

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات ، اللواتى كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه (٨) فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة — كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة (٩) ولم يكن لاولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا ما فى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم

(١) الطبرى ١٧١٩ ج ٣ — (٢) المستطرف ١٣٤ ج ١ — (٣) ابن الاثير ٧ ج ٧
(٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧ — (٥) الطبرى ١٧٢٠ ج ٣ — (٦) ابن خلكان ١٩٩ ج ١
(٧) المستطرف ٤٦ ج ٢ — (٨) ابن الاثير ٤٧ ج ٨ — (٩) ابن الاثير ٢٤ ج ٨

وقد رأيت فيما ذكرناه من مناقب المنصور انه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله · لكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى اصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو — قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية (*) فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضحكين كالشيخ ابى الحسن الخليع الدمشقى (١) وابن أبى مريم المدنى (٢) وغيرهما · وما من جارية الا وثمنها ألف دينار أو عشرة آلاف دينار (٣) الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كالالبسة والحلى وهى شىء كثير · فقد اشترى الرشيد خاتما بمئة ألف دينار (٤) وقس على ذلك

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١٠٠٠ خصى من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياش · فقد بنى المعز دارا فى بغداد انفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم (٦) وبنى الامين قصورا فى الخيزرانية انفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الاسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس انفق عليها مالا عظيما وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا ... سار فى الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس اذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما ... استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن ايراده مثالا على بذخهم أن الامين امر يوما أن يفرش له على دكان فى الخلد ، ففرش عليها بساط ذرعى ونمارق وفرش مثله وهيىء

(*) الجنكية هى الراقصة . وكان الغالب أن تكون الجنكيات من اليهود أو الارمن أو الاتراك او اليونان . والعودية ضاربة العود ، والدفية ضاربة الدف ، والقانونية عازفة القانون ، والسنطيرية هى العازفة على آلة تسمى السنطير او السنتير وهى تشبه القانون ولكن أوتارها من الجهتين ، وكان يعزف عليها وهى قائمة بكلتا اليدين

(١) اعلام الناس ٩٧ (٢) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ١٢٦ (٤) ابن الاثير ٤٤ج٦ (٥) الفخرى ٢٣٤ (٦) ابن الاثير ٢١١ ج ٨ (٧) ابن الاثير ١١٢ ج ٦

من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم · وأمر قيمة جواريه أن تهيىء له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد (١) ففعلت · وسنأتى على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم فى الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

السخاء

على أن الاسراف كان أكثره فيما يبذلونه كرما وسخاء ، ومنه ما ينفق يوميا فرضا واجبا · فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته (٢) وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم (٣) فاعتبر مقدار ذلك فى السنة فيزيد على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم · وليس هذا بالشيء الذى يذكر بجانب ماكانوا يهبونه من الجوائز ونحوها · فقد فرق المنصور فى يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم على أهل بيته (٤) وفرق المأمون فى يوم واحد ١٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص (٥) · وقد رأيت فى هذا الكتاب أنه فرق ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ورجله فى الركاب · وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم · وتصدق المعتصم فى أثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٦) وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعا ما خلا الأرزاق ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٧) — فضلا عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم ، وربما بلغت جائزة الشاعر مائة ألف درهم · وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر · وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر انه نظم قصيدة مدح فيها المهدى وحلف أنه لا يأخذ قيمتها الا مائة ألف ألف درهم (١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) فأعطاه اياها — وفى ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء (٨) وكثيرا ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلا عن الاموال (٩)

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وأمثاله يحسبه اهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من القواعد الاقتصادية · على اننا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مقدار الثروة العباسية ، ومقدار ماكان يبقى من الاموال تحت تصرف الخلفاء ، أو من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب — الا اذا شككنا فى حقيقة تلك الثروة وهو شك فى التاريخ على اجماله · لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت · ثم اننا اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية فى تلك الايام على ما سنفصله فى

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ — (٢) الطبرى ٧٤٠ ج ٣ — (٣) الفخرى ٢٠٧
(٤) ابن الاثير ١٣ ج ٦ — (٥) ابن الاثير ١٦٧ ج ٦ — (٦) الطبرى ١٣٢٩ ج ٣
(٧) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ — (٨) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ — (٩) الطبرى ١٤٦٨ ج ٢

الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم فى مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى · على اننا نعرف بين أغنيائنا اليوم من يبذل ٥٠٫٠٠٠ جنيه و ١٠٠٫٠٠٠ جنيه ثمن صورة او قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر· وقرانا بالامس أن مورجان الامريكى الشهير اشترى صورا بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم أيضا من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل · مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدى وهو ولى عهد ، قال : قدمت على المهدى فى الرى وهو ولى عهد فأمر لى بعشرين ألف درهم لابيات امتدحته بها ، فكتب اليه المنصور (ابوه) يعذله ويلومه ويقول له : « انما كان ينبغى لك ان تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » — الى أن قال — وبعث المنصور يستقدمنى اليه حتى جئت ودخلت عليه فقال : « هيه ! اتيت غلاما غرا فخدعته ·· » فقلت : « نعم أصلح الله أمير المؤمنين·· اتيت غلاما غرا كريما خدعته فانخدع» فقال المنصور : « انشدنى ما قلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر القصيدة) ومطلعها :

هو المهـــدى الا أن فيه ... مشابه صورة القمر المنير

فقال : « والله لقد احسنت ، ولكن هذا لايساوى عشرين الف درهم » وقال « أين المال ؟ » قلت : « ها هو ذا » قال : « ياربيع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقى » فخرج الربيع فحط ثقلى ووزن لى أربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقى (١) · فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعراء بآلاف الدراهم

هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقى علينا النظر فيما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها ، هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة أم من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولا صريحا · على أن سكوت المؤرخين عنه يرجح انهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال — ولاجناح فيه عليهم — لأن الامام هو ولى بيت المال ينفقه فيما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده ، وقد يرى فى اجازة الشاعر او هبة العالم فائدة للدولة

على اننا رأينا ذكرا لبيت مال الخاصة فى ايام الهادى ، ويظهر من سياق بعض الحوادث التى وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا أمروا لشاعر أو غيره بمال انما يريدون أن يدفع له من بيت مال المسلمين ، وان الوزراء كثيرا ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون امر الخليفة فى

(١) الطبرى ٤٠٦ ج ٣

الصرف ، كما وقع لعيسى بن داب مع الهادى ـ وذلك أن عيسى المذكور كان من أكثر أهل الحجاز أدبا وأعذبهم ألفاظا ، وكان قد حظى عند الهادى حظوة لم تكن لاحد قبله ، فأمر له مرة بثلاثين ألف دينار فى دفعة واحدة . فلما أصبح ابن داب أرسل قهرمانه الى الحاجب فى قبضها فقال الحاجب : « هذا ليس الى فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن دأب فأخبره فقال : « اتركها » فبينما الهادى فى مستشرف له ببغداد رأى ابن دأب وليس معه الا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادى : « أرى ثوبك غسيلا وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال : « باعى قصير » فقال : « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك ؟ » فقال : « ما وصل الى » فدعا الهادى صاحب بيت مال الخاصة فقال : «عجل الساعة بثلاثين ألف دينار» فأحضرت وحملت بين يديه (١) ـ فيظهر من سياق هذه الحكاية أن الخليفة أراد أن يدفع اليه المال من بيت المال العام ، فلما لم يدفعوا له أمر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خاقان ، اذ أمره الرشيد أن يدفع ثمن جارية ١٠٠,٠٠٠ دينار ، فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه ، فغضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لامصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم فوضعها فى الرواق الذى يمر به الرشيد اذا أراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك اسرافه ولكنه شعر بما فى ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه فحفظ ذلك فى نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة (٢)

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات فى ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل (٣)

وفى كتاب أبى سفيان الثورى الى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به الى بغداد ما يشبه كلام أبى ذر الغفارى لمعاوية ، ويدل على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه فى الكوفة ، واخبره أن الناس قدموا اليه ، وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه ابوسفيان بكتاب شديد اللهجة وفى جملة ذلك قوله : « أما بعد فانى كتبت اليك أعلمك انى صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته فى غير حقه وأنفذته بغير حكمه .

(١) ابن الاثير ٤٣ ج ٦ وطبعت المطبعة المنيرية ٦/٨١ ـ ٨٢ (٢) الطبرى ١٣٢٢ ج ٣
(٣) ابن الاثير ١٣ ج ٧

ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك . فأما أنا فانى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك ، وسنؤدى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم والعدل . يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الايتام والارامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك .. ؟ » (١)

فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويدخون ويسرفون من بيت المال (*)

٢ ــ تكاثر ابواب النفقة فى الدولة

بينا فى الجزء الاول من هذا الكتاب كيف تدرجت الدولة الاسلامية فى ادارتها منذ كان النبى (صلعم) هو الامير والقاضى والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة فى أيام الراشدين ستة ، وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة فى أيام بنى أمية فبنىالعباس. وكانت تلك الادارات تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف

---

(١) الدميرى ١٨٨ ج ٢

(*) سبق أن ذكرنا بيت مال الخاصة والموارد التى كان يستقى منها ، وهى موارد كثيرة جعلته فى معظم الاحيان أوفر من بيت مال العامة . ومن القواعد المقررة ان الدولة الاسلامية ملك للمسلمين ، فلا ينفق شىء من بيت المال العام الا فى صالح الجماعة الاسلامية، ويتبين ذلك من سيرة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وكانا يفصلان فصلا تاما بين مالهما ومال المسلمين . ولكن لما كان المالان تحت تصرف رجل واحد ، هو الخليفة ، فاننا لا نلحظ ابتداء من العصر الاموى فاصلا بين الاثنين ، فكان بنو أمية ينفقون ، ولكننا لا ندرى من أى المصدرين ، وابتداء من العصر العباسى نلاحظ عناية الخلفاء ببيت مال الخاصة وميلهم الى ادخار أموالهم والانفاق من بيت مال المسلمين ، كما رايت فى الامثلة التى أوردها المؤلف . وقد استمر ذلك الى نهاية عصر المأمون حيث نجد بيت مال الخاصة أغنى بكثير من بيت مال المسلمين . ولكن عندما اضطربت الامور وانحطت جبايات النواحى أصبح من المتعين على الخلفاء أن يمدوا بيت مال العامة من مالهم الخاص حتى لا تفلس الدولة ، وقد أشار الى ذلك ابن جبير الرحالة الاندلسى (أنظر ص ٣٥ ــ ٣٦ طبعة رايت) ومن الثابت أن على بن عيسى كان لا يتردد فى طلب امداد من مال الخليفة الخاص لينفقها فى شئون الدولة ، فعل ذلك مع المعتضد والمكتفى . وكان الخلفاء يفعلون ذلك وهم كارهون ، ولهذا اجتهد الوزراء فى تحاشى الطلب من بيت المال الخاص . وفى عهد الخليفة المقتدر (٩٠٧/٢٩٥ ــ ٩٣٢/٣٢٠) استنزف بيت مال الخاصة ، اذ أخذ الوزراء منه مبالغ كبيرة على أن ترد عندما يتحسن الحال ، ولم يتحسن الحال طبعا . وقد حاول المقتدر بعد ذلك أن يدعم بيت ماله فعهد فى الوزارة الى رجل زعم انه يجمع من المال ما يكفى لنفقات الدولة ويؤدى لبيت مال الخاصة علاوة على ذلك مليون دينار ، ثم اتضح أن الرجل موه الحساب فعزل بعد شهور . وفى هذه العصور نشهد صراعا حقيقيا بين الخلفاء ووزرائهم : الوزراء يريدون أن يستعينوا بما فى بيت المال الخاص والخلفاء يرفضون ، وقد يخضعون ويخرجون الشىء اليسير من مالهم بعد التهديد

وكان على الخليفة بصفته أمير المؤمنين أن يقوم بنفقات موسم الحج ونفقات الصوائف (أى الغزوات الصيفية) وفداء أسرى المسلمين والقيام بنفقات الرسل والسفراء الواردين . أما العطايا ونفقات دار الخلافة فكانت تؤخذ عادة من بيت مال المسلمين

انظر : آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ١/١٧٢ ــ ٧٣

والرخاء ، فأصبحت فى أيام الرشيد أكثر منها فى أيام المنصور ، وفى أيام المأمون أكثر منها فى أيام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها فى أيام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت فى جريدة المعتضد من أصناف المرتزقين فى بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك وأصحاب المطابخ والجلساء وأصحاب الركاب ، ما لم يكن له ذكر فى صـــدر الدولة العباسية . وقس عليهم أصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء ، مما لا يقع تحت الحصر ، وكله قد اقتضاه الترف فى حضارة الدولة

وزد على ذلك أن بعض النفقات كانت تصرف أول الامر من غير بيت المال ، فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لاسبيل الى معرفتها ، اذ لم يرد نص صريح بشأنها ، وان كنا نستدل عليها ضمنا من نصوص كثيرة ــ مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات فى أيام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة على بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد فى هذه نفقات لا ذكر لها فى تلك ، مثل نفقات الحرمين ، ورواتب القضاة فى الممالك ، وولاة الحسبة ، وأصحاب البريد فى جميع البلاد ونفقات الثغور. فان هذه الابواب غير واردة فى تلك لان العمال كانوا يقومون بها من خراج أعمالهم كما أشرنا الى ذلك ، فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها

وقد تقدم فى الجزء الاول أن ارتفاع الثغور كان ينفق فى مصالحها فلا يرد منه شىء الى بيت المال ، على أنهم كثيرا ما كانوا يحصلون منها على الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها فى صدر الدولة العباسية (١) أما فى أيام الاضمحلال فقلت الغزوات ، وبطلت الغنائم ، وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور ، وزادت عما كانت عليه فى صدر الدولة حتى بلغت فى أيام المقتدر نحو ٥٠٠ر٠٠٠ دينار ، وكانت قبله ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، وهو مقدار ارتفاعها الذى ينفق فى مصالحها (٢) ــ ناهيك بما حدث من نفقات الجند وغيره

٣ ــ زيادة الضرائب

ولم تقتصر زيادة النفقات على نشوء ادارات لم تكن من قبل ، ولكن الادارات القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه فى أوائل الدولة . وطبيعى أنه اذا كثرت ثروة الدولة وسعت على رجالها وزادت رواتبهم وما يجرى لهم من الأرزاق فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على أساس ضعيف لا تلبث أن تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هى ، فيقصر بيت المـــال فى تأديتها فيضطروا الى فرض الضرائب الفادحة واستخدام العنف فى تحصيلها ، فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقرا

(١) ابن الاثير ٢٧ ج ٦ (٢) قدامة ٢٥٣

كان المسلمون فى أيام النبى (صلعم) وأبى بكر يرتزقون مما يقع فى أيديهم من الغنائم ، فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم ، حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتبا معينا فى السنة وميزهم باعتبار أنسابهم وقرابتهم من النبى ، أو سابقتهم فى الاسلام وليس باعتبار مايؤدونه من الاعمال ، فقد يكون أحدهم كاتبا أو عاملا أو قاضيا على السواء · فلما تفرعت ادارات الدولة وتميزت لم يروا بدا من تعيين الرواتب باعتبار المناصب ، فجعلوا لكل من الجندى والعامل والكاتب والحاجب والقاضى وغيرهم راتبا معينا · ولما حدثت الوزارة فى الدولة العباسية جعلوا لها راتبا كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة · واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصور ، فلننظر فى تاريخ اشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه

رواتب العمال

كان راتب العامل فى أيام عمر ٦٠٠ درهم فى الشهر (١) ثم اختلف باختلاف العمال والاعمال ، فقد جعل عمر لمعاوية على الشام ألف دينار فى السنة (٢) ولما أفضى الامر الى بنى امية اصبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من أطماع العمال بنصرتهم أو التوسيع لهم فى النفقة لحرب الخوارج أو العلويين أو غير ذلك · فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئا ، بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها — على أن ذلك كان خاصا بالعمال الكبار ، كعامل العراقين ، أو مصر ، أو خراسان ، وقد بلغ راتب يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أيامهم ٦٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (٣) ، وبلغت غلة خالد القسرى ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٤) ، وليس هذا الاخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم فى أعمالهم ، كما كان يفعل الحجاج فى العراق ، وعمرو بن العاص بمصر · فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لاتزيد على ٣٠٠ درهم فى الشهر(٥) ، وظلت على نحو ذلك فى صدر الدولة العباسية الى أيام المأمون ، فزادها وزيره الفضل بن سهل فى جملة ما زاده من الرواتب على اثر ماكان من تكاثر الثروة مع رغبة الخليفة فى ارضاء نصرائه من اهل خراسان · أما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال ، لان العمل قد يقتصر على ولاية صغيرة أو يعقد له على عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته ، وباعتبار رضى الخليفة

(١) سراج الملوك ٢٧٧ (٢) المقريزى ٩٥ ج١ (٣) ابن خلكان ج٢
(٤) ابن خلدون ٩٦ ج٣ (٥) الطبرى ٤٣٤ ج٣

عن عامله ونحو ذلك · فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همذان الى التبت طولا ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضا ، ويدخل فى ذلك كل ما وراء العراق شرقا الى الهند وجعل له عمالة قدرها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين وأعطاه علما وسماه ذا الرياستين : (١) السيف والقلم ، ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رياسة الحرب» ، ومن الجانب الآخر «رياسة التدبير» (٢) فعل المأمون ذلك له لما كان من نصرته اياه فى خلافه مع أخيه الامين ، فلا يقاس به العمال الذين كانوا يتولون الاعمال الصغرى ، ومنهم بضعة عشر عاملا تحت راية الفضل بن سهل فى المشرق · وعمالة هؤلاء تختلف أيضا باختلاف الولايات ، ويظهر أنها كانت تتراوح بين ٣٠٠ و١٠٠٠ درهم قياسا على ماذكره ابن حوقل من رواتبهم فى أيام منصور بن نوح (٣)

وأما عمال الولايات الكبرى التى كانت علاقتها رأسا مع الخليفة ، فقد كانت رواتبهم كبيرة جدا كما رأيت من راتب الفضل بن سهل · وكانت عمالة الحسين بن على الماذرانى على مصر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينار فى الشهر (٤) أو ٦٠٫٠٠٠ درهم ومقدار ذلك فى السنة ٧٢٠٫٠٠٠ درهم ، وقس على ذلك

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها فاحشة جدا · لان الولايات فى الدولة العثمانية ثلاث درجات : الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، والثانية ٢٠٠ ، والثالثة ١٥٠ ، وراتب عامل انجلترا على الهند (نائب الملك فى الهند) ٢٠٨٣٣ روبية فى الشهر(٥) أى نحو ٢١٫٨٧٥ جنيه (*) فى السنة وهو أعظم رواتب العمال فى هذا العهد · ومع ذلك فانه أقل من راتب الماذرانى المتقدم ذكره — ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتاب الى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار ، لايزيد مقدارها فى الشهر على ٣٠٠ درهم ، فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلك الزيادة · ولكن بالقياس الى غيرها يجب أن تكون كثيرة ، فضلا عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية (**)

(١) ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ (٢) الطبرى ٨٤١ ج ٣ (٣) ابن حوقل ٣٤٢
(٤) Ein Abb. 80 (٥) ويتكر ٤٦٦

(*) أوردها المؤلف بالفرنكات ٥٠٠٠٠٠ فرنك ، فحولناها الى جنيهات على أساس ان قيمة الفرنك الفرنسى اذ ذاك كانت ٤٫٣٧٥ قرشا

(**) الاخرجة جمع خراج ، وهو يعنى هنا ما كان هؤلاء الموظفون يتقاضونه من الاشياء العينية الى جانب مرتباتهم المالية ، وقد عرفت الاخرجة فيما بعد باسم الجرايات

وقد عدد المقريزى ما كان يستولى عليه كاتب من كتاب مصر على عهد الدولة الفاطمية فى اليوم الواحد ، من البقولات والتوابل والحلويات والاثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ، ومن الالبسة والافرشة وما كان يجرى من ذلك كله على أولاده وأهله ، فاستغرق تعداده نحو صفحتين أو ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب ــ فاكتفينا بالاشارة اليه تفاديا من التطويل ، ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك (١)

رواتب الوزراء

الوزارة من محدثات الدولة العباسية ، وأول من اشتهر من وزرائها البرامكة ، ولم نقف على مقادير رواتبهم ، والظاهر أنها كانت كبيرة ، فضلا عن اطلاق أيديهم فى بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على أننا قد رأينا فى قائمة النفقات فى أيام المعتضد أن راتب الوزير ٣٣ ١/٣ دينار فى اليوم أو ألف دينار فى الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب فى هذه الأيام زاد هذا الراتب على ١٫٥٠٠ جنيه ــ وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير فى الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، الا الصدر الاعظم فان راتبه ألف ليرة . والوزير المصرى راتبه ٢٥٠ جنيها فى الشهر . ورواتب أكبر وزراء انجلترا ٢٠٠٠ جنيه فى العام (٢) (*)

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصور والدول ــ كان راتب الوزير على أيام الناصر الاندلسى ٨٠٫٠٠٠ دينـــار فى السنة غير الهدايا (**) (٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفى فى أواسط القرن السادس للهجرة ١٠٫٠٠٠ دينار فى السنة (٤) وكان للوزراء ، فضلا عن رواتبهم المشار اليها ، رواتب لاولادهم واخوتهم وخدمهم وأتباعهم وأرزاق، ووظائف كثيرة ، وخاصة فى مصر . فقدكان راتب الوزير فى الدولة الفاطمية ٥٫٠٠٠ دينار فى الشهر ، ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار، ثم

(١) المقريزى ٣٩٩ ج ١ (٢) ويتكر ١٧٠

(*) جاء فى كتاب الوزراء للصابى ص ٢٨٢ و ٣٥١ أن مرتب الوزير حدد فى القرن الرابع الهجرى بخمسة آلاف دينار فى الشهر ، ثم زيدت الى سبعة آلاف ، وكان يعطى لكل من أولاده خمسمائة دينار فى الشهر

(٣) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

(**) و ج ١ ص٣٣٢ (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٤٩) ونص المقريزى هنا : «وقد اعجبت الناصر (هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد) .. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا ، واضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف دينار اندلســـية ، وبلغ معروفه (أى الرزق الذى يطلق له علاوة على المرتب) الف دينار وثنى له فى العظمة لتثنيته له فى الرزق ، فسماه « ذا الوزارتين » مما يفهم منه أن المرتب العادى للوزير كان ٤٠ الفا

(٤) الفخرى ٢٧٨

حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، ماعدا الاقطاعات (١) وغير مايجرى عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمى بمصر من الجرايات لنفسه واهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار فى الشهر، ومن الفاكهة سلة بدينار ، وعشرة أرطال شمع بدينار ، ونصف حمل بلح (٢) وكان راتب الوزير فى الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد (٣)

رواتب القضاة

كان راتب القاضى فى أيام الراشدين مائة درهم فى الشهر، ومؤونته من الحنطة (٤) ، ثم ارتقى فى أيام بنى امية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضى مصر سنة ٨٨ هـ الف دينار فى السنة (٥) اى نحو عشرة اضعافه فى أيام الراشدين. فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس أنزلت الرواتب فصار راتب قاضى مصر فى أيام المنصور ٣٠ دينارا فى الشهر. ثم تصاعد فى عهد من خلفه حتى بلغ فى أيام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤٠٠ درهم فى الشهر، أى ٢٧٠ دينارا ، ثم عاد فى أيام ابن طولون الى الف دينار فى السنة (٦) (*)

واما فى بغداد فلم نطلع على راتب القاضى فى أوائل الدولة العباسية ، ولكننا رأينا فى جريدة المعتضد أن راتب القاضى ١٦ وثلثا دينار فى اليوم أو ٥٠٠ دينار فى الشهر — بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضى — ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام ، فان راتب شيخ الاسلام فى الاستانة لايزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، مع اعتبار الفرق فى قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

رواتب الخلفاء واهلهم

قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاهل الوزراء والكتاب ، فبالاولى أن يفرضوها لانفسهم واولادهم ، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال . لكننا لم نجد قولا صريحا فى هذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لاهلهم من الضياع أو الاموال ، واكثر ما كانوا يفعلون ذلك فى أول الدولة اذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك ، فكانوا يشترون مبايعتهم بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدى بمبلغ ١١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم له ولاولاده (٧) أو

(١) المقريزى ٤٠١ ج ١ (٢) المقريزى ٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٧٣ ج ٢ (٤) سراج الملوك للطرطوشى (على هامش المقدمة) (٥) السيوطى ١١٥ ج ٢ (٦) السيوطى ١١٩ ج ٢

(*) لا نستطيع القول ان هذه الارقام تعين تطور مرتب القاضى ، وانما هى ارقام متفرقة تعطى فكرة عن مستوى مرتبات القضاة فى هذه الاعصر وتلك البلاد

(٧) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥

للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فانه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك (١) . ويظهر أنها كانت تدفع اليهم فى كل عام . ولما توفى ابنه المهدى فرض لأهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم فى السنة (٢) والظاهر أنهم بقوا على نحو ذلك فضلا عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة ، وخصوصا أبناء الخلفاء وولاة عهدهم ، فان الهادى أمر سنة ٢٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار ، وأن يحمل اليه نصف الخراج (٣) على أثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد

والظاهر أن الرشيد زاد فى رواتب أهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب فى خلافته . وكان أعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا فى أيامه ٣٣,٠٠٠ نفس . ولما توفى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما واشهد عليهما بذلك ، وترك للمعتز ما يتحصل منه فى السنة ٢٠,٠٠٠ دينار ، وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما (٤) (*)

فلما كانت أيام ابن رائق أمير الامراء فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، كفت أيدى الخلفاء عن بيت المال ، وصار الى رجال الدولة — وأول من كفت يده الراضى بالله الذى توفى سنة ٣٣٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة فى الاموال وصار الخلفاء فى حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتبا زهيدا (٥)

---

(١) الطبرى ٤٢٠ ج ٣ (٢) سير الملوك ٦٥ (٣) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٤) الطبرى ١٥٠٧ ج ٣

(*) نص الطبرى هنا (طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣٩) ج ٧ ص ٤٢٠ : « وفيها (سنة ٨٦٢/٢٤٨) ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد فى جمادى الاولى منها جميع ما كان لهما ، خلا شيئا استثنى منه المعتز قيمته ١٠٠ ألف دينار ، وأخذ له ولابراهيم (هو المؤيد اخو المعتز وهما أبنا المتوكل) غلة بثمانين ألف دينار فى السنة ، فلما كان يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان ابتيع من المعتز والمؤيد جميع مالهما من الدور والمنازل والضياع والقصور والفرش والآلة وغير ذلك بعشرين ألف دينار ، واشهدا عليهما بذلك الشهود والعدول والقضاة وغيرهم ، وقيل ابتيع مالهما من الضياع وترك الى عبد الله ما يكون غلته من العين فى السنة ٢٠ ألف دينار ولابراهيم ما تبلغ قيمته فى السنة ٥ آلاف دينار . فكان ما ابتيع من أبى عبد الله (المعتز) بعشرة آلاف دينار وعشر حبات لؤلؤ ، ومن ابراهيم « المؤيد » بثلاثة آلاف ألف درهم وثلاث حبات لؤلؤ ، وأشهدا عليهما بذلك الفقهاء والقضاة . وكان الشرى باسم الحسن بن مخلد للمستعين . وذلك فى شهر ربيع الاخر سنة ٢٤٨ ، وحبسا فى حجرة الجوسق ، ووكل بهما وجعل أمرهما الى بغا الصغير . وكان الاتراك قد أرادوا ، حين شغب الغوغاء والشاكرية ، قتلهما فمنعهم من ذلك أحمد الخصيب ، وقال : ليس لهما ذنب ، ولا المشغبة من أصحابهما ، وانما المشغبة من أصحاب ابن طاهر ، ولكن احبسوهما ، فحبسا »

(٥) الفخرى ٢٥٤

ويظهر أن الخلفاء لم تكن لهم قبل ذلك رواتب معينة ، غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع ـ الا أبا بكر فقد فرضوا له ٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف (١) ثم لم نر ذكرا لرواتب الخلفاء الى أيام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفى ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ، ولكنه قلما كان يدفعها اليه (٢) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتى ذكره فى حينه

وفرض الاعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن ، والغالب فى الدول المتمدنة أن تكون تلك الرواتب معينة فى مميزاتها . وهاك رواتب العائلة المالكة فى انجلترا لعام ١٩٠٢ :

رواتب العائلة المالكة فى انجلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انجليزى	
١١٠ ٠٠٠	راتب الملك
١٢٥ ٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣ ٠٠٠	نفقات القصر
٤١ ٢٠٠	نفقات أخرى وتبرعات
٤٧٠ ٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠ ٠٠٠	رواتب سائر أعضاء العائلة
٦٣٠ ٠٠٠	

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصرى	
١٠٠ ٠٠٠	مخصصات الخديو
٩٧ ٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧ ٤٣٤	نفقات كابينة الخديو (*)
٢٥٥ ٣٦١	

(١) المقريزى ٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

(*) تركنا هذه التعبيرات على حالها ، لانها مصطلحات فنية لذلك العصر . فكانت الاوراق الرسمية لا تقول « الخديوى » وانما « الحضرة الخديوية » . أما كابينة الحضرة الخديوية فيراد بها ديوان الخديوى ، وهى لفظة اوروبية Cabinet

ولسلطان تركيا راتب مقداره فى الشهر ٧٥٫٠٠٠ ليرة عثمانية (*) ، أو ٩٠٠٫٠٠٠ ليرة فى السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢)

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة ، وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحرس الخاص ، ورواتبهم من بيت مال الخاصة ، وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة ، وكانت كبيرة ، نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، ومنها رواتب نقدية كان يؤخذ بعضها من بيت مال العامة ، والبعض الآخر من بيت مال الخاصة . واليك راتب جبريل المذكور فى السنة كما وجدوه مدونا بخط كاتبه (١) :

مرتبات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد فى السنة

درهم		
		من بيت مال العامة
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدى
١٨٠ ٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
		من بيت مال الخاصة
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدى
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	هدية على يوم الشعانين (ثيابا قيمتها هذا المبلغ)
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر نقدا
	١٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر (ثيابا قيمتها ذلك المبلغ)
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشيد دفعتين فى السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء دفعتين فى السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	

(*) الليرة العثمانية او الجنيه العثمانى او الجنيه المجيدى قيمتها حوالى ٨٠ قرشا مصريا ، وكانت تقسم الى ٢٠ فرنكا ذهبيا تركيا ، وقيمته أقل من الفرنك الذهبى الفرنسى بقليل

(١) طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ١٣٦ ج ١

		من أصحاب الرشيد نقدا وثيابا واطيابا
	٥٠ ٠٠٠	درهم من عيسى بن جعفر
	٥٠ ٠٠٠	درهم من زبيدة أم جعفر
	٥٠ ٠٠٠	درهم من العباسة
	٣٠ ٠٠٠	درهم من ابراهيم بن عثمان
	٥٠ ٠٠٠	درهم من الفضل بن الربيع
	٧٠ ٠٠٠	درهم من فاطمة أم محمد
٤٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	كسوة وطيب ودواب
	١ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)
		من البرامكة
	٦٠٠ ٠٠٠	من يحيى بن خالد
	١ ٢٠٠ ٠٠٠	من جعفر بن يحيى الوزير
٢ ٤٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ ٠٠٠	من الفضل بن يحيى
٨٠٠ ٠٠٠		غلته من ضياعه
٧٠٠ ٠٠٠		من فضل مقاطعته
٤ ٩٠٠ ٠٠٠		(الجملة)

فجملة رواتبه فقط ٤٫٩٠٠٫٠٠٠ درهم فى العام ، فاذا جمع ذلك فى مدة خدمته كلها وهى ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم فى العشر السنين الاخيرة ، وهو ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فالباقى ٨٨٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم ، وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما أنفقه فهو :

درهم	
٢٧٦٠٠٠٠٠	جملة نفقاته على نفسه وبيته فى ٢٣ سنة بمعدل ١٬٢٠٠٬٠٠٠ درهم فى السنة
٧٠٠٠٠٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨٠٠٠٠٠٠	ثمن آلات وأجر وصناعات ونحو ذلك
١٢٠٠٠٠٠	ما صار فى ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥٠٠٠٠٠	ثمن جواهر وما أعده للذخائر
٣٠٠٠٠٠٠	ما أنفقه فى البر والصلات والمعروف
٣٠٠٠٠٠٠	ما كابره عليه أصحاب الودائع وجحدوه (أى انكروه)
١٢٨٦٠٠٠٠٠	(والمجموع فى الاصل ٩٠٠٫٠٠٠ دينار و ٩٠٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة فى تلك الأيام . فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة ، وغلة صاحب شرطته ٥٠٠٫٠٠٠ درهم ، وغلة حاجبه ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة (١)

رواتب الجند

بينا فى باب الجند من الجزء الاول كيف كان المسلمون كلهم جندا ، وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة ، وكيف تضاعفت رواتبهم فى أوائل بنى أمية ثم نقصت فى أواخرها ، ثم زادت فى أوائل بنى العباس ، ثم نقصت حتى صارت فى أيام المأمون ٢٤٠ درهما فى السنة للجندى الراجل (النفر) فضلا عن حصته من الغنائم اذا غزا . ويظهر أن تلك الحصة من الغنائم ، كانوا يحسبونها عن الجند فى صدر الدولة العباسية ، حتى طلبوا من محمد الامين سنة ١٩٨ هـ أن يردها عليهم اذا غزوا فردها فأصاب الرجل ستة دنانير (٢)

ولما قامت الفتنة بين الامين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده فيه بالاعطيات ، فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش على بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهما فى الشهر (٩٦٠ درهما فى السنة) (٣) أى أنه أعادها الى ما كانت عليه فى أيام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهما

الافشين وبابك

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨هـ وكان ماكان من اقتنائه الاتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم ، وضعف الخلفاء للأسباب التى قدمناها ، أصبح مرجع القوة فى كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمى فى أرمينيا وأذربيجان . وكان بابك قد ظهر فى أيام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه الحلول أى تقمص الارواح (٤) فبعث اليه المأمون جنودا هزمهم غير مرة ، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لانه أصبح خطرا على ملكه فبعث اليه أتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر ابن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم أردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال ، وآخر أسمه جعفر الخياط ثم انفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم لنفقات الجند ، وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامرا فخرج الواثق بن المعتصم وسائر اهل المعتصم لاستقباله باحتفال ، وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده ، لانه كان قد امعن

(١) طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١ — (٢) الطبرى ٩٧٢ ج ٣
(٣) الطبرى ٨٨٠ ج٣ — (٤) ابن الاثير ١٣٤ ج ٦

فى البلاد نهبا وقتلا، فقتل فىعشرين سنة ٢٥٥٫٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم ــ فلما قبض الافشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل ، فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم أدخلوه على المعتصم فى داره فأمر سياف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها ، فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه فى سامرا . وكان ذلك اليوم يوما مشهودا أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للأفشين ورجاله ــ وكان لاينفك عن مواصلة الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرسا ويدفع اليه فى أثناء اقامته بازاء بابك (سوى الأرزاق والانزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لايركب فيه خمسة آلاف درهم. ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه والبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم : عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها فى عسكره ، وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه(١)

فالافشين لم يثبت فى محاربة بابك الا طمعا فى المال ، مع ماكان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال فى أثناء الحرب ، ثم مادفعه اليه عند رجوعه. وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو فى دار الحرب. فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة أو هدية بعث به رأسا الى بلدة اشروسنة فيما وراء النهر بطريقة سرية ، فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم ، المعتصم يأمره أن يطلعه على كل مايراه من هذا القبيل. فأنفذ الافشين مرة مالا كثيرا جعله فى أوساط أصحابه فى الهمايين فبعث ابن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال : «من أين لكم هذا المال ؟ » قالوا : «للأفشين» فأخذه وأظهر ان الافشين لايفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه ، وقد تبين من محاكمته انه لم يعتنق الاسلام الا طمعا فى المال وانه لايزال على المجوسية (٢)

***

وقس على ذلك سائر جند المعتصم ، فانهم انما كانوا يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم فى أقصى الشرق ــ فكيف تستقيم دولة هذا جندها ؟ ــ على أن الخلفاء لم يكونوا يجدون بدا من استنصارهم ، ولا سبيل الى ذلك الا بالمال .. فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها ، اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم ــ لانه بنى لهم سامرا ، واقطعهم فيها الاقطاعات ، واشترى لهم الجوارى

(١) الطبرى ١٢٣٢ ج ٣.   (٢) ابن الاثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦

فأزوجهم منهن ، ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحدا من المولدين ، الى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض · وأجرى للجوارى الاتراك أرزاقا قائمة ، وأثبت أسماءهن فى الدواوين ، فلم يكن يقدر أحد منهم على أن يطلق امرأته ولا أن يفارقها (١)

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال ، وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيما جدا ··· قال الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٢ هـ : « وذكر أن أرزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت فى هذه السنة ، فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » (٢) · ونظن أن المراد ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (لا دينار) ، اذ يستبعد أن يجتمع هذا القدر من الخراج دنانير فى سنتين ، لأننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهما ـ وهى قيمته فى ذلك الحين ـ كان خراج المملكة فى السنة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقد رأينا خراجها فى ابان ثروتها لايزيد على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ـ فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند فى سنة واحدة أمر عظيم جدا ، وخصوصا اذا اعتبرنا قيمة النقود فى تلك الايام · ولكنه لا يعد شيئا بالنظر الى نفقات الجند فى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لان التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد واعداد المعدات ، حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصا اذا أضفنا اليها نفقات الاساطيل ـ فانجلترا مثلا تنفق على جنديتها برا وبحرا نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة (*) ، وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ ، وكذلك روسيا · وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لايزال يعادل ضعفى ماكان ينفقه العباسيون تقريبا ، ولكننا أعظمنا ما أنفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسى من اغتصـــاب أموال الناس فى منازلهم وحوانيتهم لاقل سبب يحدث ، والخلفاء لا يعدون ذلك ذنبا لهم ، بل ربما عنفوا الناس لأنهم لم ينقلوا سلعهم وأمتعتهم الى مكان لايعرفه الجند

على أن الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم ، بما كانوا يشرطونه على أنفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلانى حتى فى ساحة الحرب · فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الامير ضعفا صاح فى جنده : « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ (٣)

---

(١) اليعقوبى « كتاب البلدان » ٣٢ (٢) الطبرى ١٦٨٥ ج ٣

(*) ذكر المؤلف قيمة هذا المبلغ بالفرنكات الفرنسية بسعر تلك الايام ، فقال انها ١٠٠٠ مليون فرنك ، وذكر ان الفرنك يساوى الدرهم تقريبا ، وقيمة الفرنك الفرنسى « بسعة سنة ١٩٠٣ » ٣٧٥ر٤ قرشا

(٣) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

أما رواتب الجند العباسى ، أى ما كانوا يتقاضونه قدرا معينا فى العام ، فقد تبين من قائمة نفقات الدولة فى أيام المعتضد ـ على ما مر فى هـذا الكتاب ـ أن أرزاق الجند من الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ٥٠٠ر٠٠٠ر١ دينار أو ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠ درهم . ثم استفحل امر الجنـود الاتراك بتوالى الاعوام وتعـددت فرقهم ، وتزايدت رواتبهم مما لايمكن حصره ، لانه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلا عن سكوت المؤرخين فى هذا الشأن الا ما قد يتناولونه عرضا

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية (اى الحرس) الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٠٠٠ر٢٠ رجل ، بلغت رواتبهم ٠٠٠ر١٢٠ دينار فى الشهر ، اى ستة دنانير لكل واحد . وكان عدد الفرسان ٠٠٠ر١٢ فارس رواتبهم فى كل شهر ٠٠٠ر٥٠٠ دينار ، وذلك نحو ٤٢ دينارا لكل واحد . أو نحو ٠٠٠ر١٢ درهم فى السنة للفارس ، و ٤٤٠ر١ درهمـا للراجل . وكانوا مع ذلك كثيرا ما يثورون ويطلبـون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم (١) . وتداخلوا فى منازل الخلفاء ، ووضعوا أيديهم على الخلافة ، وصاروا يولون من شاءوا واذا أتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة أو الديوان الا القليل ، كما فعل أتامش وشاهك فى أيام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ (٢)

وكما كان القواد يطمعون فى الخلفاء ويستبدون بهم كانوا أيضا يستأثرون بالأموال دون أفراد الجند حتى لقد ثار هؤلاء مرارا على قوادهم وطالبوهم بالاموال وهددوهم ، واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بالقائد وصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الاتراك والفراغنة والاشروسنية شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم : « خذوا التراب ، ليس عندنا مال ! » فوثب عليه بعضهم وقتلوه (٣) وكثيرا ما تظلموا للخلفاء ، وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التى قد أجحفت بالضياع والخراج ، وما صـار الى كبرائهم من المعاون (*) والزيادات فى الرسوم القديمة بالاضافة الى ما كان ينفق فى أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج (٤) حتى طلبوا التخلص منهم وعرضوا ان يقود الجند اخو الخليفة

---

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ١٤٢ ـ ج ١٥١ (٢) الطبرى ١٥١٢ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٧٠ ج ٧

(*) المعاون . بفتح الميم جمع معونة ، وكانت نوعا من السخرة يفرض على الفلاحين لحفـر الترع ، اقامة السدود وما الى ذلك . ثم استبدلت بضريبة يدفعها الناس فى مقابل قيام الحكومة بهذه الاعمال ، وهـذه الضريبة هى المعونة وجمعها المعاون . وكان رجـال الدولة يجمعونها ولا يعرفون بشىء

(٤) الطبرى ١٧٩٦ ج ٣

رواتب الجند الآن

على أننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامى على اختلاف عصوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية ، وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة. فقد رأيت أن راتب الجندى فى أيام الراشدين تراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ درهم فى السنة ، ثم صار أيام بنى أمية ألف درهم ، وتقلب فى أيام العباسيين حتى صار فى أيام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل ، و ١٢٫٠٠٠ درهم للفارس فى السنة ــ تلك رواتب أفراد الجند (الانفار) عندهم مع أن راتب النفر فى الدولة الانجليزية للراجل شلن وللفارس شلن و ٩ بنسات فى اليوم ، ومقدار ذلك فى السنة نحو ٤٥٥ درهما (حوالى ١٩٩٠ قرشا مصريا) للراجل و ٣٥ جنيها مصريا للفارس . على أن رواتب الجند عندهم تختلف فى كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها فى كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند فى الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانها صغيرة وخصوصا اذا اعتبرنا قيمة النقود فى الحالتين

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم ، وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الأيام وهم القواد . وهاك رواتب الجند الانجليز من أكبر الضباط الى النفر (العسكرى) فى اليوم [1] ثم رواتب الجندين العثمانى والمصرى :

رواتب الجند الانجليز فى اليوم بالجنيه والشلن والبنس (سنة ١٩٠٣)

	المشاة			الفرسان		
	بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه
الجنرال (المشير)	—	—	٨	—	—	٨
الفريق	—	١٠	٥	—	١٠	٥
اللواء	—	—	٣	—	—	٣
أميرالاى	—	١٨	—	٦	١	١
قائمقام	—	١٨	—	٦	١	١
بكباشى	٧	١٣	—	—	١٥	—
يوزباشى	٧	١١	—	—	١٣	—
ملازم أول	٦	٦	—	٦	٧	—
« ثان	٣	٥	—	٨	٦	—
النفر	—	١	—	٩	١	—

(١) وسكر ٢٢٠

رواتب الجند العثماني في الشهر (سنة ١٩٠٣)		رواتب الجند المصري في الشهر (سنة ١٩٠٣)	
قرش عثماني		قرش مصري	
٢٥٠٠٠	المشير	٠٠٠٠	المشير (لا يوجد)
١٠٠٠٠	الفريق	٧٥٠٠	الفريق
٦٠٠٠	اللواء	٦٥٠٠	اللواء
٢٠٠	أميرالاي	٤٧٠٠	أميرالاي
١٨٠٠	قائمقام	٣٠٠٠	قائمقام
١٢٠٠	بكباشي	٢٥٠٠	بكباشي
٧٠٠	قولاغاسي	١٥٠٠	صاغقو لاغاسي (هو الصاغ اليوم)
٥٠٠	يوزباشي	٩٠٠	يوزباشي
٢٥٠	ملازم أول	٦٠٠	ملازم أول
٢٠٠	« ثان	٥٠٠	« ثان
٢٠	نفر	٣٠	نفر

رواتب أخرى

كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم . لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم — والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام أكثر مما للصحافة في هذه الايام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالاحسان اليهم أو الرفق بهم ، فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية ، كما يفعل ملوك هذه الايام بالصحافة ، فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه ، والبعض الآخر يبتاع مساعدتهم في انهاض الهمم أو جمع كلمة الاحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم في تلك الايام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم

وأول من فعل ذلك في الاسلام معاوية بن أبي سفيان . فكان يسمع التقريع بأذنه ولا يجازي عليه الا بالعطاء ، ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه (١) وكان يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار

(١) المستطرف ٣٤ ج ١ ، أي أنهم يقولون ان الخليفة أعطى فلانا الشاعر كذا من الدنانير ليقطع بذلك لسانه عنه

الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الاعطية لرؤساء الاحزاب من بنى هاشم والطالبيين ونحوهم ، وصاروا يهبون الاموال لمن يخافونهم على سلطانهم ، وأكثر ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الفرض

وكانوا يفرضون الرواتب أحيانا لاناس يرجون نصرتهم على مناظريهم فى الملك ، كما فعل العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨١ هـ بعلى بن الحسين من آل المغربى لما جاءه من بغداد ، فانه جعل له ٦٠٠٠ دينار فى السنة وسماه من شيوخ الدولة (١) وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز ، كما فعل الاخشيد بمصر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، فانه فرض للضعفاء والمستورين من أبناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالاعمال) رواتب بلغ مقدارها فى أيام كافور الاخشيدى ٥٠٠٠٠٠ دينار فى السنة (٢) ، فلا بد من أن يكون مثل هذه الرواتب فى الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والاعوان ونحوهم ، ممن تندرج رواتبهم فى نفقات الدولة ، فقد رأيت انها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشى الامراء والعمال والوزراء وغيرهم ، وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف (٣) أو تزيد

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية فى زيادة الرواتب فى ابان ثروتها ، ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد فى امكانها انقاص الرواتب بعد أن تعود أصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ، ولم يعد فى الامكان كذلك اقالتهم خوفا من غضبهم ، فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئا كثيرا من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة ، فاذا أرادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الراتب ألف دينار فى الشهر مثلا ، فبدلا من أن يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوما أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريبا شهر خاص يختلف عدد أيامه عن أيام أشهر الآخرين

فقائمة نفقات المعتضد المنشورة فى هذا الجزء يختلف شهر كل من أصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمان الذين أعتقهم الناصر كانت أيام شهورهم أربعين يوما ، فأساءوا الادب فى مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين

(١) المقريزى ٤٥٩ ج ٢ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) الاثير ١٨٣ ج ٧

يوما · ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوما · والفرسان الاحرار والمميزون كانت شهورهم خمسين يوما فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ، ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوما · واشهر المختارين سبعون يوما ، وأشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوما ، وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والسقايين وقس عليهم سائر الموظفين فى هذه القائمة وغيرها · فالذى راتبه الف دينار فى الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوما كأنه تنزل الى الربع · وكثيرا ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهرا بعد شهر حتى يثور الجند ، فاما أن يخلعوا الخليفة أو يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال

٤ — النفقة على البيعة

رأيت فيما تقدم أن الخلفاء فى أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون فى تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين ، وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الاعطية ويفرقون فيهم الهدايا · فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم ، وقوى جند الاتراك اهمل أمر الحرمين ، وصارت القوة اليهم أو بالاحرى الى المال — لان الاتراك انما يحاربون مع المال · وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى رضاهم ، أو الى من يدفع المال اليهم · على أن الخلفاء كانوا من أوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ، ويسمون ما يدفعونه اليهم فى هذه السبيل «حق البيعة» ، فلما تولى الأمين فرق فى الجند رزق ٢٤ شهرا (١) ولولا ذلك لم يحكم شهرا واحدا · ولما اراد المأمون أن يبايع لعلى الرضا صرف للجند راتب شهر على أن يصرف لهم الباقى اذا أدركت الغلة (٢) فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء · وكان بنو أمية يعطون فى مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين ، كما فعل عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير فى مكة ويخاف منه ، فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين (٣)

واما بعد أيام المعتصم ، فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد · وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعا فى المال لانهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة اشهر او سنة أو اكثر أو أقل على قدر مطامعهم (٤) وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى ، فتراجع فى تاريخ الخلفاء العباسيين · فانشغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة ، واختلت الاحكام ، وأصبح همهم منصرفا الى

---

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ — (٢) الطبرى ١٠٣ ج ٣
(٣) ابن الاثير ١٦٨ ج ٤ — (٤) ابن الاثير ٧٥ ج ٨

حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم ، وصارت البلاد فوضى للجند ، أو لمن يستطيع استخدامهم ، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة ، وأهملت الاعمال بوجه الاجمال

***

وزاد أهل البلاد شقاء أن قواد الجند كانوا اذا أعوزهم المال ، ولم يكن فى بيت المال مايكفى ، استخرجوه من الاهالى . وكثيرا ما كان يحدث ذلك فى أثناء الحروب بين فرق الجند فى تنازعهم على تولية أحد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم أموال الناس فى بغداد ، فى أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ ، بشأن الخليفة المطيع لله ، وكان مقدار مانهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (١) ولما عين الخليفة المستكفى « شير زاد » أميرا للأمراء فى تلك السنة ، زاد هذا أعطيات الجند زيادة كثيرة على جارى عادتهم عند كل بيعة ، لكنه لم يجد فى بيت المال مايعطيهم ، فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم ، وظلم الناس . فظهرت اللصوص فى بغداد ، وأخذوا الاموال نهبا ، ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى (٢)

فآل ذلك وأمثاله الى تتابع الاحن على البلاد ، فتقاعد أهل المدن عن العمل ، كما تقاعد أهل القرى عن الزرع ، وغلت الاسعار ، وتوالى الجوع أعواما على مدن العراق ، وخصوصا بغداد ، فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة ، لا عمل لهم الا النهب عند سنوح الفرصة ، وخصوصا فى أثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء مايستأجرون به جندا لدفع الفتن أو اخماد الثورات . على انهم كثيرا ماكانوا يمسكون عن دفع المال ، ولو كان فى خزائنهم ، لانهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه أمسك عن دفع الاموال وهى عنده وعند والدته ، حتى آل الامر الى قتله بمساعى مؤنس الخادم . فكان ما فعله مؤنس سببا لجراة أصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم (٣) حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم ، كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ، وسبوا واحرقوا ففر اهلها الى بغداد ، يستنجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة ، فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الامر يومئذ هناك) الى الخليفة أن يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم ، فقال المطيع : « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدى ، وتجبى الى الاموال ، وأما اذا كانت حالى

(١) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨ (٢) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨
(٣) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

هذه فلا يلزمنى شيء ، وانما يلزم من البلاد فى يده ، وليس لى الا الخطبة فاذا شئتم أن أعتزل فعلت» فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وأنقاض داره وغيرذلك لدفع ٤٠٠,٠٠٠ درهم . فشاع الخبر أن الخليفة صودر. على أن المال المذكور لم ينفق فى الغزاة وانما أنفقه بختيار فى مصالحه (١) ، وما أشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية فى القرن الثامن عشر وبعيده ، ولا ندرى كيف كان يصير حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦

فلم يبق فى الدولة العباسية ، والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها ، لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لابد منه لحفظ السلطة ، فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد فى خلافة المطيع شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم ايصال أرزاقهم . ولما أعجزه ذلك من طريق الحلال ، اضطر الى ضبط الناس وأخذ أموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئا ، فارتأى أن يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها ، فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع أصحاب الإملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال . وكانت البلاد قد خربت للأسباب التى قدمناها ، فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خرابا فردوها وطلبوا غيرها ، وأهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها ، فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد أكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم فى الاقطاع ، فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما (٢)

٥ ـ استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها ، وانغمس الملك فى الترف والقصف ، وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه ، تحول النفوذ الى المحيطين به ، أو الذين ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس ، كالوزير ، والعامل ، والكاتب ، والحاجب ، والقائد ، وأصبح الامر والنهى فى أيديهم ، فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ، فيسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا فى الدولة المطلقة التى ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحجاب

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ (٢) ابن الاثير ١٧٩ ج ٨

فى عصر الترف والتقاعد يكون له مثل ذلك من النفوذ ، وخصوصا فى مثل الدولة العباسية ، لان وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم الا بها ، ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء فى هذه الحالة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى فى ابان تمدنها .. اعتبر ماكان من نفوذ البرامكة فى ايام الرشيد ، وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم ، حتى كان الرشيد يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه (١) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٢) نكبهم على ما هو مشهور ، كما نكب المهدى قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قد استوزره وسلم اليه الامور ، وفوض اليه الدواوين ، وانشغل المهدى عنه باللهو وسماع الاغانى ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى امية هبوا طال نومكم   ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خلافة الله بين الناى والعود (٣)

ووشى بعض الناس الى المهدى بذلك فاستدعاه ، وقبض عليه وسجنه وظل فى سجنه أعواما طوالا

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضى عندما عهد اليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة (٤) ولكنه لم يكن راضيا عنه لاشياء لم تعجبه منه ، ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لا تتخذن وزيرا تلقى اليه شيئا ، فقد علمت ما نكبنى به يحيى ابن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته » (٥) . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصا لانهم فى الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة .. قال اعرابى يصف وزيرا :

ومظهر نسك ما عليه ضميره   يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبنا وبخلا وشيمة   تخبر عنه أنه لوزير (٦)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب فى الاسراف لا طمعا فيه لانفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات ، اذ أعجبه صوت غنته اياه جارية اسمها «علم» فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فمطل ابن الزيات فى دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع اليه ...و١٠ دينار (٧)

وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الاموال اليهم

(١) المسعودى ٢٠١ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ (٣) الفخرى ١٦٦ (٤) ابن خلكان ٢١٧ ج٢
(٥) الطبرى ١١٣٩ ج ٣ (٦) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ (٧) ابن الاثير ١٢ ج ٧

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال فى أيام الازدهار كأن الاموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع ، يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها . على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (١) ولكن الغالب أن تبذل الاموال فى سبيل الحصول عليها اما رأسا الى الخليفة ، كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠٠٠ دينار (٢) ، أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال . وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم انهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه ، بما تصل اليه أيديهم من الرشوة ، من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء : أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة أنه ولى فى يوم واحد، تسعةعشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتىاجتمعوا جميعا فى بعض الطريق، فقالوا : كيف نصنع؟ فقال أحدهم : ينبغى ان أردتم النصفة أن ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير، فهو الذى ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده أحد . فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم فى عدة أعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعه   يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدنى من تعجل منه مال   ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا أهل الرشى صاروا اليه   فأحظى القوم أوفرهم بضاعه (٣)

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ، ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم

على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل الا بالحق ، مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفا — ذكر الفخرى ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك » ثم فتح

---

(١) ابن الاثير ٨٣ و٨٦ح ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و٢٦٦ (٣)الفخرى٢٤١

الاسفاط واخذ منها منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (١)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر ، وهو صاحب جريدة الخراج التى نشرناها فى هذا الجزء . ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء فى عصر التقهقر العباسى قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعا فى اختزان الأموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقى فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوى ٠٠٠ر٠٠٠ر٧ دينار أخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ ، وخلع سنة ٣٠٦ ، ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ ، وخلع سنة ٣١٢ ، فمجموع المدة التى مكث بها فى الوزارة فى الدفعتين الاخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا مايزيد على ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ دينار، وضياع يستغل منها كل سنة ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ دينار (٢) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه . وكان اذا ولى الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له ، لانه ماكان يشرب أحد كائنا من كان فى داره فى الفصول الاربعة الا الماء المثلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية (*) . وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شىء منه أخذه (٣) (**) وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين الف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، ولاصحاب الادب ٠٠٠ر٢٠ درهم ، وللفقهاء ٠٠٠ر٢٠ درهم ، وللصوفية ٠٠٠ر٢٠ درهم (٤) وكان يجرى الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء ،

(١) الفخرى ٢١٦ (٢) ابن حلكان ٣٧٢ ج ١

(*) جاء فى كتاب الوزراء لهلال الصابى « ص ١٤٢ » فى وصف دار الوزير ابى الحسن ابن الفرات انه كان فيها « دار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يجعل فيهما الماء المبرد ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرجالة والفرسان والاعوان والخزان ، ومن يجرى مجراهم من الاتباع والغلمان . وكان بالدار مزملات فيها الماء الشديد البرد ، وبرسم خزانة الشراب خدم نظاف عليهم الثياب الديبقية السرية ، وفى يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جلاب ومخوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف . فلا يتركون أحدا ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال الا عرضوا ذلك عليه »

(٣) الفخرى ٢٤

(٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٨

(**) جاء فى كتاب الوزراء للصابى « ص ٦٣ » : « وكان فى جانب الدار ادراج كثيرة لاصحاب الحوائج والمتظلمين ، حتى لايلتزم احد منهم مئونة لما يبتاعه من ذلك .. ولما خلعت عليه خلع الوزارة زاد فى ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطا فى كل من ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما ، ولانه كان من رسمه الا يخرج احد من داره وقت العشاء الا ومعه شمعة منوية ودرج منصورى . وقد سقى فى داره فى ذلك اليوم والليلة اربعون الف رطل ثلجا »

ولم يكن الناس يصنعون الثلج فى ذلك الحين ، وانما كان يؤتى به من الجبال العالية فى الموصل ويلف لفا جيدا بالقماش والقطن ويحمل فى سرعة الى بغداد . وكانت نفقة الثلج لهذا عظيمة ، وخاصة فى ايام الصيف

وأكثرهم تبلغ نفقته ١٠٠ دينار فى الشهر ، واقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (١) ففطى الكرم طمعه ، كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع ألسنة الشعراء وكسر أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا اموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعى فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة (*) ، لان الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق او فى مصر أو الاندلس. فقدخلف المادرائى وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله الا فى النادر وارتفاعها ٤٠٠ر٠٠٠ ديناركل سنة سوى الخراج، وقد وهب وأعطى وأفضل وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠ر٠٠٠ دينار(٢). ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه اقطاع فى الشام دخله ٣٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة، وخلف أملاكا وضياعا وقياسرة ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا وغير ذلك ما قيمته ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠ر٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٣) وخلف الافضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار عينا (٤) و ٢٥٠أردب دراهم ، من نقد مصر و ٧٥ر٠٠٠ ثوب ديباج أطلس، و ٣٠ راحلة أحقاق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢ر٠٠٠ ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير ، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما أحب لبسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مما لا يحصيه عد (٥) (**)

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(*) خذ مثلا لذلك مايحكي عن الوزير أبى الحسن على بن الفرات الانف الذكر ، فقد كان له فى داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ماكان يدخله من الحيوان لكثرته ، ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم الى الحجاب المقيمين بالدار ، ويعرض منه للرجالة ، والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان اصحاب الدواوين ، وكان يقدم فى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأسا من الغنم وثلاثون جديا ، ومئتا قطعة دجاجا سمانا ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجا ، ومائتا قطعة فراخا ، وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهارا ، وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا

(٢) المقريزى ١٥٥ ح ٢ (٣) المقريزى ٦ ج ٢ (٤) وهو فى الاصل ستمائة الف الف دينار، ولا بد أن خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل ان يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمائة سنة . فالارجح أن يكون المراد ستين ألف دينار كما قلنا . ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير، لان أموال مصر قلما قدرت بالدراهم (٥) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١

(**) ومع ذلك فقد كان أولئك الوزراء رغم ثرائهم الطائل يبخلون بالقليل. حكى أن الاخفش النحوى المتوفى عام ٩٢٧/٣١٥ طلب من على بن عيسى ان يجرى عليه رزقا ، ووسط فى ذلك أبا على بن مقلة ، فانتهره على بن عيسى انتهارا شديدا فى مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه وقد « اسودت الدنيا فى عينيه ، ووقف الاخفش على الصورة فاغتم ، وقيل انه قبض على قلبه فمات »

انظر : معجم الادباء لياقوت ٢٢٤/٥ ـ ٢٢٥ ، ادم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ١٢٦/١

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الاندلس ، فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرى وفصلها هذا الاخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (١)

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها وبعيدها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون فى استغلالها بأن يوقفوها على بعض المساجد بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا أنفسهم من خراجها أو عشورها (٢)

***

وأما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يتكسبون منها تلك الأموال فكثيرة ، من جملتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم ، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدون اليه أيديهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم ، وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ، ولا سبيل لهم الى المال ، فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ، ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت ، فكأنهم يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين ، فضلا عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أو خراجا على سبيل الرشوة أو الاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم (٤) وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥)

تلك كانت حال الوزراء وفى أيديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الاتراك واستبدادهم بالخلفاء ومطالبتهم بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم ، فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا الى ذلك الا بمطالبة الوزراء ، فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو

(١) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ (٢) Porter's Const. Hist. of Turkey Ms.
(٣) ابن الاثير ٨٤ ج ٨ (٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١٤٩ ج ٨

ما يعبرون عنه بالمصادرة · وكانت رائجة فى عصر التقهقر ، اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقـــات الدولة الا بها ، ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا (*)

المصادرة

هى قديمة فى الاسلام تتصل بعصر الراشدين ، وكان العمال أول من وقعت عليهم المصادرات ، فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال — كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين (١) وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة · فلما أفضت الامور الى بنى أمية وكان

(*) مرت الوزارة أيام العباسيين فى ادوار تكاد توازى ادوار تاريخ الخلافة العباسـية نفسها . الدور الاول يبدأ من ايام ابى جعفر المنصور فقد استوزر أبا سلمة الخلال ، وكان رجلا قويا ذا شخصية ظاهرة ورأى فى خلافة بنى العباس ، وقد قتله المنصور خوفا منـه . وطالما كان هناك خلفاء أقوياء ، فقد كان هناك وزراء أقوياء أيضا ، بل بلغ من قوتهم أن خافهم الخلفاء ، واصبح الصراع على الحكم بين الوزراء والخلفاء هو الطابع المميز للحالة السياسية الداخلية للدولة حتى نهاية ايام المعتصم .

وابتداء من خلافة المنتصر « ٨٦١/٢٤٧ — ٨٦٢/٢٤٨» تدخل الوزارة فى دورها الثانى، فيجعل محل كبار الوزراء ذوى الثقافة العالية والشخصية القوية وزراء لايمتازون بكفاية حقيقية او قدرة ظاهرة ، وقد عجزوا جميعا عن علاج المشكلة الرئيسية التى واجهت الدولة العباسية من ايام المتوكل « ٨٤٧/٢٣٢ — ٨٦١/٢٤٧ » وهى المشكلة المالية . ويظهر هذا الانتقال بصورة واضحة جدا فى انتقال الوزارة من عبيد الله بن يحيى خاقان وزير المتوكل الى أحمد بن الخصيب وزير ابنه المنتصر ، فقد كان ابن خاقان رجلا لابأس بقدرته ، قال الفخرى: « كان عبيد الله حسن الخط ، وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، الا أنه كان مخلطا مجدودا ، فكانت سعادته تغطى عيوبه ، وكان كريما حسن الاخلاق ، وكان كرمه أيضا يستر كثيرا من عيوبه، وكان فيه تعفف » . فاذا انتقلنا الى احمد بن الخصيب وجدناه « مقصرا فى صناعته، مطعونا عليه فى عقله ، وكانت فيه مروءة وحدة وطيش ، فمن احتمله بلغ منه ما أراد » كما يقول الفخرى . ولم يكن من أتى بعد ابن الخصيب احسن منه بكثير ، حتى على بن الفرات وعلى بن عيسى لم يتصفا بالصفات الحقيقية التى كانت الوزارة تستلزمها . ثم انهما لم يكونا اكثر امانة من غيرهما على أموال الدولة . وتكاد الخيانة المالية أن تكون الصفة المشتركة بين وزراء هذا العهد جميعا مما هون امرهم على الناس والجند خاصة ، فجرءوا عليهم حتى ضربوهم ضرب الموت كما حدث لابى جعفر احمد بن اسرائيل وزير المعتز « ٨٦٦/٢٥٢ — ٨٦٦/٢٥٥ »

وابتداء من ايام بنى بويه « ابتداء من ٩٣٢/٣٢٠ » تسقط هيبة الوزراء تماما ، ويصبحون مجرد خدم للامراء فى شئون الكتابة · وربما كانت وزارة ابى جعفر محمد بن القاسم الكرخى وزير الراضى « ٩٣٤/٣٢٢ — ٩٤٠/٣٢٩» كالرمز الى ذلك التحول ، فقد «كان قصيرا جدا » فى غاية القصر ، فاحتاجوا انهم قطعوا من سرير الخلافة اربع اصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة ، وتطير الناس من ذلك ، وقالوا: هذا مؤذن بنقض الدولة ، فكان الامر كما قالوا عليه ، واختلفت الاحوال ، واضطربت الامور لديه فاستتر . قالوا انه لما اراد الاستتار قلع رأس مزملة « زير » وجلس فيها ، واخرجت المزملة على انها مزملة ، وهو فى وسطها، ومازال مستترا حتى ظهر وصودر ثم تخلص » « الفخرى ، ص ٣٠٧ » . وهى صورة فكهة ، ولكنها فكاهة محزنة كهذه التى تكثر فى ايام الانهيار · وعقب وزارة الكرخى هذا ظهر عجز الوزراء بصورة واضحة مما اضطر الراضى الى استدعاء ابن رائق وتسليم الامور اليه وتلقيبه اياه بأمير الامراء . ومنذ ظهور امراء الامراء تلاشت نهائيا اهمية الوزراء فى الدولة العباسية

(١) اليعقوبى ١٨١ ج ٢ والبلاذرى ٨٣و٢٨٥

ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم فى أموال الجباية ، أصبح الخلفاء فى أواخر الدولة لا يعزلون عاملا من عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال ، واستخرجوا ما تصل اليه أيديهم ، وكانوا يسمون ذلك « استخراجا »

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال فى أوائل الدولة من اخوتهم وأعمامهم ، ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم · ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم ، فجنح العمال الى الطمع والعنف فى استخراج الاموال ، فعمد الخلفاء الى مصادرة أموالهم لاسترجاع ما استولوا عليه من غير وجه الحق · حتى فى أيام المنصور ، فكان لا يعزل عاملا الا قبض ماله وتركه فى بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » (١) · وتكاثر تعدي العمال فى أيام المهدى (سنة ١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر فى المظالم ــ وما هى الا مظالم العمال · ثم نظر فيها بعده الهادى فالرشيد فالمأمون الى المهتدى فى أواسط القرن الثالث

ومما نبه الخلفاء الى مظالم العمال أن الوزراء كانوا يباشرون الاعمال نيابة عن الخلفاء ، وكان هؤلاء يستشيرونهم فيمن يولونه من العمال ، فربما استمعوا اليهم وربما خالفوهم · وخصوصــا البرامكة فانهم كانوا اذا استشارهم الخليفة فى ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من أمره ، ويتركون الامر للخليفة بعد ذلك يقضى فيه بما يريد · ومن هذا القبيل أن الرشيد استشار وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان على خراسان فأشار عليه ألا يفعل ، فخالفه الرشيد وولاه اياها · فلما شخص على اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيرا ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط · فلما وصلت الهدايا الى الرشيد اعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد : « يا أبا على ·· هذا الذى أشرت علينا ألا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك البركة ! » فقال : « يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ··· أنا وان كنت أحب أن أصيب فى رأيى وأوفق فى مشورتى ، فانى احب أن يكون رأى أمير المؤمنين اعلى وفراسته اثقب وعلمه أكثر من علمى ·· ان لم يكن وراء ذلك ما يكره ·· أن هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف ، واخذ اكثرها ظلما وتعديا · ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد : « وكيف ذلك ؟ » قال : « قد ساومنا عونا على السفط

(١) الطبرى ٤١٥ ج ٣

الذى جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧٠٠٠٠٠٠ فأبى أن يبيعه ، فابعث اليه الساعة بحاجبى يأمره أن يرده الينا لنعيد فيه نظرنا ، فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧٠٠٠٠٠٠ ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك » (١) . وفى كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب (*)

وقد رأيت أن الطمع تطرق الى العمال ، حتى فى أيام الزهو العباسى ، ولكن البرامكة أخلصوا المشورة فغلوا أيدى العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان فيمن جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص ، فأطلقت أيدى العمال وأحرزوا الاموال لانفسهم ، وكانوا يسترضـــون الوزراء بالرشوة كما تقدم ، حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الاموال الطائلة

---

(١) الطبرى ٢٠٧ ج ٣

(*) الخبر كما هو وارد فى الاصل مختصر كما هو واضح ، وقد بحثت عنه فى الطبعة التى بين يدى من الطبرىفلم أجده لاكمله منه . ويكفى أن نذكر هنا أن اشارة يحيى الاخيرة كانت الى سفط جوهر كان قدبعث به عون الجوهرى الى الرشيد ليشتريه ، فعرض الرشيد عليه سبعة ملايين درهم ، فرفض الرجل واخذ السفط ومضى . وقد أشار يحيى بن خالد الى انه من الممكن للوزير ان يستولى عليه دون ثمن ، بأن يطلب السفط ثم ينكر ثمنه ، فلا يستطيع الرجل شيئا . والاشارة هنا الى ماكان على بن عيسى بن ماهان يفعله افى خراسان ليحصل على المال من الناس ظلما ، فيرسل الى الرشيد منه شيئا طائلا يجعله يلهج بذكره وقدرته

وقد فصل محمد بن عبدوس الجهشيارى اسلوب على بن عيسى بن ماهان فى ادارة خراسان فى خبر رواه ، قال : « وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلد على بن عيسى بن ماهان ، لتكثير وقع عنده على الفضل فى الاقوال ، فقتل على بن عيسى وجوه أهل خراسان وملوكها ، وجمع أموالا جليلة ، فحمل الى الرشيد الف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف الف درهم ، فلما وصلت اليه سر بها ، واحضر يحيى بن خالد ، فقال له: يا أبه ، أين كان الفضل عن هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ان خراسان سبيلها أن تحمل اليها الاموال ، ولاتحمل منها والفضل اصلح نيات رؤسائها ، واستجلب طاعتهم ، وعلى بن عيسى قتل صناديد اهل خراسان وطراخنتها « جمع طرخان وهو الرئيس » وحمل اموالهم ، ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ ، لوجدت فيه أضعاف هذه . وسينفق أمير المؤمنين مكان كل درهم منها عشرة » . فثقل هذا القول منه على الرشيد ، فلما انتقض أمر خراسان ، وخرج رافع ابن الليث ، واحتاج الى النهوض اليها بنفسه ، حتى صار الى طوس ، جعل يتذكر هذا الحديث ، ويقول : « صدقنى والله يحيى ونصح لى ، فلم أقبل منه . والله لقد أنفقت مائة ألف الف درهم وما بلغت شيئا »

كتاب الوزراء والكتاب ، تصنيف ابى عبد الله محمد بن الجهشيارى « نشر السقا والابيارى وشلبى » القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٢٨

وانظر عن الوزارة والوزراء غير ما ذكره المؤلف وما ذكرناه فى التعليقات :

Geiger Kuhn. Grundriss der Arabische Filologie 1, 248, 91; 181.

J. Welhausen, Das arabischee Reich und sein strutz. p. 81.

الماوردى : كتاب ادب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩

ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة

خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، طبعة رافيس ، باريس ١٨٨٤ ص ٨٤

H. Bowen, The good vizierAli ibn Isa. Cambridge 1928

والمادة التى كتبها فرانتس بابنجر Franz Babinger عن لفظ وزير فى دائرة المعارف الاسلامية

وغنى العمال ميسور فى تلك العصور بالنظر الى استقلالهم فى ادارتهم وشؤونهم ، وخصوصا عمل الاستيلاء الفوضـــوى فى كل شىء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها أن العامل اذا جاء فأول شىء يتوقعه أن يحمل اليه الناس الهدايا ، وفيها من الدواب والجوارى والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئا كثيرا (١) وقد يترك ذلك فى مقابل ما يقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة أو الوزير أو القهرمانة أو الكاتب أو الحاجب أو غيرهم من حاشية الخلفاء (٢) على أنهم كانوا يكسبون من مصادر أخرى كالاتجار بأصناف البضائع والاخشاب وغيرها (٣) ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات ، تبعا لما تقتضيه حاجتهم الى المال فى ارضاء الوزراء ، أو لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن أوسع أبواب الضرائب كسبا لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسى أن ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان (٤) وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار

***

ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر ألف دينار مثلا ، ويطالب بعشرة آلاف أو مائة ألف ، وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين ألف دينار (٥) فضلا عن اغتصاب الضياع وغيرها (٦) وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التى يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب .. فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم . سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم ١٠٠,٠٠٠ درهم (٧) وبلغت أموال على بن عيسى بن ماهان ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (٨) ، فلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة

وكان الغالب فى بادىء الرأى أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم ، كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ، ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلى بن عيسى . فانه عزله واستصفى أمواله المذكورة ،

---

(١) ابن الاثير ٥١ ج ٦
(٢) Ein. Abb. 80
(٣) المقريزى ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١
(٤) المقدسى ١٠٤
(٥) Ein Abb. 76
(٦) الماوردى ٧٨
(٧) المسعودى ١٨٨ ج ٢
(٨) الطبرى ٧١٣ ج ٣

وحملها مع خزائنه وأثاثه على ١٥٠٠ جمل ، غير ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن على قد دفنها فى بستان بداره فى بلخ (١)

مصادرة الوزراء

على أن مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل ، فأصبح المطلوب منهم لبيت المال فى الغالب مالا معينا فى العام على سبيل الضمان ونحوه · وتحولت الثروة المغتصبة الى الوزراء ، وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلا لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم ــ وكان الخلفاء لا يرون فى ذلك جورا ولا شدة لاعتبارهم ما فى أيديهم مختلســا من حقوق بيت المال

بدأت مصادرة الوزراء فى الدولة العباسية من أولها ، ولكنها كانت فى أول الامر على سبيل النكبة ، والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو للتخلص منه لغرض آخر · ومن هذا القبيل مقتل أبى سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس ، فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراسانى بسيفه وشى الى السفاح أنه ينوى اخراج الدولة من أيديهم ، فأوعز الى أبى مسلم فقتله ، ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة ــ ويقال نحو ذلك فى نكبة البرامكة فى أيام الرشيد ، والفضل ابن مروان فى أيام المعتصم · وفى نكبة الفضل هذا رغبة فى قبض أمواله لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ وأخذ من داره ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، وأثاثا وآنية قيمتها ١٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) ولما تمكن الاضمحلال من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواز على أموالهم

***

وبلغت المصادرة معظمها فى أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ) لان الوزراء استخفوا به لصغر سنه وأفضى تدبير الامور فى صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه · فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ، فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع وأعيد ثم قتل (٣) وكثر تبديل الوزراء فى أيامه وكثرت مصادراتهم · وأولهم ابن الفرات ، وزر له ثلاث مرات ، وقد تقدم ذكر ما احتشده من الاموال وقد صودر ، فأخذت كلها منه · وخلفه الخاقانى وكان سيء السيرة كما تقدم · ثم على بن عيسى ، وكان

---

(١) ابن الاثير ٨١ ج ٦
(٢) ابن خلكان ٤١٥ ج ١
(٣) الفخرى ٢٣٦

فاضلا ورعا حاول اصلاح الامور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة (*) ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب فى استخراج الاموال ٠ ووزر له أبو على محمد بن عبيد الله الخاقانى وأحمد بن عبيد الله أحمد بن الخصيب ٠ ومحمد بن على بن مقلة صاحب الخط الحسن المشهور٠ وسليمان ابن الحسن بن مخلد ٠ وعبيد الله بن محمد الكلوذاني٠ والحسين بن القسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب (١) وما من وزير الا وقبض أو صودر فأخذت أمواله وسجن أو قتل ٠ وكثرت المصادرات فى أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدم٠ وربما زاد مجموع ماقبضه من المصادرة على ٤٠٠٠٠٠٠ر٤٠ دينار — على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الاموال تبذيرا وتضييعا فى غير وجه نيفا و ٧٠٠٠٠٠٠ر٧٠ دينار ، سوى ما أنفقه فى الامور غير الواجبة (٢) وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

فأصبحت المصادرة بتوالى الايام المرجع الرئيسى فى تحصيل المال ٠٠ فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ٠٠ على أن الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة ، كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير

وكان الخلفاء يعتبرون أموال أولئك الوزراء أو العمال حقا لبيت المال قد اغتصبوه ، فاسترجاعه لا يعد جورا أو اجحافا ٠ وقد نجاهم ذلك من أثقال الدين الاهلى الذى تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم ، فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه فى وفائه أو استهلاكه ، وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك ، حتى أصبحت تلك الدول وخصوصا انجلترا تكلف الناس جعلا على كل عمل يرجون به كسبا

---

(١) جاء فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لادم ميتز « الترجمة العربية جـ١ ص١٢٧ »: « ولكن على بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه فى الامور الصغيرة لم يصدق الخليفة حينما راسله ليقر له بما عنده من أموال، فكتب له يذكر أنه لايقدر على اكثر من ٣ آلاف دينار، هذا وقد وجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار ، ولما ضيقوا عليه استجاب أخيرا الى دفع ٣٠٠ ألف دينار ، يعجل منها الثلث فى ثلاثين يوما ، ويؤدى الباقى على رسم المصادرات « كتاب الوزراء للصابى ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٥١ » وكان على بن عيسى يوبخ اباعبدالله آلبريدى لانه حلف للسلطان ان استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو فى الحقيقة ثلاثون ألفا، فقال البريدى انه اقتدى بعلى بن عيسى حيث حلف لابن الفرات ان ارتفاع ضيعته عشرون ألفا ، فوجد بعد ذلك انه خمسون الفا ، فكأنه القم على بن عيسى حجرا « تجارب الامم لمسكويه ٠ طبعة آمدروز ، جـ ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨ » فلم يكن هذا الوزير نقى اليد تماما ، وقد فرط فى تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجلا الى مال مؤجل ، لايدرى مايجرى فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف » « كتاب الوزراء للصابى ص ٢٩٠ »

(١) الفخرى ٢٣٩ — ٢٤٩ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

الكتاب

وهناك فئات أخرى من موظفى الدولة كانوا يستأثرون بأموالها ، ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأسا . وقد كانوا يطمعون فى تلك الاموال فى أيام بنى أمية فما بعدها . ولكنهم لم يتسع أمرهم ويخش شرهم الا فى عصر التقهقر العباسى . فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مالا كثيرا استخرجه منهم بالعنف (١) وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ (٢) . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المادرائى بمصر (٣) (*)

ولم يكن الغنى خاصا بكتاب الدواوين ، بل كان يتناول كل كاتب من كتاب أهل الخلفاء وغيرهم . وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس ، حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء — من ذلك قول بعضهم وهو يمدح أحد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

هو ما علمت من الامير فما الذى   تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا تتقى الاجناد فى أيامه   فقرا ولا يرجو الغنى الكتاب

وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفى يهجو الوزير والكاتب معا :

ونجا خالد بن برمك منها   اذا دعوه من بعدها بالامير
أسوأ العالمين حالا لديهم   من تسمى بكاتب أو وزير (٤)

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط فى تولية العمال أو سواهم ، كما فعل أحمد بن أبى خالد الاحول كاتب المأمون فى توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان ، وقد شرط له على نجاحه فى ذلك ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٥) وكان كتاب الدواوين فى الولايات يشاركون العمال فيما يأتيهم من الهدايا ، أو من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف (٦)

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاة الامر ، وخصوصا الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فانهم من أكثر

---

(١) الطبرى ١٣٣٠ ج ٣   (٢) ابن الاثير ٨٥ ج ٧   (٣) المقريزى ٣٣١ ج ١

(*) يبدو أن استخراج الكتاب لاموال الناس فى سبيل قضاء مصالحهم لدى الدولة كان امرا طبيعيا لايتنافى مع الامانة الادارية فى ذلك العصر . جاء فى سيرة الوزير ابى على محمد بن على ابن مقلة : « .. ثم انه تعلق بأبى الحسن بن الفرات الوزير ، واختص به ، وكان ابن الفرات كالبحر ، سماحا وجودا ، فرفع من قدره ، وأعلى من شأنه ، فمكث بين يديه يعرض رقاب فى مهمات الناس ، وينتفع بسبب ذلك ، وكان ابن الفرات يأمره بالتحصيل من هذه الجهة ايثارا لنفعه ، فمازال على ذلك حتى علت حاله وكثر ماله .. »
ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) الفخرى ١٥٨   (٥) اليعقوبى ٥٥٤ ج ٢   (٦) المقريزى ٩٩ ج ١

الناس دالة عليهم ، فكانوا كثيرا ما يستخدمون تلك الدالة واكتساب الاموال من تقديم الداخلين أو تأخيرهم والاذن لهم أو منعهم ، فكانوا يرتشون للتعجيل فى الاذن بالدخول على الخلفاء ، وكان ذلك شأنهم حتى فى عصر الراشدين — قال المغيرة بن شعبة : « ربما عرق الدرهم فى يدى أرفعه ليسهل اذنى على عمر » (١) وكثيرا ما كانوا يتوسطون فى تولية المناصب بالرشوة ، كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠،٠٠٠ دينار (٢) ، ويقال نحو ذلك فى كل من يتوفق الى دالة على الخليفة أو الامير ولو كان خادما (*)

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم أن الدولة العباسية لما غلب الجند على أمرها واستبد قواد الاتراك بها ، تحولت ثروتها من بيت مالها الى أيدى رجالها ممن ينوبون عن الخليفة أو يتوسطون بينه وبين الرعايا ، كالعمال ، والوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، ونحوهم . وأصبح الخلفاء لايستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين ، فكانوا كالذى يغتذى بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد أن بلغت غاية الضعف

وقد يتبادر الى الاذهان أن لثقل الضرائب دخلا كبيرا فى سقوط الدولة العباسية ، وقد رأيت أن الضرائب كانت ثقيلة فى عصر الازدهار العباسى — عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلا ، بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب — ولم يكن ذلك لأن تخفيض الضرائب يسوء الناس ، ولكن تخفيضها فى تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة أصحاب

---

(١) الاعلاق النفيسة لابن رستة ١٩٥ ج ٧ (٢) الفخرى ١٦٦

(*) يبدو أيضا أن حصول الحجاب على الاموال من الناس لقاء تسهيل الاذن على الخلفاء كان أمرا عاديا لا ينكره هؤلاء . روى الطبرى فى اخبار الرشيد انه اراد ان يشرب الدواء يوما ، فقال ابن ابى مريم «المضحك» : « هل لك ان تجعلنى حاجبا غدا عند أخذك الدواء ، وكل شىء أكسبه فهو بينى وبينك ؟ » قال : « افعل » فبعث الى الحاجب : الزم غدا منزلك ، فانى قد وليت ابن ابى مريم الحجابة . وبكر ابن أبى مريم ، فوضع له الكرسى ، واخذ الرشيد دواءه ، وبلغ الخبر بطانته . فجاء رسول أم جعفر « البرمكى » يسأل عن امير المؤمنين وعن دوائه ، فأوصله اليه وتعرف حاله ، وانصرف بالجواب ، وقال للرسول : اعلم السيدة مافعلت فى الاذن لك قبل الناس ، فأعلمها ، فبعثت اليه بمال كثير ، ثم جاء رسول يحيى ابن خالد ، ففعل به مثل ذلك ، ثم جاءه رسول جعفر والفضل ، ففعل ذلك ، فبعث اليه كل واحد من البرامكة بصلة جزيلة . ثم جاء رسول الفضل بن الربيع ، فرده ، ولم يأذن له ، وجاءت رسل القواد والعظماء ، فما أحد سهل اذنه الا بعث اليه بصلة جزيلة ، فما صار العصر حتى صار اليه ٦٠ ألف دينار . فلما خرج الرشيد من العلة ونقى بدنه من الدواء دعاه ، فقال له : « ماصنعت فى يومك هذا ؟ » قال : « ياسيدى ، كسبت ٦٠ الف دينار » ، فاستكثرها وقال : « واين حاصلى ؟ » قال : « معزول » قال : « قد سوغناك حاصلنا ، فأهد الينا ١٠ الاف تفاحة » ، ففعل ، فكان أربح من تاجره الرشيد »
الطبرى « القاهرة ١٩٣٩ » ٥٣٢/٦ — ٥٣٣

المطامع من رجال الدولة ، وكانت الأحوال قد اختلت بفساد النيات للأسباب التى ذكرناها ، فزال الامن واختل النظام العام ، فتقاعد الناس عن العمل وقلت ايراداتهم وعجزوا عن اشباع مطامع رجال الدولة ، فعمد هؤلاء الى العنف فى استخراج الاموال ، فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق فى الناس حتى سئموا الحياة فى دولة لا يأمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انجلترا من أقرب الدول الى الخراب ، لما فيها من أصناف الضرائب التى لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لأنها فضلا عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف أصنافها ، تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلا على أية مهنة يريد الناس تعاطيها حتى المحاماة والطب فى مقابل الاذن لهم فى الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف فيمن ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيها الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الأطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ ، وهناك ضرائب اخرى على معاملات المصارف وعلى أوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق ، وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانجليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء ، فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها ؟ والدولة الانجليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصا على الايراد ، وأكثر ما تكون حاجتها الى المال فى حالة الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ فى أثناء حرب الترنسفال ، فقد قدرت دخلها لذلك العام بمبلغ ١١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وخرجهـــا بمبلغ ١٥٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ، والفرق بينهما ٣٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ســـددت معظمه بزيادة الضرائب ، وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أى نحو ٣ وثلث فى المائة ، فجعلتها شلنا فى كل جنيه أى خمسة فى المائة ، فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت حصيلتها ١٫٧٥٢٫٠٠٠ جنيه ، وضريبة على سائر الخمور حصيلتها ١٫٠١٥٫٠٠٠ جنيه ، وعلى التبغ ١٫١٠٠٫٠٠٠ ، وعلى الشاى ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه وغير ذلك ، فلمـــا انقضت الحرب عمـــدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات ، فخفضت ضريبة الايراد أربعة بنسات أى أنها أرجعتها الى ما كانت عليه ، فقلت حصيـــلة الحكومة من الايراد ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وخفضت أيضا ضرائب القمح وغيره

وجملة القول ان انجلترا مع كثرة ضرائبها وما أثقل كاهلها من الديون ، فانها تعد من أثبت الدول قدما وأوفرها ثروة . فتخفيض الضرائب لا شك

أنه رحمة للناس ، ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب ، وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » .. فانه يقوض أركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدى عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته — ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ، ولذلك قالوا : « العدل أساس الملك ! »

***

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للأجناد الغرباء يحملون أموالها الى بلادهم ، وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال ، وامسى الخليفة لا سلطان له حتى فى قصره ، وبين غلمـــانه وجواريه ، تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية ، لأن الجباية منهم ، فطالبوهم بها بدون أن يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت . أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية ، والمبادىء الاقتصادية ، فلا يطالب أحد من الناس الا بما يقتنع هو أنه حق صريح ، والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة — وسنعود الى هذا البحث فى بعض الاجزاء التالية

ثروة المملكة العباسية

أى البلاد وأهلها

فرغنا من الكلام فى ثروة الدولة (الحكومة) العباسية ورجالها ، وبقى علينا النظر فى ثروة المملكة ، وهى البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين : المدن ، والقرى : (*)

المدن

كانت المدنية محصورة فى المدن دون القرى ، عملا بقاعدة التمدن فى تلك الايام ، وهى أن تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر ، ومن يلوذ بهم ، من الخليفة وآل بيته فرجال بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط

(*) ذكر المقدسى فى « أحسن التقاسيم » ص ٤٧ المصطلح الخاص بالمدن والتقسيمات الادارية ، وقد رأيت أن اورد هنا نص كلامه للفائدة ، بالنسبة لهذا الكتاب :

« اعلم اننا جعلنا **الامصار** كالملوك ، و **القصبات** كالحجاب ، **والمدن** كالجند ، **والقرى** كالرجالة

وقد اختلف فى الامصار ، فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير وبقوم بنفقته « او بنفسه » ويجمع رستاقه مثل عثر ونابلس وزوزن

وعند أهل اللغة : المصر كل ماحجز بين حهتين ، مثل البصرة والرقة وارجان

وعند العوام : كل بلد كبير جليل مثل الرى والموصل والرملة

واما نحن ، فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم ، وجمعت اليه الدواوين ، وقلدت منه الاعمال ، وآضيف اليه مدن الاقليم ، مثل دمشق والقيروان وشيراز

وربما كان للمصر او للقصبة نواح لها مدن ، مثل طخارستان لبلخ والبطائح لواسط والزاب لافريقية

فالاقاليم ١٤ : ٦ عربية : حزيرة العرب تم العراق ثم آقور ثم الشام ثم مصر ثم المغرب .و٨ عجمية : المشرق ثم الديلم ثم الرحاب ثم الجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند .

ولابد لكل آقليم من كور

ثم لكل كورة من قصبة

ثم لكل قصبة من مدن ، الا الجزيرة والمشرق والمغرب فان لكل واحد مصرين

والمصر قصبة كورته ، وليس كل قصبة مصرا

ثم الامصار اسم كورها أيضا ، الا الاربع الاول ، والمنصورة والثلاث الاواخر

وقد لخص ادم ميتز كلام المقدسى ، فذكر المصطلحات والتقسيمات كما يلى :

(١) **الامصار** ، وهى البلاد التى يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتقلد منها الاعمال وتضاف اليها مدن الاقاليم

(٢) **القصبات** ، وهى عواصم الاقاليم ، ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك

(٣) **المدن** أو **المدائن** ، وهى مايلى القصبة فى الاقاليم ومقامها مقام الحند

(٤) **النواحى** مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر

(٥) **القرى** ، وهى الملحقة بالمدن ، ومقامها مقام الرجالة

انظر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ص ١٩٥

والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مقارس لا عمارة فيها ، ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية ، وعاش النـــاس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ، ينالون جوائزهم وهداياهم ويبيعونهم السلع والجواهر ، والاقمشة وما اليها · وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه أو رجال دولته

ويمثل طبقات الناس فى تلك الايام قول الفضل بن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب · والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع ولكاع ، وربيطة أتضاع . . . هم أحدهم طعمه ونومه ! »(١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة ، وعلة كثرة جباياتها ، لاعتباره أن الدولة أو السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران ، قال : « فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها ، قل حينئذ ما بأيدى الحاشية والحامية ، وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة ، وهم معظم السواد ، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم ، فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجر فيقل الخراج لذلك ، لان الخراج والجباية انما يكونان من الاعتمار ، والمعاملات ، ونفاق الاسواق ، وطلب الناس للفوائد والارباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج · فان الدولة كما قلنا هى السوق الاعظم أم الاسواق كلها ، وأصلها ومادتها فى الدخل والخرج ، فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق أن يلحقها مثل ذلك واشد منه» اهـ

فالمدن الاســلامية كانت مؤلفة من : الملوك وهم الأصل ، ثم رجال الدولة ، وانما يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم ، ثم الاغنياء ، وأخيرا الاوساط وهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء أولئك · وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية فى هذا العصر ، عصر الحرية الشخصية ، فالناس فيه مستقلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه عضوا من أعضاء ذلك المجتمع لايستغنى عنه ، سواء كان صانعا أو كاتبا أو تاجرا أو موظفا

أما فى العصر العباسى فقد كان أهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم ــ يلتقطون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بما يصل

(١) ابن الفقيه ١

اليهم من أموال الجباية ، فاذا كثرت أكثروا واذا قلت أقلوا . والجباية من الخراج ، والخراج على الارض ، والارض انما يعمل بها الفلاحون وهى القرى فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين — والفلاح أساس الثروة فى كل العصور ، وخصوصا فى البلاد الزراعية . وهو فى الغالب أقل الناس حظا منها ، وخصوصا فى عهد التمدن القديم أو ما نسج على منواله ، اذ كانت الثروة والقوة فى أيدى فئة الحكام أو من ينوب عنهم أو ينتمى اليهم ، ويبقى سائر الناس أعوانا أو أتباعا أو خدما أو عبيدا ، يشتغلون اما بالصناعة لصنع ما قد يحتاج اليه أولئك من اصناف الأبنية والألبسة والاثاث والمجوهرات أو لخدمتهم فى قصورهم بالتطبيب أو الكتابة أو لامتاع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف أولترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما ، وأما بالفلاحة فىالارض واستغلالها. والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس فى كل زمان . وسنفصل ذلك فى الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة فى المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها للأسباب التى قدمناها. فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود وبيت ماله حافلا بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة وخصوصا باعة المجوهرات والرياش ، لانها مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ . فقد رأيت فى بعض ما تقدم أن جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٠٠ر٠٠٠ درهم فلم يبعه (١) وهو جزء مما فى حانوته ، فما قولك بسائر مافيه ؟ وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ ، فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار(٢) وكان فى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (٣) . وقس على ذلك سائر التجارات فى بغداد وغيرها. فقد كان فى اصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها فى مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه (٤) . وكان فى سيراف تجار واسعو الثروة يزيد مال أحدهم على ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها (٥) . ومنهم من يبنى دارا فينفق على بنائها ٣٠ر٠٠٠ دينار (٦) وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١ر٠٠٠ر٠٠٠

---

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٣٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخرى ١٤٢ (٥) الاصطخرى ١٥٤ (٦) ابن حوقل ١٩٨

دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته (١) ، وأمثال ذلك كثير فى معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم فى بلاطهم فى ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال ، فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنون والشعراء . فقد توفى ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤ درهم (٢) وتوفى جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوى ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود كما تقدم

واعتبر ذلك فى سائر البلاد والاحوال ، فتجد الثروة كانت فى الغالب عند الخلفاء ، أو من ينتمى اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولى الامر

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الاصليين ، ويسمونهم « أهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالاجرة أو شركاء لاصحاب الاملاك من الخلفاء أو الامراء ، أو من ينتمى اليهم من الاعيان ، وخصوصا الدهاقين فى العراق وفارس ، وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام

فلما كان الاســـلام تقرب أولئك الدهاقين من الحكومة بأموالهم (٣) ونفوذهم فى أهل بلادهم . ويندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجرى مجراهم ، وكانوا يقنعون بالحصول على مايقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانير جزافا ويهبونها مئات وآلافا ، وأهل القرى فى فقر مدقع لو رأى أحدهم الدينار لقبله مثنى وثلاث . ولو دفعت اليه عشرة دنانير أوعشرين لاصابه خبل أومات لساعته ، كما اتفق للصياد بين يدى ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه ، بما أنشأه من القصور والفياض والاصطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على القراء ، وهو الذى جاء وكيله يوما وقال : « انى تأتينى المراة وعليها الازار وفى يدها خاتم الذهب فتطلب منى فأعطيها» فقال له : «من مد يده اليك فأعطه» (٤) ومع ذلك فان هذا الامير نفسه ركب فى غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط ، فأصاب بشاطىء النيل صيادا عليه خلق لايوارى منه شيئا ، ومعه صبى فى

(١) ابن حوقل ٢٠٧ (٢) سير الملوك ١١٣ (٣) ابن الاثير ١٠١ ج ٥ (٤) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢

مثل حاله وقد ألقى الشبكة فى البحر، فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال : يا نسيم ادفع الى هذا عشرين دينارا ، فدفعها اليه ولحق ابن طولون. فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتا والصبى يبكى ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبى عن أبيه فقال له الغلام : «هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى أبى شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا» فقال : «فتشه يانسيم» فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبى أن يأخذها فأبى وقال : «هذه قتلت أبى وان أخذتها قتلتنى !» فأحضر ابن طولون قاضى المقس وشيوخه وأمرهم أن يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة وأن تحبس عليه وكتب اسمه من أصحاب الجرايات وقال : « أنا قتلت أباه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب أن يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينيه » (١)

فاذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحى العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم ، وهى غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة فى العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ، ومنها ما لم يزل عامرا الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر والزهراء بالاندلس وسنذكر أشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها فى ابان التمدن الاسلامى تتمة لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية فيما حمل العرب أو المسلمين على انشاء تلك المدن

كان المسلمون فى صدر الاسلام عربا أهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الاقامة داخل الاسوار وينفرون من الانحصار فى المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار فى العراق والشام ومصر ، كانوا فى بادىء الرأى اذا ساروا الى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فاذا فتحوا بلدا أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الأمصار الا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى اذا أراد أن يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين

(١) المقريزى ١٢٣

يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر ، فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور · ذلك كان شأنهم فى صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تثبيتا لفتوحهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القيروان فى افريقية (تونس الحالية) تثبيتا للفتح الاسلامى لهذه الناحية ، أو تحصنا بها من أعدائهم ـ كما فعل المنصور باختطاطه بغداد فانه بناها حصنا له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة · وكثيرا ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء ، مثل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنا ايراده ـ فلنأت الى وصف أشهر المدن الاسلامية فى ابان ثروتها

كثيرا ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية ، كما يصف السائحون اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ، ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن أو مساحتها الا نادرا · وانما كان همهم تعداد ما فى تلك المدن من الجوامع والحمامات ، والغالب أن يبالغوا فى ذلك الى مايتجاوزطورالتصديق كما سترى واليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها :

البصرة

هى من أقدم المدن التى بناها المسلمون أوهى أقدمها ، ولاتزال باقية الى الآن· مصرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة (١) وقد اتخذها العرب فى بادىء الامر معسكرا فى مكان لايحول الماء بينه وبين مكة ، فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر · وبنوها أولا بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن باذن عمر كما سيأتى فى الكلام عن الكوفة· وجعلوا المدينة خططا بحسب القبائل لكل قبيلة خطة ، وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعا ، وهو مربدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا· وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا بالمنازل (٢) ونظرا لموقعها التجارى فرضة للعراق ووسطا بين الشام وفارس ، أسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقرا لامارة العراق فى أيام بنى أمية· فعمرت البصرة فى أيامهم واتسعت عمارتها ، حتى بلغت مساحتها فى امارة خالد بن عبد الله (القسرى) فرسخين فى فرسخين أي ٣٦ ميلا مربعا فى أرض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم (سنة ١٩٠٣)

(١) ابن الفقيه ١٨٨ (٢) الماوردى ١٧١ · وانظر عن اختطاط البصرة وتنظيمها كتاب الدكتور صالح أحمد العلى : « التنظيمات السياسية والاقتصادية فى البصرة » ـ بغداد ١٩٥٢

وكثرت ثروة البصرة فى أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وتجاراتهم تمتد شرقا الى الهند والصين ، وغربا الى أقصى بلاد المغرب ، وجنوبا الى الحبشة · وكانت السفن ترسو فى ميناها وتحمل أصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها ، وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق وأنشأوا الميادين والبرك — قال ابن حوقل : « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الانيقة ، والميادين العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتطرقين منحدرين ومصعدين ·· »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية · وقد ذكرنا فى مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠٠٠٠٠ دينار فى العام ، فقس عليهم التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير

واشتهر أهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات ، حتى ضرب المثل فى ذلك فقالوا : «وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى ، ومن دخل فرغانة (فى الشرق) والسوس الاقصى (فى الغرب) ، فلابد من أن يرى بها بصريا أو خوزيا (من أهل خوزستان) أو حيريا (من أهل الحيرة) » (١) وشأنهم فى ذلك شأن السوريين اليوم ، أو هو دأبهم من عهد الفينيقيين

وقد نقلنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب ما قاله الاصطخرى عن سعة مدينة البصرة وعدد أنهارها على أيام بلال بن أبى بردة (سنة ١١٨ هـ) (٢) وانها زادت على ١٢٠٠٠٠ نهر ، تجرى بها الزوارق ، وأن الاصطخرى نفسه شك فى صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه ، فذهب بنفسه لمشاهدة المكان فى القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال : « وقد كنت أنكر ما ذكر من هذه الانهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع ، فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عددا من الانهار صغارا تجرى فى كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذى احتفره أو الى الناحية التى يصب فيها ، فجوزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها » وقال نفس هذا القول ابن حوقل فى عرض كلامه عن البصرة (٣) · ومع ذلك مازلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالما دقيق الملاحظة أقام فى البصرة أعواما طوالا وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة فى تلك الايام وحفر الانهار ، وامكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلا منها نهرا ، ويؤيد ذلك أنهم لايريدون بالبصرة المدينة فقط التى ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلا مربعا ،

---

(١) ابن الفقيه ١٩١ (٢) ابن الاثير ٩٣ ج ٥ (٣) الاصطخرى ٨٠

وانما يضمون اليها ما يتبعها من المفارس الى عبادان عند بحر فارس ، مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الفرس . قال ابن حوقل والاصطخرى : « ولها نخيل متصلة من عبدسى الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لا يكون الانسان بمكان منها الا وهو فى نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » . فاعتبر هذه المسافة طولا فى مثل نصفها عرضا على الاقل أى ١٥٠ ميلا فى ٧٥ وذلك ١١٢٥٠ ميلا مربعا ، فيعقل أن يكون فى الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله أعلم (*)

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر ، بناها سعد بن أبى وقاص ويقال فى سبب بنائها أن سعدا بعد أن فتح العراق وتغلب على الفرس نزل فى عاصمتهم المدائن ، ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة وفدا يخبره بذلك الفتح ، فلما وصل الوفد الى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدلت ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : وخومة البلاد غيرتنا . فأمرهم أن يرتادوا منزلا ينزلون فيه المسلمين لان العرب لايوافقهم من البلاد الا مايوافق ابلهم وكتب الى سعد : « ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر» (١) ففعل سعد ذلك فاختاروا مكانا وراء الفرات وبينه وبين الحيرة ، وبنوها أولا بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيـــام فأحرقت ، فاستأذنوا عمر فى البناء باللبن فأجابهم الى ذلك على شرط ألا يزيد أحدهم

(*) ميناء البصرة معروف بعدم صلاحيته للسفن وصعوبة اقامة المنشآت البحرية فيه : كأحواض السفن ومخازن البضائع وما الى ذلك ، وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التى بذلت خلال القرن الاخير لازال الميناء غير صالح للملاحة تماما ، لان البلد يقع على شط العرب ، بينه وبين البحر مسافة طويلة ، وشط العرب نهر غير ثابت أو مأمون . ولم يكن الميناء الحقيقى أيام المسلمين على الشاطىء نفسه ، بل فى جزيرة صغيرة تجاه مصب النهر تعرف بجزيرة عبادان ، وهى جزيرة صغيرة قال المقدسي أن « الماء عندها ضيق والبحر عليها مطبق » «ص١١٨» . وكانت مكوس التجارة تجبى عندها « معجم البلدان لياقوت ٧٧/١» وكانت فيها حامية لمكافحة القرصان . وعلى نحو ثلاثة أميال منها فى البحر موضع عرف بالخشبات ، وهى عمد من الخشب منصوبة فى الماء فوقها مرقب يسكنه ناظور ، ويوقد المرقب بالليل لتهتدى به السفن الى مدخل شط العرب ، وكان هذا الموضع مخوفا اذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به ، وقد وصف المسعودى هذه الخشبات « المروج ٢٣٠/١ » وذكر ناصرى خسرو أن ارتفاع الخشبات عن سطح البحر كان ٥٠ مترا وفى أعلاه حجرة مربعة للناظور « رحلة ناصرى خسرو ص ٢٠ » وذكر المقدسى أنه سمع شيخا يقول : هذا موضع يسافر فيه اربعون مركبا فيرجع واحد « احسن التقاسيم ، ص١٢»

وانظر فصل الملاحة البحرية فى كتاب آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية جـ ٣١٣/٢ وما بعدها

(١) ابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

على ثلاثة أبيات ولا يطاولوها · وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لان الامام عليا جعلها عاصمة ملكه الى أن قتل (*)

الفسطاط

هى أول مدن المسلمين فى القطر المصرى ، بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، فيما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة · ومن بقاياها جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم · وكان ذلك المكان معسكرا للعرب لما

(*) أنشأ العرب الكوفة لتحل محل عاصمة الفرس القديمة طيشفون Ctesifon التى سماها العرب المدائن ، ولم يشاءوا أن يتخذوا الحيرة قاعدة لهم لغلبة النصرانية على أهلها ، فابتعد سعد بن أبى وقاص بضعة أميال شرقى الحيرة واختط الكوفة ، والكوفة هى المكان المرتفع، مما يدل على أن الجزء الاول الذى اختط من الكوفة كان الجزء الواقع على التل · وبينما اختطت البصرة فى موضع مدينة قديمة يسميها العرب الخريبة ، كانت الكوفة انشاء جديدا. وكان اختطاط الكوفة سنة ١٧ او ١٨ هجرية « ٦٣٨ او ٦٣٩ م » · وكان موضع الكوفة ارض نخيل زرع فيها القطن وقصب السكر فيما بعد

وكانت الكوفة اول الامر مصرا قائما بذاته « اى قصبة وكورة » يحكمها عامل خاص، وفى بعض الاحيان كانت البصرة والكوفة تجمعان لعامل واحد · وكانت الكوفة أولا منزلا للعرب وحدهم، ثم تكاثر فيها التجار والموالى فعمرت وتمدنت ؛ فأصبحت مساكنها تبنى بالاجر بدلا من القصب وقد بلغت الكوفة أوجها ايام على بن أبى طالب الذى اتخذها عاصمة · وكان اختياره غير موافق لان الكوفة لاتستطيع الحياة بنفسها ، ولا يمكن السيطرة منها على ولايات دولة الاسلام المتسعة ، ثم ان صاحب الشام يستطيع ان يقطعها عن غرب الدولة الاسلامية كله ، وهذا هو الذى فعله معاوية بن ابى سفيان فى صراعه مع على بن أبى طالب

بيد أن العامل الاكبر فى اضمحلال الكوفة يرجع الى من نزلها من العرب انفسهم ، وقد اشتدت المنازعات بينهم حتى شكا عمر بن الخطاب من قلق أهلها ونزوعهم الى الخروج عن الطاعة ، وقد عرف معاوية بن أبى سفيان كيف يكبح جماح الكوفيين بمن ولاهم عليها من الحكام القادرين مثل زياد بن أبيه ومن بعده ابنه عبيد الله بن زياد ، وقد ظلت الكوفة رغم ذلك مركزا من مراكز الثورة على بنى امية ، فبايع أهلها لعبد الله بن الزبير ثم أيدوا ثورة المختار ابن عبيد الثقفى · ثم استولى عليها عبد الله بن مروان واقام الحجاج واليا على العراق ، فلم يشأ السكنى بالكوفة ؛ بل اتخذ واسط مقرا له ، واخرج من الكوفة أهل الفتنة والشغب ، فاستتبت أحوالها ، واستقرت الامور تماما أيام ولاية خالد بن عبد الله القسرى على العراق « ١٠٥ — ١٢٠ — ٧٢٤ — ٧٣٨ »

وعندما انتصرت الدعوة العباسية اتخذ أبو العباس السفاح الكوفة قاعدة لدولته ، وان لم يقم فيها ، بل فى الهاشمية الى شمالها الشرقى على نهر الفرات

وقد ظلت الكوفة عاصمة لبنى العباس زهاء ٢٠ سنة حتى أنشئت بغداد أيام ابى جعفر المنصور ، فأخذ امرها وامر الهاشمية ايضا فى الاضمحلال ، ولكنها ظلت مركزا للدعوات العلوية مما جر عليها الخراب · وقد زارها ابن جبير الرحالة فى القرن السادس الهجرى وقال أن معظمها خراب ، وبعد ذلك بقرنين زارها ابن بطوطة فوجدها خرابا لايسكنها أحد ، وقد انتقلت الاهمية السياسية للكوفة كمركز للشيعة الى بلدة النجف التى تسمى أيضا مشهدعلى

هذا عن التاريخ السياسى للكوفة ، اما دورها فى تاريخ الفكر العربى فأعظم من ذلك بكثير، فقد نشأت فيها مدرسة للحديث من ايام نزلها عبدالله بن مسعود ، وكان لهذه المدرسة شأن عظيم ، وكانت مهدا لمدرسة فى اللغة والنحو تنافس مدرسة البصريين ، والنزاع بين الكوفيين والبصريين معروف تناوله المؤلف فى كتابه عن تاريخ الادب العربى

انظر عن الكوفة بالاضافة الى مطولات التاريخ الاسلامى المعروفة وكتب الجغرافيين :

Niebuhr, Reisebeschreibung II, 261 sqq.
Caetani, Annali dell'Islam, Index
Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate, p. 3, 21, 25 sqq.-74 sqq. 81-83

جاءوا لفتح حصن بابليون ، وهو المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه ساروا الى الاسكندرية لفتحها ، فأمر عمرو بنزع فسطاطه (أى خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فأخبروا عمرا بذلك فقال : « لقد تحرم بنا بمتحرم » فأمر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى به من بقى هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره فى السكنى فيها . فسأل عمر الرسول الذى أرسله عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو : « انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفا ، فمتى أردت أن أركب اليكم راحلتىحتى أقدم عليكم قدمت» (١) فاستخلف عمرو فى الاسكندرية حامية وأمر فشدت الرحال الى حصن بابليون . فلما بلغوا فسطاط الامير رأوه لايزال منصوبا وفيه الطيور ، فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزا لمعسكرهم ، ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا فى بناء البيوت لسكنى الجيوش ، فاختط عمرو مدينة شـمالى الحصن دعاها الفسطاط ، فيها نحو عشرين حارة دعاها خططا ، وأقام أربعة من كبار رجاله ينزلون الناس فى الخطط المذكورة بحسب أحزابهم وقبائلهم

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين فى البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال (٢) وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها أنه كان فيها ٣٦٫٠٠٠ مسجد ، و٨٫٠٠٠ شارع مسلوك ، و١٫١٧٠ حماما . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل فى كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء فى مدحها قول الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شـوقا واننى ... لأدعو لهـا ألا يحل بهـا القطـر
وهل فى الحيـا من حاجة لجنابهـا ... وفى كل قطـر من جـوانبهـا نهر
تبـدت عروسـا والمقطـم تاجهـا ... ومن نيلها عقـد كما انتظم الدر (٣)

وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع ، وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس ، وبلغت نفقة البناء على بعضها...٧٠٠٫٠٠ وهى دارالحرم لخمارويه(٤)

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى أهلها تسمى «دار عبد العزيز » ، كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم

---

(١) المقريزى ٢٩٦ ١ (٢) ابن حوقل ٩٦ (٣) المقريزى ٣٤٠ ج ١
(٤) المقريزى ٣٣٠ ج ١

كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم · ونقل بعضهم أن الاسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ · وذكر رجل دخلها فى أوائل القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعا يخدمنى فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى ، وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة ، فسألت كم فيها من صانع فأخبرت أن بها سبعين (كذا) صانعا قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » (١)

وفى ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ، ومن هـــذا القبيل استكثارهم من الفرش · فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة ، وذكروا رجلا من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية · وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ــ وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم ــ قال القضاعى ان قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جملة جهازها ألف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار. ناهيك بتأنقهم فى المآكل والمشارب مما يطول شرحه ، وقد فصله المقريزى وغيره فى كلامهم على الفسطاط (*)

---

(١) المقريزى ٣٣٠ ج ١

(*) تعتبر الفسطاط واحدة من المدن الكثيرة التى يجمعها لفظ «مصر» او «مصرالقاهرة» فيما بعد . وتقع هذه المدن فى مواقع متقاربة على ضفتى النيل عند تفرعه الىفرعيهالكبيرين، فرع دمياط وفرع رشيد . وتضمها كلها الان مدينة القاهرة الحالية ، فيما عدا موقعمنفيس القديمـــة ؛ فانها تابعة لبنـــــدر الجيزة . ونستنتج من توالى اتخـــاذ العواصـــم فى هذا الموضـــع على اختـــلاف العصـــور انه الموضع المثالى لحـــكم مصر والاشراف على شئون الوجهين القبلى والبحرى . وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الاسرة الثالثة ، عندما أنشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم عقب توحيد الوجهين . وفىنفسالوقت ، عمر ألفراعنة موضعا اخر على الضفة الشرقية الى الشمال ، وهو قرية « أون » التى عربهـــا العرب الى عين شمس ، ولازالت قائمة الى اليوم

والى جنوب عين شمس ، فى مواجهة جزيرة الروضة قام حصن بابليون ، ويرجح انه من انشاء المصريين القدماء ، وان اسمه الاصلى بى ـ هابى ـ ن ـ اون Pi-Hapi-n-on ويرجح شتايندورف أن هذا الاسم كان يطلق على جزيرة الروضة أولا ، وان صورته الصحيحة هى : بر ـ هابى ـ ن ـ اون Per-Hapi-n-on ومعناه «جزيرة اونالنيلية» .وسواء كانت هذه هى الصورة الاصلية للاسم،ام الصورة الاولىالتى ذكرناها « وقد اقترحها المستشرق كازانوفا » فان الاغريق حرفوه الى بابيلون Babylone وتبعهم فى ذلك الرومان فالعرب

وقد حاول بعض جغرافيى العرب أنيفسرالاسم بقوله باب ـ ليون،اىالباب الذىبناهليون، وهو تفسير غير مقبول ، لان الاسم بهذه الصيغة كانمعروفا قبلالعرب،ومنغير الممكن أن يطلق الاغريق لفظ «باب» على أحد المنشآت . وقد خلط المؤرخون الاوروبيون فى العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر بين بابليون وبابل « بابلونيا Babylonia » ، فأطلقوا اسم بابلونيا على القاهرة بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابلونيا ويريدون سلطان مصر ، وظهر هذا بوضوح فى العصر المملوكى . وقد سمى المصريون بابليون قصر الشمع ، ولازالت بقاياه محتفظة بهذا الاسم الى الان

ويذهب بتلر الى أن لفظ الشمع هنا محرف عن لفظ كيمى او شيمى او خيمى وهو الاسم القديم لمصر ، اى اسمهاعلىأيام الفراعنة ، وقد استند فى ذلك الى ان اليونان كانوا يقولون بابيلون ان خيمى · ولا يمكن تأييد هذا الفرض بصفة قاطعة ، لان الثابت ان العرب كانوا

« بقية الهامش فى الصفحة التالية »

بغـــداد

هى عاصمة العباسيين ، بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولاتزال باقية الى اليوم ، وقد تغير موضعها مرارا . والسبب فى بنائها : ان السفاح لما بويع

يستعملون ابراج الحصن مواقع يشعلون فيها النيران للانذار ، ولايبعد أن تكون النسمية بقصر الشمع قد أتت من هنا

وفى أيام الفتح العربى كان الحصن على ضفتى النيل مواجها لجزيرة الروضة وكانت هذه الجزيرة قلعة محصنة ، تربطها بالحصن قنطرة ، ويربطها بالضفة الغربية للنيل جسر من القوارب ينتهى عند قلعة قائمة ، فكأن حصن بابيلون لم يكن الا جزءا من مجموعة من المنشآت العسكرية تسيطر تماما على مدخل الدلتا وتصل شاطئى النيل أحدهما بالاخر الى الجيزة . ولازال اسم بيلون محتفظا به فى دير صغير جنوبى القاهرة يسمى دير بيلون انظر : Butler, The Arab Conquest of Egypt, p. 238 sqq.

وفيما بين عين شمس وبابليون ذكر المؤرخون موضعين كانا قائمين زمن الفتح ، الاول امدنين التى وردت عند يوحنا النقيوسى فى صورة تندونياس Tendunyas ، وقد ذهب ليونى كايتاني الى أن موضعها موضع الازبكية التى كانت فى العصور الوسطى تمتد من موضع الحديقة المعروفة بهذا الاسم الى شاطىء النيل ، والثانى : مصر وهو لفظ يطلق من أيام الفتح على موضع غير محدد بين ام دنين وحصن بابليون . ويذهب بتلر الى أن هذا الموضع كان يقع جنوبى الحصن ، اماجست ناشر كتاب القضاة والولاة للكندى فيعتقد انه يقع شمالى الحصن ، انظر مقاله فى Journal of the Royal Asiatic Society, 1907 p. 63 sqq.

وعلى أى الاحوال يمكن القول ان اسم « مصر » كان يطلق على المساحة الواقعة بين امدنين وحصن بابليون ، ولم تكن فضاء ، وأنما كانت فيها مبان ومنشآت متفرقة كالكنائس والاديرة والكروم والحدائق من النيل الى المقطم

أما **الفسطاط** فقد نشأت بعد الفتح ، وهى لم تختط دفعة واحدة أو بقرار خليفة كما هو الحال مع بغداد أو بارادة قائد عسكرى كما هو الحال فى القيروان ، وانما نشأت من تحول المعسكر العربى المؤقت الذى اتخذه العرب أثناء حصار حصن بابليون الى مدينة دائمة ، أى استبدال الخيام ومنشآت الحصير بالمبانى . ومن هنا جاء الظن بأن اسمها مشتق من الفسطاط أو الخيمة ، وهو فرض لا يمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من الفساط (لاتينى Fossatum) أى الخندق المحيط بالحصن

وعلى أى الاحوال فقد استطاع روفن جست أن يضع رسما لهذه المدينة اعتمادا على أطلالها وبقية أساس بيوتها التى تم كشفها . كانت تمتد من القرية الواقعة جنوبى القاهرة ، التى كانت تعرف بدير الطين ثم عدل اسمها الى دار السلام وتتصل حتى بركة الحبش ، التى جفت الان ، وكانت تقع الى جوار جبل يشكر ، وهو تل زال معظمه الان وأصبح يسمى أرض طولون ، وعليه يقع جامع أحمد بن طولون . وفى وسط المدينة كان يقوم جامع عمرو بن العاص ، وهو باق الى الان فى موضعه القديم ، رغم تجديد بنائه مرارا كثيرة

وحول الجامع كان يقوم حى أو خطة من خطط المدينة تسمى خطة أهل الراية أى حاملى الاعلام ، والمراد ألوية القبائل ، كان لكل قبيلة لواء يحمله رئيسها وكان أصحاب الالوية رؤساء الجند ، فكأن هذه الخطة كانت خطة الرؤساء . وكان معظم أهل الراية اذ ذاك من المهاجرين والانصار . وحول هذه الخطة ، كانت تقوم خطط القبائل ، لكل قبيلة خطة أو حى ، وفيها ديوان المقيدين فى الجند الرسمى من أهلها ، أى أن هذا الديوان كان مجرد ادارة احصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش وأبنائهم ممن كان لهم الحق فى الانتظام فى الجندية والحصول على العطاء والرزق

ويلاحظ أن أهل الراية كان لهم ديوان خاص بهم فى خطتهم ، وان انتمى كل منهم الى قبيلة لها خطة . وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون الى قبيلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب بعد الفتح ينزلون فى خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط أنشئت خطة جديدة تسمى خطة أهل الظاهر ، وكانت أكبر الخطط خطط تجيب وغطيف وخولان ومعافر وكلها قبائل يمنية

وكانت هندسة الخطة أول الامر بسيطة : تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك بينها فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بانشاء مبان جديدة ، وتحول الى حزائر من المبانى تتخللها الدروب والازقة . ولم توضع للانشاء خطة ، ولهذا فقد اضطرب نظام

(بعده)

بالخلافة وأكثر أنصاره فى العراق وفارس، نزل الكوفة ومعه اخوه المنصور- ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى مايجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها (١) وبها مات السفاح وقبره فيها . وأقام

(١) ابن خلكان ١٥١ ج ١

البلد فيما بعد ، ولم تعد هناك شوارع رئيسية أو محجات تأخذ من طرف لطرف . ثم نشأت صفوف من المبانى على شاطىء النيل ، وكانت هذه الصفوف تسمى الحمراوات ، وتبدأ بالحمراء الدنيا عند الحصن ، تليها الحمراء الوسطى فالحمراء القصوى

وشيئا فشيئا اختفى اسم بابليون وبقى اسم الفسطاط ، وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، وأطلق فيما بعد كذلك على القاهرة . أما النصوص الاغريقية فأطلقت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بدوزى الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من الفسطاط اليونانى ، ويقوى هذا الرأى أن بعض النصوص العربية تقول فساط (بفاء مضمومة أو مكسورة) ، ويضعفه ان البلد لم يحط أول الامر بخندق وانما بزرب أو زربية وهو السور يتخذ من نبات ذى شوك ، ولا بد أن نضيف ان العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الوضع وانما هو كان موجودا قبل دخولهم ، ومن هنا فهو ليس لفظ المصر الذى أطلقه العرب على المراكز العسكرية التى أنشأوها كالكوفة والبصرة ، ويرجح انه لفظ قديم معناه الحدود أو الحد ، وقد يكون أصله نبطيا

وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت مع الزمن ، ولكنها لم تسور ، ففى سنة ٦٨٣/٦٤ حفر ابن الزبير حفيرا حول الفسطاط ليحميها من هجوم مروان بن الحكم خليفة بنى أمية . وقد قامت فيها المنشآت الحكومية واحدة بعد الاخرى ، فعمر الجامع العتيق ، وأنشئت مساجد صغيرة فى الخطط عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت اهراء كبيرة للقمح ذكرت فىالنصوص الاغريقية ثم أنشىء بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أى أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسى داخل المسجد ، ولهذا كانالمسجد يخلى منالمصلين بعد صلاة العشاء

ولكن الفسطاط لم تصبح مدينة بالمعنى الكامل أبدا ، لاضطراب أسلوب انشائها وقرب الكثير من أحيائها من جبل يشكر وبعدها عن النيل . وفى أيام المقريزى كانت المنطقة القريبة من جبل يشكر كلها قد أصبحت خرابا لا يعمره أحد . وزاد أمرها سوءا ما يحيكه ساويرس ابن المقفع من احراق مروان بن محمد اياها سنة ٧٥٠/١٣٢ ، وحتى فى أيام الامويين نجد عبد العزيز بن مروان يتخذ حلوان مقاما له . أما فى العصر العباسى فلم يقم العمال فى الفسطاط وانما فى موضع فى الحمراء القصوى عرف بدار الامارة . ونشأت حول دار الامارة بليدة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لان مبانى البلدين اتصلا ، فزادت أهمية الفسطاط بالوصول الى النيل وأنشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . والخلاصة أن الفسطاط أنشئت أول الامر بعيدا عن النيل قريبا من الجبل ، ثم زحفت نحو النيل زحفا طبيعيا ، وهجرت نواحيها البعيدة عن النهر

ويحدثنا المقريزى أن الفسطاط بوصفها الجديد قسمت اداريا الى قسمين ، عرف الاول باسم عمل فوق والثانى باسم عمل أسفل . وقد زار المقدسى الفسطاط وقال ان جامع عمرو كان يعرف اذ ذاك باسم الجامع السفلانى وجامع ابن طولون باسم الجامع العلبانى والحد بين قسمى القاهرة كان مسجدا يعرف باسم جامع عبد الله ، ولا نعرف من عبد الله هذا . وعلى الجملة يمكن أن يقال ان عمل أسفل كان النصف الجنوبى من البلد ، وعمل فوق هو النصف الشمالى . ويتحدث المقريزى عن عمل فوق على اعتبار انه حى كبير يبدأ من قصر الشمع ويمر بالمرصد والقرافة حتى جبل طولون ، فى حين أن عمل فوق يبدأ من العسكر ويمتد داخل عمل أسفل ، ويذهب كارل هاينريش بيكر الى أن عمل أسفل هو جزء البلد القريب من النيل وعمل فوق هو القسم الداخلى . وكان لكل من القسمين شرطة خاصة : شرطة أسفل وشرطة فوق أو الشرطة العليا

وقد استمرت العسكر مقام العمال حتى قدم أحمد بن طولون وأنشأ دولته معتمدا على جند من الاتراك . فكان لابد أن يختار مكانا جديدا لجنده ومقامه . وقد اختار ناحية شرقي العسكر والفسطاط وقسمها لجنده قطائع ، وأقام دار أمارته ومسجده القائم الى الان فى وسطها . وقد ذكر المقريزى من أحياء المدينة الجديدة التى عرفت بالقطائع أحياء الرميلة وزين العابدين والقلعة ، قلعة ابن طولون . ومعنى ذلك أن قاعدة الحكم انتقلت الى الداخل بعيدا عن النيل مرة أخرى مع ما فى ذلك من مشقة الحصول على الماء . ولكننا ينبغى أن

(بعده)

المنصور فى الهاشمية بضع سنين ، ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبنى فيه مدينة حصينة ، فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له ، فبنى فيه مدينة سماها بغداد ، وعرفت بمدينة المنصور

فلاحظ ان مدينة كالقطائع لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم وانما مجرد معسكر كبير يقيم فيه الامير وجنده ورؤساؤهم ، وكان عماد هذا المعسكر على الفسطاط ، التى كانت قد تحولت من معسكر للجند العربى الى مدينة مصرية يسكنها الاهالى وأصحاب الحرف والصنائع . واذا نحن استثنينا مبانى قطائع الجند ، ولم تكن أكثر من « قشلاقات » ، كان قصر ابن طولون وجامعه يطلان جنوبا على فضاء شاسع عرف بالميدان ، كان ابن طولون يلعب فيه الصوالجة ، وكانت الرياضة المحببة اليه والى جنده

وأوجه الشبه كثيرة بين القطائع وسر من رأى ، وقد نشأ أحمد بن طولون فى هذه المدينة الاخيرة ، ولا زال تشابه مئذنة جامعها بمئذنة جامعه دليلا على الاقتباس . وعندما انقضت دولة بنى طولون ودخل عسكر العباسيين مصر بقيادة محمد بن سليمان (٢٩٢/٩٠٤) أزال قصر ابن طولون ، بل أزال المارستان الذى أنشأه ولم يبق الا على المسكرات . وينص المقريزى بوضوح على أن المعسكر والقطائع لم تكونا جزءا من الفسطاط ، بل موضعين كل منهما مستقل بنفسه . وعادت القاعدة بعد ذلك الى العسكر ، وعمرت دار الامارة بعد أن كان أحمد بن طولون قد حولها الى ديوان للخراج

وقد ظلتالفسطاط ــ والعسكر أو الفسطاط فقط كما كانت تسمى ــ قائمة عامرة حتى بعد انشاء مدينة القاهرة ، بل انالجغرافيين والرحالة يؤكدون أن الفسطاط كانت أولالامر أكثر عمارة وأوفى بحاجات السكان ، وهذا طبيعى ، لانها علىشاطىء النهر أما القاهرة فكانت بعيدة عنه ، وكان النشاط الحقيقى فى الفسطاط ، وقد اشتهر منها موضع قريب من الجامع يعرف بزقاق القناديل كان أكبر سوق فى مصر . وقد ذكر المقدسى أن منازل الفسطاط كانت منأربعة طوابق وخمسة ، وأن سكان المنزل الواحد قد يبلغون ٢٠٠ وأن عدد المصلين خلف الامام يوم الجمعة كان يصل الى ١٠ آلاف ، وهو يقرر انها أعمر بلاد الاسلام وأحسنها هيئة وأوفرها خيرات ، وأكد ذلك ناصرى خسرو الذى زار الفسطاط ووصفها حوالى سنة ٤٣٩/١٠٤٦ وقال ان زقاق القناديل أعظم سوق فى بلاد الاسلام . ويقول ناصرى خسرو ان الفسطاط تبدو من بعيد كأنها قائمة على تل ، وكلامه هذا ينطبق على عمل فوق ، أى الجزء الداخلى الواقع على المرتفع ، لان عمل أسفل أى الجزء الساحلى من البلد كان معروفا بالزحام ووخومة الهواء

ولم يضمحل أمر الفسطاط الا أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، اذ تعاقبت عليها المصائب من تخريب الجند والمجاعة ، فخربت الاجزاء الواقعة بين جامع عمرو والقاهرة ، وعندما أنشأ بدر الجمالى سور القاهرة زاد حال الفسطاط خرابا فتحولت المنطقة الممتدة من باب زويلة الى جامع عمرو الى كيمان لا زال بعضها باقيا الى اليوم فى تلال زينهم . وانفصلت الفسطاط عن العاصمة ــ القاهرة ــ ولم تستطع أن تقوم بنفسها ، اذ كان اعتمادها دائما على القواعد التى يقيم فيها الامراء ورجال الدولة والجند . وفى العصر المملوكى زاد أمر الفسطاط هوانا ، بل أصبحت مجرد مركز ادارى لمصر العليا فى حين كانت القاهرة المركز الادارى لمصر السفلى . وانتقل اسم مصر الى القاهرة فى حين أصبحت الفسطاط مصر العتيقة أو مصر القديمة . وفى أيام الحملة الفرنسية لم يزد عدد سكان الفسطاط على ١٠ آلاف نفس ، ولكنها نشطت من جديد وعمرت فى العصر الحديث فأصبح سكانها سنة ١٨٩٧ نحو ٣١٨٤٠ نفسا ، ثم أصبحت حيا من أحياء القاهرة الحالية

القاهرة

بقى أن نتحدث قليلا عن القاهرة ، وهى العاصمة المصرية التى حلت محل الفسطاط

هناك حقيقة جغرافية لا بد من ذكرها اذا أردنا فهم تاريخ القاهرة ، فى عصورها الاولى على الاقل . ذلك أن النيل غير طريقه فى هذا الجزء بالذات من مجراه ، وانتقل رويدا ناحية الغرب ، مما جعل المواضع التى أنشئت على ضفته تبعد عنها بمرور السنين ، فتفقد نتيجة لهذا الكثير من أهميتها ، وربما عفى الزمن عليها مرارا لهذا السبب

مثال ذلك أن الماء كان يصل الى جدران قصر الشمع وجامع عمرو أول انشائه ، ثم اخذ النهر يتحول غربا حتى أصبح كلا القصر والجامع بعيدين عن النهر . وظلت المواضع التى خلفها النهر مستنقعات مدة طويلة ، لانها لم تجف دفعة واحدة ، ثم ان النهر كان ينحنى شمال الفسطاط انحناء شديدا ، أىأن كثيرا منأجزاء جنوبى القاهرة الحاليةكانت مجرىللنيل

(بعده)

بناها فى الجانب الغربى لدجلة بشكل مستدير ، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه . فلما كانت أيام المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى من دجلة ، وسمى ذلك المكان عسكر المهدى . ثم انتقل اليه الوجهاء

اذ ذاك ، وكانت قلعة الكبش على ضفة النيل ، ولهذا كانت متنزها لاهل الفسطاط ، وهذا الموضع ، قلعة الكبش يبعد عن النيل الان أكثر من كيلومتر . وكان الانحراف الى الغرب يتم عن طريق تكون جزائر فى مجرى النهر تكبر شيئا فشيئا ، ثم ينتهى الامر بتحولها الى برك تظل ملأى بالماء وقتا طويلا حتى تجف تماما ، وكانت البرك اذ ذاك كثيرة ، وذكرها كثير فى حوليات مصر الاسلامية ، وقد عدد المقريزى عددا منها فى خططه

وفى وقت الفتح لم يكن فى النيل اذ ذاك فى ذلك الموضع الا جزيرة واحدة كبيرة هى « جزيرة مصر » ، وتسمى أيضا الجزيرة فقط ، وهى جزيرة الروضة الحالية ، وكانت ، بالاضافة الى حصن بابليون تكون جزءا من النظام الدفاعى عن هذه المنطقة كما قلنا آنفا . وكانت هناك قنطرة تصل الجزيرة بالضفة الشرقية ، اى بحصن بابليون ، ولا ندرى ان كانت هناك قنطرة أخرى تصل الجزيرة بالجيزة ، ولو ان بعض النصوص التى ترجع الى عصر المأمون تذكر جسرا يسمى الجسر القديم ، ثم أنشىء جسر جديد ، والمراد هنا جسر من القوارب . أما من الناحية الشرقية فمن الثابت انه كانت هناك قنطرة ، وقد اختفت هذه القنطرة ، لان المجرى ما بين الجزيرة والنيل انسد من هذه الناحية وزحفت الفسطاط غربا ، وأصبح أهلها يأخذون الماء من فرع الجيزة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى

وقد حاول كافور الاخشيدى أن يعيد الفرع الشرقى ، وقام بالحفر ، ولكن دون نتيجة ، وانتهى الامر بأن كان الناس يصلون من الفسطاط الى مقياس الروضة سيرا على القدم . وقد حاول سلاطين المماليك اعادة الفرع الغربى مرارا ، لانهم كانوا يرون فى فصل جزيرة الروضة عن الفسطاط فائدة عسكرية ، اذ أن القلعة التى تقوم عليها تكون فى هذه الحالة أكثر حصانة ، ثم ان هذا الفرع الضيق أصلح ما يكون لانشاء دار صناعة تبنى فيها السفن ، وبالفعل فى أوائل سنوات الفتح أقام العرب دار صناعة فى هذا الموضع ، وبنى المصريون فيها سفنا كان لها أعظم الاثر فى تاريخ الحوض الشرقى للبحر الابيض ، مثال ذلك أن معظم المراكب التى اشتركت فى موقعة ذات الصوارى بنيت فى دار الصناعة بالروضة

وقد أفاد أحمد بن طولون من حصانة قلعة الروضة ، وعول بالفعل على اعادة الفرع الغربى ، ولكنه لم يستطع ، وأخذت مياه النيل تطغى على القلعة شيئا فشيئا حتى قضى الاخشيد على بقاياها سنة ٣٢٣/٩٣٤ ، ونقل دار الصناعة الى شاطىء الفسطاط ، وتحولت جزيرة الروضة الى منتزه ، ثم زاد عمارها ، حتى ان المؤرخين يتحدثون فى العصر الفاطمى عن ثلاث مدن متجاورة : الفسطاط والقاهرة والجزيرة

وفى شمال الجزيرة بنى الأفضل بن بدر الجمالى قصرا لنزهته سماه الروضة ، ثم امتد الاسم حتى أصبح يطلق على الجزيرة كلها ، ولا زال الامر على ذلك الى الان . وقد وضع الملك الصالح يده على الجزيرة كلها ، وأنشأ فيها قلعة جديدة عرفت بقلعة الروضة أو قلعة المقياس ، ثم أخلاها من أهلها وهدم ٣٣ مسجدا وكنيسة كانت هناك ، وأنشأ مكانها أبراجا ، وجعل جزيرة الروضة حصنا عظيما له ولدولته ، واجتهد فى اعادة حفر الفرع القديم حتى جرى الماء فيه ، وعادت الروضة جزيرة كاملة كما كانت أول الامر . وفى قلعة الروضة وضع مماليكه الجدد الذين سموا بالمماليك البحرية بسبب ذلك

وعندما زالت دولة الايوبيين عمل أيبك التركمانى على تخريب القلعة ، ثم أعاد انشاءها السلطان بيبرس البندقدارى ، أما الناصر محمد بن قلاوون وأبناؤه فقد هدموها تماما ، ونقلوا حجارتها لبناء منشآت بها فى الفسطاط ، ومن ذلك الحين لم يعد لجزيرة الروضة دور ذو قيمة فى التاريخ

ولم تكن القاهرة ، أو مصر القاهرة ، فى أول أمرها أكثر من مدينة عسكرية كالعسكر والقطائع . وقد أنشأها جوهر الصقلى قائد المعز عقب دخوله مصر ، وقد دخل الفسطاط من ناحية الجيزة فى ١٠ شعبان ٣٥٨/ ١ يوليو ٩٦٩ وضرب معسكره شمالى الفسطاط واتجه بصره الى انشاء معسكر خاص لجنده المغاربة ، وبدأ الانشاء فى ١٨ شعبان ٩/٣٥٨ يوليو ٩٦٩ وسميت أولا المنصورية ، ثم اختار لها المعز بعد وصوله اسم القاهرة فى خبر طويل يسرف المؤرخون فيه ويذكرون قصة الحبال التى مدها والطيور التى نزلت عليها فدقت الاجراس ، وقد أنشئت القاهرة موضع مكان كان يسمى منية الاصبغ بين الفسطاط وعين شمس

(بعده)

وأهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور ، وامتدت أبنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جانب بغداد الشرقى الرصافة والجانب الغربى الكرخ

وكانت منية الاصبغ على الخليج ، أو خليج أمير المؤمنين الذى شق على أيام عمرو بن العاص ، وكان يخرج من النيل شمالى الفسطاط ، ويمر بعين شمس ويتجه شرقا حتى يصب فى خليج السويس . وقد انطمر معظم أجزائه مع الزمن ، ولم يعد يصل فى أواخر العصر الفاطمى الا الى موضع شرقى عين شمس يسمى بركة الجب ، وقد ظل الخليج قائما حتى ردم خلال القرن التاسع عشر ، وقام مكانه شارع الخليج . كانت القاهرة تقع بين هـذا الخليج وجبل المقطم ، وكانت حدودها فى الشمال باب الفتوح ، وفى الشرق باب التوفيق الذى كشف أخيرا ، وفى الجنوب باب زويلة ، وفى الغرب شاطىء النيل . وكان هناك شارع يمتد من شمال المدينة الىجنوبها ، ويحمل أسماء مختلفة، أشهرها الى الان شارع النحاسين

وقد أنشئت القاهرة من أول الامر لتكون مدينة ، وهى لهذا تختلف عن الفسطاط . وكانت مقسمة الى حارات أى أحياء ، وهى تقابل الخطط فى الفسطاط . وقد سميت معظم الحارات أول الامر باسم فرق الجند التى سكنتها مثل حارة الروم (وكانوا جند جوهر خاصة) ولم يسكنها الاهالى من المصريين أول الامر ، بل اتخذوا الدور خارج أسوارها ، وعندما زاد عدد الجند فيما بعد ولم توجد لهم حارات ، سكن القادمون منهم فى حى جديد خارج البلد عرف باسم حارة الباطلية ، فيما بين باب زويلة والمقطم . وأما السود فقد أنزلوا خارج السور شمالى القاهرة عند خندق حفره جوهر تحصينا للبلد من الشمال وسمى خندق العبيد

وفىوسط البلد أقيمت قصور الخليفة ، وأكبرها قصران عرفأحدهما بالقصر الكبير الشرقى والثانى بالقصر الصغير الغربى وبينهما شارع عرف ، ولا زال يعرف ، باسم بين القصرين . وكانت هناك منشآت أخرى كبيرة منها دير قبطى عرف بدير العظام وقصر صغير عرف بقصر الشوك . وقد تم بناء القصر الكبير الشرقى ونزله المعز لدين الله فى ٢٣ رمضان ٣٦٢ هـ وقد وصف المقريزى فى خططه منشآت القاهرة وصفا طويلا مفصلا وأجمله الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه عن القاهرة

وقد مرت قاهرة العصور الوسطى فى أدوار شتى ، أهمها ثلاثة : الدور الاول دور قاهرة جوهر أو قاهرة المعز ، ولم تكن الا معسكرا صغيرا لم يلبث أن ضاق بأهله ، ثم تهدمت معظم مبانيها ومنشآتها أثناء الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر . وعندما تولى بدر الجمالى أمر مصر أعاد انشاء القاهرة ، فاستبدل سورها الذى كان من الطوب بسور من الحجارة ووضع عليه الابواب المعروفة : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح وباب التوفيق .. أما دورها الثالث ففى ولاية صلاح الدين الايوبى على مصر

وغربى القاهرة كان يمر الخليج ، كان خارج السور أول الامر ثم أنشىء سور آخر جعله داخل البلد . وفيما بين الخليج وشاطىء النيل كانت تقوم ضاحية المكس ، وكانت تصل الى النيل ، وكانت أشبه بميناء نهرى تجبى عنده الضرائب على السفن الصاعدة فى النهر . وكان جامع الحاكم بأمر الله يقع خارج السور أولا ، ثم وسع بدر الجمالى السور وأدخله فى البلد . وقد فتحت فى الاسوار أبواب أخرى لازالت أسماؤها باقية الى اليوم : مثل باب القراطين وباب المحروق وباب البرقية ، ولم تكن القاهرة متسعة حتى بعد توسيعات بدر الجمالى ، فلم تزد مساحتها على كيلومتر وربع مربعين

وقد أنشىء الجامع الازهر مع انشاء القاهرة الاولى ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة الاولى لاول مرة فى ٧ رمضان ٣٦١ هـ ، وكان أول الامر مركزا للدعاية الشعبية ، ولا يبدأ تاريخه الحقيقى كمدرسة اسلامية كبرى الا فى أيام صلاح الدين عندما عادت السنة الى مكانها الرسمى التقليدى فى تاريخ مصر

ولم تكن القاهرة طوال العصر الفاطمى المركز الحقيقى للنشاط الاقتصادى فى مصر ، اذ أن الفسطاط ظلت تتمتع بذلك المركز ، انما تحولت القاهرة الى المركز الرئيسى للنشـاط الفكرى والاقتصادى مع ابتداء دولة الايوبيين وخمل أمر الفسطاط كما رأينا

وكما بدأت مصر كلها عصرا جديدا من تاريخها القومى فى ظل الايوبيين ، فكذلك دخلت القاهرة فى عصرهم فى دور النهوض ، وأخذت تصبح شيئا فشيئا مركز الفكر الاسلامى كله ، فقد كان صلاح الدين الايوبى هو الذى فكر فى ادماج الفسطاط والقاهرة وبقية الضواحى المحيطة بهما فى مدينة واحدة ، ويرجع التفكير فى هذا الى سنة ٥٦٦/١١٧٠ وقد رسم الخطة وهو فى الشام يخوض حروبه مع الصليبيين ويبدو ان الفكرة نبتت فى ذهنه أثناء صراعه معهم:

(بعده)

وبلغت بغداد معظم عمارتها فى أيام المأمون ؛ حتى امتـــدت أبنيتهـــا وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٫٧٥٠ جريبا ، منها ٢٦٫٧٥٠ جريبا فى الجانب الشرقى ، و ٢٧٫٠٠٠ فى الجانب الغربى (١) ، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠ الى ٢ ١/ ٣٣٣ ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٫٠٠٠ فدان ، وهو شيء كثير · ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة ــ قال الخطيب البغدادى فى تاريخه أنها أربعون مدينة ، وأن الحمامات بلغ عددها فى أيام المأمون ٦٥٫٠٠٠ حمام (٢) وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال : « وكان عدد الحمامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام ، وأقل ما يكون فى كل حمام خمسة نفر : حمامى وقيم وزبال ووقاد وسقاء ، يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل · وذكر أن يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن أقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف انسان » (٣)

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هذه الايام ، فلا نسلم به كما هو ، ولكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة فى عهد

(١) سير الملوك ٥٥ (٢) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ (٣) سير الملوك ٥٥

فقرر أن يجعل الحصن الرئيسى للبلد على جبل المقطم وأن يبتنى هناك قلعة تشرف على ذلك السهل كله . وعندما عاد بدأ الانشاء ، فأنشأ الجزء الاول من قلعته (قلعة صلاح الدين الايوبى) ومد السور الشمالى حتى المقطم ، وبدأ فى نقل السور الغربى الى شاطىء النيل وامتد به حتى قصر الشمع ، ومن قصر الشمع يمتد السور الى القلعة . ولم يستطع أن يكمل هذا المشروع الضخم ، وكان هو نفسه يقيم فى القاهرة لا فى القلعة ، وقد اتخذ مقامه قصرا من قصور وزراء الفاطميين . أما أخوه الملك الكامل ، فقد أقام فى القلعة وبنى لنفسه وحاشيته هناك مساكن ، ومن ذلك الحين حتى الحملة الفرنسية أصبحت القلعة مقر الحكم فى مصر ، فيها أقام سلاطين المماليك وباشوات الترك ومحمد على نفسه ، فيما عدا الصالح أيوب الذى سكن قلعة الروضة

وتاريخ القاهرة طويل لا يمكن ايجازه فى هذه السطور ، ومراجعها كثيرة استوفاها الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه الآنف الذكر

مراجع : بالاضافة الى خطط المقريزى والخطط التوفيقية لعلى مبارك ، انظر :

La description de l'Egypte, Etat Moderne (Texte et Atlas)

منشورات جمعية حفظ الاثار العربية ابتداء من ١٨٨١ ومنشورات دار الاثار العربية

Mémoires de la Mission archéologique Française au Caire, vol. I et III

Salmon, Etude sur la topographie du Caire, La Kal'at al-Kabsh et la Birkat al-Fil (Mémoire pp. les Membres de l'Institut Fr. d'Archéclogie Orientale du Caire. Tome VII fasc. 1.

Butler, The Arab conquest of Egypt.

الترجمة العربية قام بها الاستاذ محمد فريد أبو حديد

Lane-Poole. The City of Cairo.

Franz Pasha, Kairo (Berühmte Kunst statten No. 21)

A. R. Guest, E.T. Richmond, Misr in the fifteenth Century. J.R.A.S. 1903

M. Berchem, Corpus Inscriptiono rum

Baedeker, Aegypten

الدكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة ، عدة أجزاء

ذلك التمدن العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في أثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال : « وقيل انه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠ر٠٠٠ انسان في الزواريق .. » (١) فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد ، قال ابن حوقل وقد رآها في أثناء القرن الرابع للهجرة : « وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات .. الخ » (٢) (*)

وهناك مدائن أخرى من بنــــاء المسلمين ذات شأن كالقيروان في بلاد المغرب ، وواسط في العراق ، وغيرهما في مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام ، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها ، مثل دمشق الشــــام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطـــلة ، والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرها فيما سنذكر من حالتها الاجتماعية في بعض الاجزاء الآتية ان شاء الله (**)

---

(١) الطبري ١٧٣٠ ج ٣ (٢) ابن حوقل ١٦٦

(*) انظر عن بغداد المادة الوافية في دائرة المعارف الاسلامية ، وقد ترجمت فيما ظهر من أجزاء الترجمة العربية

واليعقوبي : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه في المكتبة الجغرافية

ابن سرابيون : صفة الجزيرة وبغداد ، نشرة ليسترينج في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٨٩٥

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، طبعة القاهرة

بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين ، طبعة بغداد

ابن جبير : رحلة ابن جبير ، طبعة دى خويه ص ٢١٧ وما يليها ، وطبعة حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥

ياقوت : معجم البلدان ، مادة بغداد

مراصد الاطلاع : طبعة جوينبول ، مادة بغداد

ابن بطوطة : الرحلة ، طبعة دفريمي وسانجينيتي جـ ٢ ص ١٠٠ وما يليها

Niebuhr, Riesebeschreibung II 293 -329
J.F. Jones, Mémoir on the Province of Baghdad in Selections from the Records of the Bombay Gove rnment, 43. New Series, 304 sqq.
Rousseau, Description du Pashalik de Baghdad
M. Streck, Die ate landschaft Babylonian
G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate
C. Huart, Histoire de Baghdad dans les temps modernes

(**) لم نر ضرورة اضافة تفاصيل عن المدن الاخرى التي أشار اليها المؤلف مثل الانبار والهاشمية وواسط والقيروان وغيرها مما لم يشر اليه ، مثل بجانة وتطيلة ومرسية في الاندلس ، وفاس ومراكش وتونس في المغرب ، مما أنشأه المسلمون . لان المؤلف سيورد عنها في الاجـــزاء التالية تفاصيل وافية . وسنعلق نحن عليها في هذه المواضع

فهرس

	صفحة
مقدمة الطبعة الاولى	٦
ظواهر التمدن وحقيقته	١١
ثروة الدولة العباسية	
عصر النبى	١٣
عصر الخلفاء الراشدين	١٤
عصر بنى أمية	٢٢
ثروة الدولة السياسية	
فى العصر العباسى الاول	٣٨
جغرافية مملكة الاسلام	٤١
علاقة الاعمال السياسية بالعاصمة	٥١
جباية الدولة العباسية	٥٣
نفقات الدولة العباسية	٦٧
تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣)	٧١
أسباب الثروة العباسية	
مصادر الجباية	٧٥
سائرُ مصادر الجباية	٩١
أسباب قلة النفقة	٩٥
عدد موظفى الحكومة المصرية سنة ١٩٠٢	٩٧
ديون أشهر دول العالم	٩٩
ثروة الدولة العباسية	
فى عهد الاضمحلال	١٠٤
نسبة هذه الجباية	١١٦
أسباب اضمحلال الثروة العباسية	
فى العصر العباسى الثانى	١١٩
الضياع السلطانية	١٢٨
أسباب كثرة النفقات	١٢٩
هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟	١٣٤
رواتب العمال	١٣٨
رواتب الكتاب	١٣٩
رواتب الوزراء	١٤٠
رواتب القضاة	١٤١
رواتب العائلة المالكة فى انجلترا (١٩٠٢)	١٤٣
رواتب العائلة الخديوية سنة (١٩٠٢)	١٤٣

	صفحة		صفحة
رواتب حاشية الخليفة	١٤٤	الخلاصة	١٦٨
رواتب الجند	١٤٦	**ثروة المملكة العباسية**	
الافشين وبابك	١٤٦		
رواتب الجند (٩٠٣-١)	١٥٠	البلاد وأهلها	١٧١
عدد أيام الشهور	١٥٢	المدن الاسلامية	١٧٥
النفقة على البيعة	١٥٣	البصرة	١٧٦
استئثار رجال الدولة		الكوفة	١٧٨
بالأموال لأنفسهم	١٥٥	الفسطاط	١٧٩
المصادرة	١٦١	بغداد	١٨٢
مصادرة الوزراء وغيرهم	١٦٥	القاهرة	١٨٤

طبع
بمطابع دار الهلال